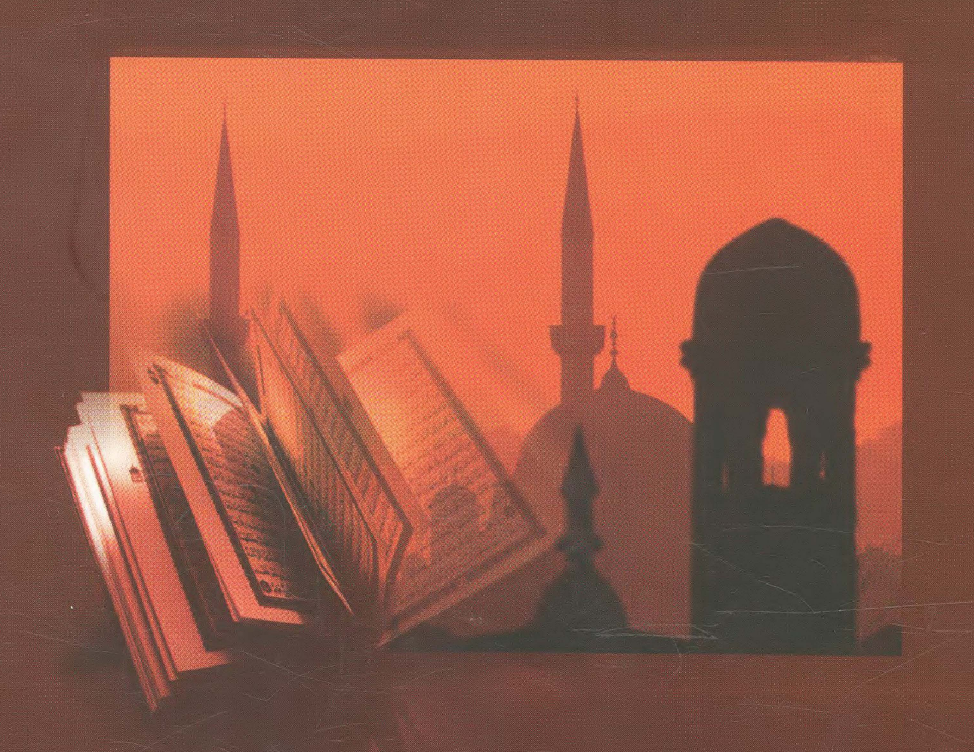
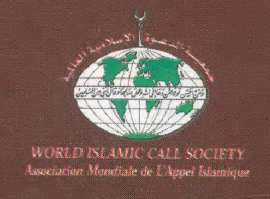
أ.د/ عبد الجليل غزالة

اللسانيات والإسلام والثقافة الأفريقية





اللسانيات والإسلام
والثقافة الأفريقية

اسم الكتاب: اللسانيات والإسلام والثقافة الأفريقية
تأليف: أ.د / عبد الجليل غزالة
طبعة: 2009 مسيحي



سنة الطبع: 1377 من وفاة الرسول ﷺ (2009 مسيحي)
طريق السواني - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية العظمى
هاتف: 65 - 4808461 - بريد مصوّر 4800293
ص.ب: 2682 طرابلس - الجماهيرية العظمى
www.islamic-call.com
E-mail: media@islamic-call.net
الرقم المحلي: 119 - 2008 / دار الكتب الوطنية بنغازي
الرقم الدولي: ردمك 7 - 164 - 28 - 9959 - 978 ISBN

أ.د. عبد الجليل غزالة

اللسانيات والإسلام والثقافة الأفريقية



بناء المعارف
في الفكر الإسلامي المعاصر

عتبات القسم الأول:

كيف يتم تنظيم «المعارف الدينية» في ذاكرة المسلم؟ ما الطريقة التي تخلق فهماً جيداً للخطاب الإسلامي؟ هل يملك الفكر الإسلامي المعاصر «نظرية عقلية» تبيّن كيفية اكتساب المعارف عند أهله؟ بماذا يفيد مفهوم «الإطار المعرفي» المسلم؟ ما علاقة مفهوم «المدارات» بمواقع الكلمات؟.

نموذج بناء المعارف عند المسلم:

لا يحتاج المسلم إلى من يطلعه على شريعته، فهي عبارة عن مسلمات عند الجميع . إنه يبني المعارف في هذا الصدد، انطلاقاً من مواقف ومقامات معينة، مثل الصلاة، الزكاة، الحج، الطهارة، الجار، الديون، حدود الله...

لا يشترط التعامل مع هذه المكونات الدينية أي استحضار أو تذكير، إلا إذا أردنا معارضتها. تبرز لنا العديد من الممارسات الدينية أن بناء المعارف في شريعتنا الحنيفة (قرآن + سُنّة + إجماع) يملك سماتٍ متميزة تجعلها منظمة بطريقة ثابتة على شكل وحدة نموذجية متكاملة راسخة في ذاكرة المسلم[1].

1 - يميز معجم الشريعة الإسلامية بين كلمة (مسلم) و(مؤمن) فالأولى تشير إلى توفر وعي نظري بالقضايا، أما الثانية فتدل على اتباع ممارسة فعلية، توخياً لمقاصد معينة.

يخزّن المسلم معارفه الدينية المتعلقة بشريعته في ذاكرته على شكل وحدة مرصوصة، تضم مجموعة من الحقائق الاعتقادية المتسقة بطريقة مبسطة. إنه لا يحمل معلومات دينية تكون مبعثرة داخل فضاءات مختلفة من ذاكرته.

يرتكز فهم الخطاب الديني عند المسلم المعاصر على تحليل منهجي للمعلومات التي يخزنها في ذاكرته. إن كل السلوكيات والتأويلات والأعمال المتعلقة بالشريعة الإسلامية تنبع من عملية الفهم الحاصل في ذاكرة المسلم المعاصر. يمثّل إذن فهم الخطاب الديني الحالي عملية استرجاع للمعلومات التي يخزنها المسلم في ذاكرته. يطرح هذا العمل سؤالين مهمين:

كيف يسترجع المسلم المعلومات القديمة المخزنة في ذاكرته ويربطها بالخطابات الدينية المعاصرة، التي يتعامل معها؟ ما هي أفضل طريقة علمية لتخزين «الخطاب الإسلامي» المعاصر، بحيث نستطيع تمحيص الأفكار القديمة المماثلة، التي يخزنها بعض المسلمين .... ؟

لا يطرح الفكر الإسلامي المعاصر «نظرية عقلية» نقدية ـ حسب ظننا ـ تبين كيفية اكتساب المسلم للمعلومات السابقة المخزنة في ذاكرته. فهذا المجال العلمي ما يزال غامضاً نظراً لشيوع كثير من الأخطاء والأفكار السطحية المتداخلة.

يبرز البحث العلمي المعاصر أن الدين الإسلامي يقدم «معلومات حاسوبية» عن العالم، بشكل واضح ومتنوع. إنه يرسم الحدود الفضائية للعالم عن طريق: قصص الأنبياء، الجنة والنار، الموت، الميراث، الأسرة، المجتمع، المساجد...

يحتوي هذا العالم على قوالب ثابتة وأشكال محددة في الشريعة الإسلامية. لذلك فإن معلومات المسلم عن العالم ترد منظمة داخل مجموعات، تنتمي سابقاً إلى مجالات معرفية مختلفة، لكنها تتراص وتشدّ بعضها، نظراً للحاجة الماسة.

يرتكز «فهم النصوص الدينية» عند المسلم المعاصر على استخدام جزء محدود من معلوماته المتنوعة التي يحتاجها لتأويل هذه النصوص، فقراءة قصص الأنبياء أو تلاوة

سورة أو آية مطهرة تتعلق بالجنة والنار، الموت، البعث، المعاملات، تعتمد على حيثيات وخلفيات هذه الموضوعات والقضايا، ولا تحتاج أية معلومات خارجية، إلا إذا تطلب الأمر ذلك. ورغم كل هذا فإن الفكر الإسلامي المعاصر لا يوضح لنا كيف يخزّن المسلمون معلوماتهم عن شريعتهم. يقتصر عمل البحوث هنا على معالجة طرق استخدام هذه المعلومات، أثناء حدوثها، وإبراز دورها في تفسير وتحليل مظاهر الشريعة الإسلامية.

الإطار المعرفي الديني عند المسلم:

يخزن المسلم معلوماته الدينية عن شريعته على شكل بيانات، تمثّل مواقف نموذجية. يدفعه كل موقف إسلامي جديد إلى تغيير نظرته بالنسبة للقضايا المطروحة، بناء على هذا الإطار المعرفي المخزن في ذاكرته[2]. يعتمد الإطار المعرفي الإسلامي على التذكر، الذي يكيفه المسلم مع واقعه وثقافته، إذ يغير بعض التفاصيل الضرورية[3].

يقدم لنا مفهوم «الإطار المعرفي الإسلامي» بيانات عن القضايا والإشكالات الساخنة التي تشغل المسلم حالياً، إنه يخزن المعلومات ينتج «برامج إسلامية» بها تمحيص ونقد واستنتاج مستخلص من أعماق البُنى STRUCTURES المُجمّعة. يخلق هذا المفهوم تنسيقًا بين ما يتعلمه المسلم يوميًا بالنسبة لدينه الحنيف، وما يملكه من خبراته وتجارب مفيدة في ذاكرته.

تؤسس العديد من الفضاءات «إطارات معرفية إسلامية» المسجد يشكل إطار للصلاة وبيت الله الحرام يمثل إطاراً للحج.. تضم هذه الأطر أعمالاً وبيانات إسلامية نموذجية. لا

2 ـ ينظر: THOMASON (R), FORMAL PHILOSOPHY.

3 ـ وظفنا في هذه المقالة ثلاثة مفاهيم، يقابلها بالإنجليزية:

أ ـ الأنساق الذهنية: SCHEMATA.

ب ـ المخططات الذهنية: SCENARIO.

ج ـ النماذج الذهنية: MENTAL MODELS.

تحدد عملية الأطر المعرفية الإسلامية كل ما يتعلق بجوهر الخطاب الديني الإسلامي المعاصر، فهي لا تبرز إلا القليل مما تتضمنه أو تستشرفه شريعتنا. كما أنها لا تستطيع تحديد الأطر الدينية التي يتم تنشيطها، دون غيرها. نقدم مثالاً على ذلك: «شاهد المسلمون عبر القنوات الفضائية المتنوعة المنتشرة في جل بقاع المعمورة الإمام السديسي وهو يقف داخل المسجد الحرام بلباسه الأبيض الجميل، أمام جموع عباد الرحمن لأداء صلاة القيام. كان ينتصب بهيبته ووقاره المعهدوين بين الأعمدة المزخرفة من طرف صنّاع بارعين». فلماذا يقع الاختيار على إطار «المسجد الحرام» ولا يقع على «القنوات الفضائية»؟. أو «وقوف الإمام السديسي» أو «الأعمدة»؟.. يضم «الإطار المعرفي الإسلامي» هنا عدة أطر فرعية، تابعة له لكنها لا تلعب دوراً مهماً في فهم المسلم للنص السابق.

المدارات اللسانية[4]

إنها تقوم بتجسيد وبلورة العلاقة القائمة بين مواقف المسلم وسلوكه بالنسبة لقضايا شريعته. لذلك فهي تقوم بتحليل مستوى الفهم للبناء اللغوي العربي، الخاص بالنصوص الدينية التي يتعامل معها: استعمال التوابع ، الأدوات، الأفعال، الصفات، أشباه الجمل... يستخدم مفهوم «المدارات» عدة توقعات ترتبط بمواقع الكلمات العربية ووظائفها، من خلال «برمجة تشمل نسقاً قياسياً من الوقائع ». إنها تعطي تفاصيل عن الأخبار والمعلومات الدينية، التي تضمها بعض الجمل العربية.

عتبات القسم الثاني:

كيف يستطيع مفهوم المخططات الذهنية تنشيط خانة خاصة بالصلاة في ذاكرة المؤمن؟ هل تتوفر البحوث الإسلامية على نجاعة فعلية لتنشيط مخططات ذهنية خاصة

4 - ج. ب. براون، ج. يول: تحليل الخطاب، ترجمة محمد الزليطني ومنير التريكي، ص 283.

بفهم شريعتنا؟ ما الإشكاليات التي تبقى عالقة في هذا الحقل المعرفي؟ ما دور مفهومَي الأنساق والنماذج الذهنية في هذا الطرح؟.

المخططات الذهنية عند المسلم:

يساعد هذا المفهوم المسلم على تأويل نصوص شريعته. فالظروف والمعارف المخزّنة والمواقف الثقافية المحيطة به، هي التي تشكل مخططات ذهنية خاصة بالتأويل. إنها عبارة عن نظرية نفسية.. تبرز لنا المخططات الذهنية أن الصلاة في المسجد الحرام تخصص تلقائياً «خانة» للإمام لأنه يمثّل صورة ذهنية إسلامية، يقع تنشيطها نظرًا لدورها الفعّال في فهم الموضوع..

لا يحدد المفسّرون والباحثون، قديماً وحديثاً بشكل دقيق «درجة النجاعة» التي توظف لتنشيط المخطط الذهني الملائم لعملية الفهم الحقيقي عند المسلم لجوانب شريعته[5].

الأنساق الذهنية:

تؤسس نحواً لجميع نصوص الشريعة الإسلامية، إذ ينبع من نسق ذهني يحدد اجتماعياً، بناء على عدة عناصر (الإطار مثلاً). يوظف المسلم في هذا الاتجاه أنساقاً ذهنية منتقاة من ذاكرته لتقديم أمثلة وشروحات تساعده على فهم النصوص الدينية التي يتعامل معها. تمثل الأنساق الذهنية إذن مجموعة من الضوابط، ترتكز على الخلفية المعرفية الإسلامية المنظمة، التي تدفع المسلم إلى التنؤ بمظاهر تتعلق بتأويل الخطاب الإسلامي. إنها عبارة عن بُنى ثابتة من المعلومات، مثل: الصلاة، الزنا، الزكاة، السرقة، إزالة الحدث. يوازي مفهوم الأنساق في هذا المستوى مفهوم الإطارات.

يساعد مفهوم الأنساق الذهنية المسلم المعالج للخطاب الديني المعاصر، على

---

5 ـ يدفع هذا المفهوم بعض تيارات الخطاب الإسلامي المعاصر إلى تحديث موضوعاتها ومفاهيمها، نظراً لإثارتها عدة سلوكيات متزمتة أو متطرفة.

اكتساب طريقة معينة لتحليل إرهاصات ومخاض هذا الخطاب منذ البداية وحتى النهاية. إنها تُخلق بهذا التوجه وسيلة عقلية لتمثيل الخلفية الدينية الإسلامية المرتبطة بالمعارف المستعملة، مضارعة في ذلك الإطارات والمدارات والمخططات الذهنية.

يترك البحث الإسلامي بعض الإشكاليات عالقة في هذا المستوى، مثل:

أ ـ اختيار الأنساق وإدماجها لتفسير نصوص دينية متنوعة.

ب ـ طرق تمثيل المعارف الدينية الموظفة.

جـ ـ نظام تمثيل فرعي ضمن سياق معين لتحقيق تفسير فعلي.

د ـ كيفية التعامل مع الأشكال النمطية للتمثيل المعرفي الإسلامي.

النماذج الذهنية:

يحتاج المسلم إلى نموذج ذهني يشكل تمثيلاً داخلياً يعالج واقع الأمر بالاعتماد على بناء الجمل. يحقق هذا المفهوم نتائج جيدة على مستوى تذكر الجمل، أكثر من التفكيك المعنوي لمفردات النص. كما أنه يعتمد على علم الدلالة النموذجي النظري لتمثيل حالة ممكنة من الحالات، تقع عند نقطة محددة زمانياً ومكانياً، مما يجعلها توافق معنى جملة من الجمل[6].

يختلف تمثيل النماذج الذهنية للواقع بأشكاله المتنوعة من مسلم إلى آخر، تبعاً لمستوى فهم كل واحد لقضايا شريعته. يتم هذا الفهم عن طريق نماذج ذهنية يبنيها المسلم بالنسبة للموضوعات. لا تخضع هذه العملية إلى قواعد محددة خاصة بالاستنتاج، وإنما تبقى مجرد طرق لاختيار النموذج لمعرفة مدى ملاءمته للوضع الذي يصفه النص الإسلامي.

تمثل النماذج الذهنية[7] طريقة في التفكير حول كيفية فهم المسلم للخطاب الديني المعاصر، كما أنها تُخلق طريقة لممارسة تحليل الخطاب الديني.

6 ـ MINSKY (M), A FRAMEWORK FOR REPRESENTING KNOWLEDGE, P.60.

7 ـ المفهومان الموظفان في هذه المقالة يقابلهما بالإنجليزية:

أ ـ إطار FRAME.

ب ـ مدار SCRIPT.

إشكالية اللغة الواصفة
في الفكر الإسلامي المعاصر

الأطروحات..: هل يملك الفكر الإسلامي المعاصر «نظرية تصنيفية صورية» تعالج اللغة العربية الواصفة لقضاياه؟ ما علاقة هذه «اللغة الاصطلاحية» بالمتغيرات الإسلامية؟ كيف تتعرض العربية الواصفة لموضوع «الحقيقة» في الفكر الإسلامي المعاصر؟ هل يمكن للغة معينة أن تتحدث عن نفسها؟.

مفهوم اللغة الواصفة في الفكر الإسلامي:

لم تتعرض الدراسات أو البحوث الإسلامية المتخصصة ـ حسب ظننا ـ لموضوع العربية الواصفة (METALANGUAGE)[1]، التي بواسطتها نعالج مختلف علوم شريعتنا الحنيفة. كما أننا لا نجد «نظرية عربية تصنيفية صورية» في هذا المجال. نصادف في هذا الصدد عدة مفاهيم ومصطلحات ما تزال غامضة بالنسبة للفكر الإسلامي المعاصر. لذلك فإن بعض الخطاب العربي الحالي الذي يرتبط بهذا الفكر يبقى من دون معايير دقيقة، نظراً لعدم اعتماده على أُسس منطقية: إنه لا يغير قيم الحقيقة، حيث يعالج مضمون العلامة اللسانية العربية في هذا المستوى، بناء على ثنائية: الصحيح / الخطأ. يؤدي هذا العمل إلى توجيه النقاش الإسلامي صوب مقابلات فكرية: المقبول / المرفوض.

1 ـ هذا الرأي أوردته الكاتبة الفرنسية غاي دوبوف، ضمن كتابها (اللغة الواصفة)، نقلاً عن طارسكي (1931) مسيحي.

تخلط الدراسات اللسانية العربية المعاصرة المرتبطة بالفكر الإسلامي بين قضايا هذا الفكر واللغة العربية الواصفة التي نستخدمها على مستوى مرتكزاتها النظرية. لذلك فإن اللغة العربية الواصفة للفكر الإسلامي المعاصر توجد متناثرة ضمن العديد من الكتب والدراسات، حيث تلوح متناقضة جزئياً، لأن قواعد بناء خطابها ما تزال غائبة.

تمثل اللغة العربية الواصفة نسقاً من المفاهيم والمصطلحات التي نتحدث بها عن اللغة العربية الطبيعية، مما يؤسس قضايا وموضوعات الفكر الإسلامي. ترتكز اللغة العربية الواصفة في مجال الفكر الإسلامي على كلمات ومفاهيم أكثر غنى وثراء لأنها تحتضن إشكاليات وقضايا هذا الفكر.

يحتاج تحديد «اللغة العربية» الواصفة للفكر الإسلامي المعاصر إلى «لغة صورية» منطقية. فلغة هذا الفكر ليست «نسقاً مغلقا»، إذ أن الأدلة القوية تبرز عدم تناقض القوانين. كما أن هذه «اللغة الاصطلاحية» تعد هي أيضاً قوية لارتباطها بحقيقة قيمة هذا «النسق الإسلامي».

تعالج «اللغة العربية الواصفة» موضوعات (THEMES) الفكر الإسلامي، مستخدمة عدة كلمات ومفاهيم لتحديد «الحقيقة» المتعلقة بهذا الفكر.

لا نستطيع إنجاز «لغة اصطلاحية» واصفة للفكر الإسلامي، دون الأخذ بعين الاعتبار بعض المتغيرات المتميزة. لذلك فإن اشتقاق المصطلحات والمفاهيم والكلمات العربية يجعل لغتنا الواصفة تتضمن كل قضايا وإشكاليات فكرنا(2).

تتطلب المفاهيم والمصطلحات التي تستخدم لمعالجة قضايا الفكر الإسلامي إيجاد مجموعة من الرموز المنطقية، التي تخضع لقواعد تلائم موضوعات هذا الفكر. تكون هذه الرموز مشتركة بين «المنطق الإسلامي» ولغته الواصفة.

---

2 - إن الجهل والخطأ بالنسبة لتحديد المصطلحات العربية المعاصرة يؤديان إلى انتشار حالة من الفوضى في عدة تخصصات. ورد في أحد أعداد (مجلة اتحاد الإذاعات العربية) أن كلمة (CABLE) أجنبية، فما دلالة هذه الاشتقاقات: كَبّلَ - يُكَبِّل - تكبيلاً، فهو مكبِّل ومكبّل..؟ أليست عربية، مشتقة حسب مقياسٍ صرفي عربي أصيل؟

يشيع في بعض الدراسات والبحوث الإسلامية المعاصرة أن لغة الموضوعات والقضايا المدروسة هي نفسها التي يتحدث بها الدارس أو الباحث عن هذه الموضوعات والقضايا. يمثّل الفكر الإسلامي المعاصر تفسيراً متنوعاً لأغلب مظاهر شريعتنا وللعلوم المرتطبة بها. كما أن هذه العلوم تمثل بدورها تركيباً منطقياً للغتنا العربية الواصفة لفكرنا. يتعلق الأمر هنا بدراسة العلاقات القائمة بين مفاهيم ومصطلحات الفكر الإسلامي من منظور منطقي، والقضايا أو الأشياء المستدل عليها. نقوم، في هذا المستوى، بدراسة «قضايا دلالة مفاهيم ومصطلحات الفكر الإسلامي»، ولا نهتم بتحليل دلالي يصف قضايا وموضوعات هذا الفكر.

لا تستطيع أية لغة تقديم الحقيقة حول الحقيقة لأن هذه الأخيرة ترتكز على ما نتحدث عنه، وليس لها وسيلة أخرى لإنجاز ذلك. تعتمد «اللغة العربية الواصفة» للفكر الإسلامي على مجموعة من العلامات والرموز، الحاملة لبعد منطقي وضعي[3].

إن الخطاب العربي المعاصر، الذي يكون ملتزماً ورصيناً هو الذي يستكنه ويستشرف الفكر الإسلامي بالأسئلة المتنوعة لمعرفة دلالات هذا الفكر. لذلك فإن دلالات فكرنا لا تحيل إلا على نفسها، فلا نجد شيئاً يستطيع أن يبرهن على عكس هذا، إلا عن طريق العلامات اللسانية، وإن حدث ذلك فإن الأمر سيؤدي إلى الفشل الذريع . يقع العمل ضمن مستوى يكبت فيه المحلل داخل نفسه الخطاب الإسلامي الوسيط، الذي تمثله «اللغة العربية الواصفة».

يتطلب استخدام «لغة اصطلاحية» لوصف قضايا الفكر الإسلامي مطابقتها للواقع . فهل يمكن من هذا المنظور تحديد «الحقيقة في الفكر الإسلامي» بطريقة تساعدنا على منحه مميزات وخصائص تنسم مع اللغة المنطقية؟. نشطر الجواب عن هذا السؤال إلى شطرين:

أ ـ يمكن لعملنا أن يتجه إلى البحث عن «الحقيقة في الفكر الإسلامي المعاصر» بصورة موضوعية، تتجلى على شكل حالات واضحة، تعالج أقوالاً عربية طبيعية.

3 ـ روّج جاك لاكان في فرنسا هذا البعد، من منظور نفسي، ابتداء من سنة 1966 مسيحي.

ب ـ نستطيع أيضاً معالجة هذه «الحقيقة» بصورة «ذاتية» نلاحظها كمحللين، حيث نستخلص «قيم الحقيقة الإسلامية» بناء على إدراك منطقي.

لا يستطيع الفكر الإسلامي المعاصر معالجة «قيم الحقيقة» بالنسبة لكل القضايا والموضوعات التي يطرحها، ولا بالنسبة للمفاهيم والمصطلحات التي يحلل بواسطتها هذه القضايا والموضوعات.

من المنظور المنطقي؟ هل تملك المفاهيم الموظفة في هذا الحقل أبعاداً دلالية وتداولية بالنسبة لواقعنا اليومي؟ ألا يمكن للغتنا أن تصف نفسها؟ هل يوظف «المعجم الواصف» بعداً سيميائياً يربط بين الحقيقة والمجاز؟

اللغة الواصفة: رؤية سيميائية...

لا تنسج هذه اللغة التي تتحدث عن لغة الفكر الإسلامي خطاباً حقيقياً حول هذه الفكر، فهي توهمنا بأنها تقوم أحياناً باستخدام وظيفة إثباتية لتحدد بصورة مباشرة عدة أشياء، حول علاقة المسلم بالعالم. تجسد هذه اللغة خطاباً عربياً حراً يرتبط بلغة الفكر الإسلامي.

يشترط في المفاهيم والمصطلحات العربية، الموظفة لمعالجة الفكر الإسلامي المعاصر، التوفر على بعدين أساسيين:

1 ـ بعد دلالي (SEMANTIC).

2 ـ بعد تداولي (PRAGMATIC).

إن الطرح الحالي، الذي نقدمه لوصف لغة الدراسة الخاصة بالفكر الإسلامي المعاصر، يساعدنا على معرفة العلاقات بينها وبين اللغة العربية الطبيعية العامة، من خلال نوع العلامات اللسانية المستخدمة. نروم من وراء هذا العمل معرفة قواعد «لغة عربية تتحدث عن لغة عربية أخرى» المفاهيم + اللغة الطبيعية[4]، لذلك فإن اللغة العربية قد تدل أحياناً على أشياء لغوية وغير لغوية.

4 ـ تستعمل الباحثة الفرنسية غاي دوبوف في كتابها القيّم (اللغة الواصفة) مفهومي: لغة أولى، لغة ثانية، أي لغة أولى تعالج مفاهيم لغة ثانية وتحدد قواعدها وعلاماتها اللسانية.

فهي تستطيع بهذا الحديث وصف العالم والأشياء، أو وصف نفسها. تقع المقابلة هنا بين «الكلمات والأشياء» فلا وجود لعالم من دون لغة.

تملك «لغة المفاهيم والاصطلاحات» التي تصف الفكر الإسلامي المعاصر، بُعداً سيميائياً (SEMIOTIC) علمياً يضارع ما نجده عند المناطقة، لكن إيصال ذلك إلى أذهان الناس يحتاج مجهوداً كبيراً. يمكن القول أن هذه اللغة هي عبارة عن مجموعة من المفاهيم والمصطلحات، التي تدرس «اللغة ـ الموضوع» في فكرنا الإسلامي المعاصر، حيث تدل عليها بوضوح، ولا تعالج شيئاً آخر.

يطرح هذا التوجه الذي نعرضه السؤال التالي: هل يملك الفكر الإسلامي المعاصر «معجماً واصفاً» يتحدث عن لغته بشكل منطقي واضح؟.

يمثل هذا المعجم مجموع كلمات اللغة العربية، أي تلك الوحدات اللسانية الحرة، التي تقنن لكي تحمل «دلالات صغرى». يقرر «المكوّن المعجمي» للغة العربية إنتاج الدلالة[5]. إنه ذو طابع سيميائي يميز بين العربية الطبيعية والعربية الواصفة META LANGUAGE في هذا المجال. يتشكل إذن «معجم الفكر الإسلامي» من وحدات لسانية عربية، تتحدث عن العالم. إنه معجم اجتماعي يخص مفردات هذا الفكر.. كما أنه يحتوي على مفاهيم محايدة، ذات تردد مرتفع، ولا يرتبط بموضوع معين (كلمات معجمية ونحوية)؛ إذ أنها تستطيع الدخول في أي خطاب عربي اجتماعي أو لساني واصف.

والواضح أننا عندما نستعمل عدة مفاهيم ومصطلحات خاصة للحديث عن لغة موضوعات (THEMES) الفكر الإسلامي، فإننا نرمز إلى شيء معين في هذا المجال. نجد هذه العملية رائجة كثيراً عند الصوفيين والأصوليين، الذين يستخدمون عدة مظاهر سيميائية[6]. قد لا تدل الكلمات العربية التي نوظفها في هذا الحقل المعرفي إلا على

---

5 ـ يمثّل هذا المكون قسماً لسانياً يبني نحواً خاصاً بالفكر الإسلامي. إنه قاعدة هذا النحو صحبة المكوّن المقولي.

6 ـ يحتاج «معجم التصوف» و«معجم أصول الفقه» الإسلاميين إلى دراسة سيميائية تبرز استعمالات العلماء والباحثين للكلمات العربية على مستوى الحقيقة والمجاز.

نفسها. ومع ذلك فإن معنى «العلامات اللسانية العربية» لا يوازي قضايا وموضوعات الفكر الإسلامي التي تقوم بتوظيفها.

يحتاج الفكر الإسلامي إلى «سيميائيات واصفة» لكي نعرف طبيعة لغته الواصفة بكل مفاهيمها ومصطلحاتها المتنوعة على مستوى الحقيقة والمجاز. ما زالت هذه اللغة تشكل عقبة صعبة بالنسبة لدلالات وتداول الفكر الإسلامي عند «الآخر»[7].

يضم «معجم الفكر الإسلامي» كلمات عربية واصفة، تحمل «سلوكاً لغويا» يؤسس من خلال استعمالاته المتنوعة عدة دلالات اجتماعية. يتكون هذا المعجم إذن من كلمات مرموزة حسب تواتر معين.

7 - تنبع الصعوبة من الجهل بخصائص هذا الفكر وكثرة الإسقاطات ووجود عقدة «الأنا» المصابة بالخواء عند الآخر، إذ أنه يعدّ التراث المقابل نكرة.

الخطاب الإشهاري

بين المسيحية والإسلام

عتبات الموضوع:

كيف تعاملت الأناجيل الموضوعة مع «معجم الإشهار»؟. ما الضايا الإشهارية التي شاعت في عصر عيسى ـ عليه السلام ـ ما الخصائص والسمات التي طبعت الخطاب الإشهاري المسيحي بالقرون الوسطى؟. لماذا يُعدُّ الخطاب الإشهاري الغربي المعاصر فتاكاً؟ كيف بنى الإسلام «معجمه الإشهاري» الخاص؟. ما دور الشاعر مسكين الدارمي في تأسيس الخطاب الإشهاري الإسلامي؟. هل يمكن المقارنة بين الخطاب المسيحي والإسلامي؟.

تحديد المفهوم في الديانتين:

نجد في كتب «العهد الجديد»[1] عدة موضوعات وقضايا تؤسسها كلمات معجمية تبرز لنا من خلال وظائفها الدلالية أنها ترمز إلى عدة مقامات ومقاصد «إشهارية / دعائية»، تظهر هذه الجوانب مغلفة وقابعة بين غيابات معجم ديني وأسلوب بلاغي وصيغ نحوية عميقة ومكتنزة[2].

---

1 ـ نقصد به الإنجيل الذي تم تحريفه وكتب فيه الإنسان بيده، فظهرت أناجيل: متّى، يوحنا، بولس، مرقص. هناك إنجيل برنابا، الذي يعترف بنبوءة سيدنا محمدﷺ.

2 ـ كان جبران خليل جبران يحاول استعمال هذه الصيغ، حيث يفجر دلالاتها بصور مدهشة.

شهدت رسالة عيسى ـ عليه السلام ـ التي وجهت إلى المسيحيين عن طريق الإنجيل، رواج «معجم إشهاري» في بعض قضايا الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والطبية[3]. كان معجم الإنجيل المنزل قبل تحريفه يدعو إلى سمو الأخلاق وحب الجمال والصحة وتنظيم المجتمع والتفاعل في العلاقات وتوخي التنمية والتغير.

أما في القرون الوسطى فقد استغلت المسيحية أفكاراً كنائسية مارقة. كان «معجم الإشهار» قد اتجه في هذه المرحلة إلى السمسرة والشعوذة[4]، واستغلال عقول البسطاء عن طريق «صكوك الغفران» التي مثلت خطاباً إشهارياً «لشراء بيوت في الجنة».

استفحل خطر «معجم الإشهار» في الأناجيل الموضوعة، كما استخدمت عدة أساليب تتعلق بـ «النبوءة والتنجيم» في عصر الاكتشافات والنهضة. كانت لرجال الدين البرتغاليين والإسبان والإيطاليين صولات وجولات في إنجاز معجم ديني خاص بالدعاية للاكتشافات والتبشير والبحث عن أسواق جديدة ومواد خام.

يتميز قسط كبير من الخطاب الإشهاري المسيحي في العصر الحديث بعدة خصائص وسمات:

1 ـ استعمال القول الديني للهيمنة والابتزاز.

2 ـ ابتكار القساوسة والرهبان لخطابات إشهارية مغرضة.

3 ـ استخدام محظورات دينية واجتماعية وسياسية.

4 ـ توظيف النثر العادي في الإشهار.

5 ـ استغلال المرأة بكل مفاتنها في الإشهار.

لقد أسس الغرب المسيحي المعاصر «خطاباً إشهارياً» له بُعد اقتصادي صرف وفتّاك، فهو قد يتوغل في عرض اللباس الداخلي وحركاته والأبعاد النفسية المؤثرة وبعض الإيماءات والتمايس والتموج والأصوات والأغاني المنحلّة. فالزينة في الخطاب الإشهاري

3 ـ تلتحم المعجزات الربانية بالقضايا الكبرى التي نبغت فيها الأمم الموجهة إليها، مما يجعلها تقحمها في عقر دارها.

4 ـ حاربت الكنيسة عدة أفكار فيزيائية (الجاذبية، دوران الأرض).

المسيحي توظف لها المرأة لتظهرها لكل من هبّ ودبّ، والإثارة والإغراء يتجاوزان آداب اللياقة والرقابة.

ينبع الخطاب الإشهاري الغربي من مجال «تحليل الخطاب». اعتمد هذا الفرع على نصوص دعائية يكثر فيها التكرار أو التواتر، الذي يدرس بطريقة توزيعية تركيبية. فالنصوص الإشهارية الغربية النثرية تقوم على معجم متردد. لا يراعي هذا الخطاب الجوانب التاريخية والإبداعية ومواقف المنتج.

ركّز القرآن العظيم على نمط من الشعر الإسلامي، يشيع فيه صدق العاطفة والمشاعر والكلمة الطيبة وارتباط القول المنظوم بالفعل المتحقق[5].

يقول تعالى في سورة الشعراء، الآيات 224 ـ 227:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

كان الرسول ـ ﷺ ـ يصدر عدة «آراء نقدية» بشأن الشعراء الصادقين في أقوالهم ومعتقداتهم، كما حدث مع الشاعر لبيد وغيره، وكذلك كان يفعل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ. كما أن النابغة الذبياني قد مثّل «ناقداً» لقريض العرب الذي كان يعرض عليه بسوق عكاظ السنوي[6].

راج في هذا العصر «معجم شعري إشهاري» إسلامي به تقوى وحياء وممارسة دينية أصيلة في جميع مجالات الحياة (الحرب، المجتمع، الاقتصاد، السياسة).

تم الاستغناء عن كل المفردات المعجمية الإشهارية التي بها غواية وهيام ونفاق وخيال مارق وخدش للحياء ونهش للأعراض والإغراء والهمزة والتنابز.

راج الخطاب الإشهاري الإسلامي مع اتساع رقعة ديار أمة محمد بسبب الفتوحات.

---

5 ـ يعالج هذا الموضوع في النقد العربي القديم ضمن «موقف الإسلام من الشعر».

6 ـ يضم الشعر العربي القديم معجماً إشهارياً عن أنواع العتاد الحربي المصنع محلياً أو المستورد.

فانتشرت كلمة الله النقية الأزلية في المعمورة. تآخت الشعوب بواسطة الدين الجديد، الذي خُلق «كوناً إسلامياً» متميزاً، من خلال عدة مظاهر:

أ ـ نبذ الذاتية والضغائن والمنازلات.

ب ـ التكاتف والتضامن.

ج ـ تنظيم المجتمع وتبين قوانين التنمية.

د ـ تشجيع الاجتهاد والابتكار.

هـ ـ فتح مجال المثاقفة والاتصالات الهادفة.

و ـ ضبط المعاملات والعلاقات العامة والأُسرية.

ساعد هذا «الكون الديني الموسوعي» الجديد على ظهور عدة عادات وقيم وسلوكيات وأنماط من «الخطاب الديني» الذي يحمل معجماً غير معهود (زكاة، صلاة، مؤمن / كافر، جنة / نار). غيرت هذه المفردات المعجمية الدينية الجديدة الجوانب الأخلاقية والجمالية والصحية والاجتماعية والنفسية بين المسلمين.

كما أن مكونات الشريعة الإسلامية تضم معجماً إشهارياً ضخماً عن الفواكه والخضر والأعشاب والزينة واللباس (الثوم، التفاح، الأكل، اللباس الطويل، الجلاليب)، الحذاء المنبسط دون كعب، الأنعام، الطيور، الحشرات، العمران...).

شهد العصر الأموي تفجّر الشعر العربي المولد، من حيث الشكل والمضمون، فظهر عدة شعراء متميزين في مجال «الخطاب الإشهاري».

يذكر ياقوت الحموي وأبو الفرج الأصفهاني وابن سلام الجمحي أن ربيعة بن عامر، المعروف بمسكين الدارمي كان جالساً في أحد الأيام بسوق الكوفة فجاءه تاجر عراقي يبيع الخُمر. كان هذا التاجر قد طاف السوق فباع كل الخُمر البيض التي كانت معه، وبقيت بين يديه الخمر السود، فشكا حاله للشاعر مسكين الدارمي[7]، فقال له هذا الأخير: سأجعلك تبيع الخُمر السود المتبقية معك بسرعة، وأنشد:

7 ـ كان جرير يخشى هجاءه ويحسب له ألف حساب.

قـل لـلـمـلـيـحـة فـي الـخـمـار الأسـود مـاذا فـعـلـت بـنـاسك مـتـعـبـد

بدأ التاجر يردد قول الشاعر وسط سوق الكوفة فسمعت النساء نداءه وتهافتن على شراء الخُمر السود التي نفذت بسرعة ولم يبق منها شيئًا. وهكذا ظهر أول خطاب إشهاري شعري إسلامي متخصص.

يتميز الخطاب الإشهاري الشعري الإسلامي بـ:

1 ـ سيطرة القول الموزون.

2 ـ عدم تكرار الكلمات الإشهارية.

3 ـ إضمار البعد التجاري الإغرائي.

4 ـ استعمال صور شعرية لا نظير لها حالياً.

5 ـ شيوع تضمينات وإشارات دينية.

لا يوظف «الخطاب الإشهاري» الإسلامي الكلمات المحظورة أو التي تمس بالدين والمجتمع والسياسة.

كما أنه لا يستغل المرأة، أو يعرضها بأقوى زينة لكل الغرباء. إنه يقصي الخلاعة والعري والإغراء لأنه خطاب روحاني، في حين أن الخطاب الإشهاري المسيحي يعد مادياً.

لا يرقى المعجم الإشهاري المسيحي حالياً إلى إنجاز «خطاب عائلي تقي» متخصص. أما الخطاب الإشهاري الإسلامي فنجد معجمه رصيناً وصوره البلاغية قوية ومدهشة كما رأينا عند مسكين الدارمي. لا توجد أية مقارنة بين الخطابين في عصر الاكتشافات والنهضة. بدأ الخطاب الإشهاري الغربي شكلانياً، حيث يقوم بعدة تحويلات للجمل ولا ينظر للأبعاد الأخلاقية والجمالية والصحية والتنموية والتفاعلية والروحانية، كقول زليج هاريس، رائد هذا الخطاب في أمريكا:

أ ـ تم بيع آلاف القناني من الجُعة.

ب ـ هذا الطباخ رائع في طهي الحساء.

فشتان بين هذين المثالين ومثال شعري إسلامي إشهاري، من حيث الإعلان والترويج والممارسة للشيء.

يمثّل الدين الإسلامي على مستوى الخطاب الإشهاري «تركيبة لسانية منزلة» وأنواعاً من الإلهام القولي الكامل، التي لا تصل إليها عقول البشر الخطّائين لأن إنتاجها الموضعي مجبول على النقص والنسيان.

والله أعلم.

الإسلام والواقع

أرضية الموضوع:

كيف يمكن اعتبار الإسلام محركاً للتطور والتنمية في المجتمع العربي؟. ما المفاهيم التي جذّرها خاتم الأديان، من خلال علاقته بالواقع ؟. ما المستجدات التي قدمها في هذا الإطار؟. ما الفرق بين الممارسة الدينية والعلمية؟. كيف حل الإسلام بعض الصراعات والأزمات؟. كيف يُطرح مفهوم «العلمانية»؟.

تعامل الإسلام مع الواقع : يحثّ الدين الإسلامي على استعمال العقل للفهم. نجد هذا الأمر مطبقاً عند المعتزلة، الذين طرحوا عدة قضايا تتعلق بالقرآن الكريم والفلسفة.

يرتبط خاتم الأديان السماوية بالتطور التاريخي لأمة الإسلام؛ إذ أنه يواكب التغير ويتأقلم مع الواقع الاجتماعي والثقافي للبلدان التي تدين به. إنه يضم إرثاً زاخراً يشكّل الدعامة الأساسية لبناء الدولة العربية والإسلامية الحديثة. كما أنه يمثّل دائماً المحرك الأساسي للتطور والتنمية في المجتمعات التقليدية العربية. لقد أقام الإسلام في هذا الصدد علاقات شرعية قانونية واقتصادية وسياسية وفكرية داخل هذه المجتمعات.

ارتكزت علاقة الإسلام بالواقع على تجذير مفاهيم حققت بناء الأوطان الإسلامية، مثل:

1 ـ نشر العدل والقانون.

2 ـ تحمل الفرد المسلم لمسؤولياته.

3 ـ بناء فكرة الأمة والوطن.

أسس الإسلام دولاً ديمقراطية تؤمن بالقيم الروحية والقومية، الأمر الذي شكل وعياً جماعياً عند الأفراد. كما أنه طور أيضاً الفقه الإسلامي في عدة بلدان معاصرة. ظهرت في هذا المنحى إبداعات وتشريعات استنطبت من الشريعة الإسلامية، مثلما نجد في قوانين الأحوال الشخصية.

قدم الإسلام مناهج مقارنة، متفتحة على الأفكار المتنوعة والحياة. كانت دائماً هناك علاقة واضحة مع الآخر[1].

كان مبدأ الاعتدال سائداً ومطبقاً بدقة.

إن ديننا الحنيف يرتبط بالظروف والسياقات المتنوعة، المستجدة في البلدان الإسلامية مثل:

أ ـ استمرار الجزية في عدة دول مقابل الجندية.

ب ـ تطوير فلسفة التشريع الإسلامي حسب قضايا المواطنين.

جـ ـ إقصاء الخوف من الخطأ عند التطبيق.

د ـ خضوع الواقع للقانون الإلهي.

هـ ـ وجود مستويات مختلفة في التطبيق.

و ـ نقد الفكر المتداول في المعمورة[2].

تلتقي في دنيا الإسلام الخصوصية بالعالمية، حيث نجد التغيرات القومية وعلاقات الإنتاج وقواه، مما يطور الشخصية الإسلامية ويرقيها، وتتحكم المصلحة الجماعية في علاقة خاتم الأديان بالواقع (تحليل أو تحريم الإذاعة المرئية والانترنت، والغناء والمسرح

1 ـ يمثل الإسلام في هذا المستوى أرقى المعتقدات التوحيدية المنزّلة، التي دعت إلى حوار الأديان واحتواء الآخر لإصلاح شأنه وهدايته.

2 ـ يعرض القرآن الكريم، من خلال بعض قصص الأنبياء نقداً عميقاً لعدة أفكار.. كما أن «نظرته المستقبلية» تطرح عدة معادلات تحاول ضبطها النظريات النفسية والاجتماعية والفكرية المعاصرة.

والخيالة...). كما أن مرجعيته ترتبط بعدة مؤشرات تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية[3].

يميز الإسلام بين مفهوم الدين المعتمد على اليقين والعلم المرتكز على الشك، الذي يدحض بعض الافتراضات. ينبع الدين من نص سماوي معجز لا يتم بطلانه مثلما يحدث في النظريات العلمية.

إن ارتباط الإسلام بالواقع يجعل الإنسان يحصل على جميع حقوقه، عن طريق القانون الملائم للظروف. يَخْلق هذا العمل حرية الفرد وديمقراطية الحياة، دون معارضة الشريعة، التي تشكل موضع اتفاق. تنتج هذه الممارسة العقائدية فلسفة تشريع مستقرة المبادئ والقواعد، أما المتغيرات والحوادث فإنها موكلة للفقهاء[4].

أدى انتشار الإسلام وارتباطه الوثيق بالواقع إلى حل عدة أزمات وصراعات؛ مثل:

1 ـ تقديم معجم إسلامي جديد لم يكن معروفاً في سياسات عدة دول.

2 ـ تحدّيه لعدة مصالح سياسية واجتماعية تقليدية.

3 ـ مواجهته لعقلية الاستعمار الغربي.

لقد طورت علاقة الإسلام بالواقع مفهوم «الشريعة» و«الأمة» ورسخت مبدأ «الله الأحد»، وهو ما لا نجده في الدول الغربية العلمانية، التي تروّج مفهوم «الأمة» و«الدولة» وتلغي مفهوم «الله» سبحانه[5].

---

3 ـ يبرز ذلك من خلال أسباب النزول لبعض السور التي تتعرض لظروف إنتاج وسياقات وموضوعات محددة.

4 ـ يستعمل بعضهم في حل عدة قضايا مستجدة «القياس الأصولي» الذي يرتكز على أركان علمية رصينة.

5 ـ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، العلمانية (ندوة) ص 19.

المَنْهَجُ
عِنْدَ المسلمينَ الروّاد[1]
(رؤية عصرية)

*** الإشكالية:**

هل كان المسلمون الرواد يتوفرون على منهج فعلي يطبقونه ضمن المجالات الفكرية المتنوعة؟ ما هي المعدات الإجرائية التي كانوا يستعملونها؟ هل هذا المنهج «المفترض» كان موجوداً ساعتئذ في الغرب المسيحي؟

*** مشروعية المنهج في العالم الإسلامي.**

شهد العالم الإسلامي ثورة فكرية روجتها فتوحاته العظمى في جميع أرجاء الأمصار التي دانت بالإسلام. ساعد على قيام هذه الثورة الفكرية توفر عدة مرتكزات بنائية، مثل:

1 ـ بناء استقرار سياسي بعد الفتوحات.

2 ـ وضع نظام اقتصادي محكم الإدارة والتخطيط.

3 ـ متابعة النظام الاجتماعي الكلي بين الأمصار الإسلامية.

4 ـ «تكوين» مفكرين و«مخترعين» موسوعيين استطراديين.

لقد كانت الخلافة المركزية تنتقي ولاة الأمصار وحكامها تبعاً «السلم إداري» و«سيرة ذاتية / علمية» متعارف عليها آنذاك[2].

---

1 ـ نقصد «بالرواد» المفكرين الألمعيين في كل عصر نوّره الإسلام.

2 ـ عبد الحميد ـ في تاريخ العرب قبل الإسلام ـ ط 1986 القاهرة ـ مصر.

كان ولاة وحكام الأمصار يحملون على شبه «تعيين» أو «مراسيم» يختبر بعدها الوالي على شكل «تأدية اليمين»، أثناء «حفل التنصيب». يسعى الوالي / الحاكم لكل مصر أو قطر إسلامي يرتبط بالخلافة المركزية إلى المحافظة على المرتكزات البنائية السالفة، وذلك بواسطة مفتشين ومراقبين و«عيون» يتصلون مباشرة بديوان الخلافة، لإبلاغ «تقاريرهم» الشفوية والمكتوبة.

لقد قام الاستقرار السياسي على وجود جهازين شكلا فعلاً مفهوم «الدولة الإسلامية»، وهما:

1 ـ جهاز إسلامي تشريعي للنظم بكل أصنافها.

2 ـ جهاز إسلامي تنفيذي تطبيقي للنظم السالفة.

أما تجذر النظام الاقتصادي القائم على تداول الجهازين السالفين، فقد أدى إلى سيادة المبادلات والمعاملات التجارية، حيث تنوعت حركات «التصدير والاستيراد» من خلال قواعد متعارف عليها، وبطرق مألوفة «موثقة» بين التجار والسماسرة والصناع والحمالين ومختلف أصناف العمال، ضمن «سجلات» وأوراق متميزة.

ازدهر النظام الاقتصادي بناء على حسن التخطيط والتسيير الإداري، حيث منح الخلافة الإسلامية في القرون الوسطى الهيبة والرهبة. لقد كان السلاطين والأمراء وزعماء العشائر المجاورة التي لم تدن بالإسلام يطلبون ود الخليفة بالرسائل المدحية «المتقربة» والهدايا الغالية / النفيسة المتنوعة. كما ساد الرخاء والهدوء بين أفراد المجتمع الإسلامي، فقلت الانحرافات: عصابات، انتحارات، سرقات، جرائم، قلاقل، انتهاكات..

كان أفراد المجتمع يسافرون ويسيحون بين الأمصار بكل حرية وأمان، نظراً لانتشار نقط حراسة ومراقبة ووجود شرطة وعسس بالمناطق الموحشة المتوارية. ولذلك ازدهرت السياحة وسادت علاقات الزواج والمنتديات حوانيت العطارين في عدة بقاع. كانت «الوثائق والعقود» منظمة بواسطة دواوين تخصص الخلافة كتّابها ورواتبهم وترقياتهم. كما ذاعت «الأسواق الفكرية» التي كانت تضرب لها أكباد الإبل. وتعددت الاتصالات.. إن

هذه المرتكزات البنائية قد خلقت مناخاً مناسباً لمشروع منهج فكري إسلامي. كما أنها ساعدت على التعجيل ببنائه، وذلك نظراً لتوفر الإمكانيات، النابعة من صلبها، وهي:

1 ـ الارتياح النفسي لدى المفكرين والمخترعين والموسوعيين.

2 ـ التفرغ الكامل للبحث: ممارسة وظيفة العلم فقط.

3 ـ وجود «مراكز علمية» محفزة: مدارس، مجالس، جوامع، أسواق.

4 ـ تشجيع الخلافة على العلم: ترقيات، هدايا، قرابة.

5 ـ رخاء وتوفر الكتب والطباعة: جدية الوراقين وباعة الكتب وعمال هذين المجالين.

إن مشروعية المنهج الفكري في العالم الإسلامي إبان القرون الوسطى لم تنبع من فراغ، بل استمدت جذورها من العصور الإسلامية الأولى.

لقد سادت فنيات وآليات وتصورات منهجية تمثل الرهاصات الأولى للمنهج الإسلامي. فالمشروع قد بني على صيرورة وتحولات، انطلقت من الاستفادة من الأمم السالفة، ثم العبور إلى مرحلة انتقالية، فالانتهاء بالمرحلة الإبداعية / التجريبية التأصيلية. وهي «حتمية تاريخية» لنمو وتطور المناهج والأفكار عبر تاريخ الأمم والحضارات القديمة والحديثة.

شهدت القرون الوسطى بروز عدة أعلام وازدهار للحضارة الإسلامية في الوقت الذي كان الغرب المسيحي لا يمارس منهجاً علمياً أثناء «بيع صكوك الغفران» وإقامة «محاكم التفتيش» وإعدام العلماء الذين يبتكرون نظريات جديدة مخالفة لبعض «شطحات الكنيسة»، و«فتاويها» الشعبية وتأويلاتها البسيطة وقتئذ.

المنهج عند المسلمين الرواد:

سنحدد مظاهر هذا المنهج الإسلامي المتفرد من خلال استخلاصنا لمكوناته وآلياته المبثوثة بصورة شمولية عند جماعة من مفكري الإسلام وروداه عبر العصور أمثال ابن سينا، الفارابي، الكندي، الجاحظ، ابن النفيس، ابن طفيل، ابن خلدون، العباس بن

الفرناس، ابن رشد، ابن قتيبة، ابن عربي، أبو حيان التوحيدي، الزمخشري، الرازي، ابن خلكان، ابن مضاء القرطبي.. وهي عينة عشوائية / لا تاريخية من العلماء والأنساب خضعت للقراءة الباحثة عن المنهج المبثوث بين كتبها وأعمالها المتباعدة الزمن والتصور. تحاول هذه القراءة / الإشكالية طرح تصور مشروع منهج إسلامي متماسك.

من خلال التنقيب المتأني يمكن إجمال مظاهر المنهج الإسلامي في الرؤية العصرية الآتية:

التصور البنائي العام:

تبرز هذه القراءة الباحثة عن إشكالية المنهج الإسلامي أن عينة العلماء الذين اخترناهم دون ترتيب تاريخي / تعاقبي كانت تملك نسقاً «معرفيا» متدرجاً في الكتابة والبحث. فالخطوات و«المراحل» الموجودة عند هذه «العينة الاعتباطية» من العلماء توضح أن عقل كل مفكر / «مخترع» كان يخضع النسق المتدرج لاكتشاف وتحليل الحقائق الإسلامية. مما يشكل تمثيلاً منطقياً لنقل وإنتاج المعارف المتنوعة.

يقود المفكر / «المخترع» الإسلامي العقل نحو كشف الحقائق.. إن «مبدأ قيادة العقل» يعد شمولياً بين جل بحوث المسلمين الرواد. فكل باحث مسلم كان يضعه في تصوره البنائي للمنهج، بغية إنتاج «تركيب كلي». كما أن التصور البنائي للمنهج عند العلماء المسلمين الرواد كان يقوم على «مبدئي التحليل / النقد والتركيب»، حيث توظف تقسيمات جزئية / استقرائية للقضايا / الظواهر الإسلامية المدروسة، وبناء كلي / استدلالي موضوعي، يعتمد تركيب المتناقضات وفرز المعدوم منها... تميز المنهج الإسلامي عند المفكرين / المخترعين الرواد بالمكونات الآتية:

1 ـ **المكون الموسوعي:** ينسق المفكر «المخترع» المسلم كل المعارف بصورة شمولية ضمن عمل علمي واحد، وذلك رغم سعة وتنوع هذه المعارف.

«فمبدأ قيادة العقل» كان يمثل الخيط الرابط بين المعارف التي يعرفها المكون الموسوعي ضمن المنهج الإسلامي..

إن المكون الموسوعي يعرض «ملامسة» لكل المعارف والأشياء الكامنة في عقل المفكر الإسلامي، فينسجها بشكل تجميعي وتكثيفي يضمر بعض الجوانب المتغيرة / المجهرية / المعملية، التي ترتبط بطبيعة معدات البحث وتقنياته المتوفرة إبان معانقة البحث بشكل مستمر.

يُبنى المكون الموسوعي، في منهج المسلمين الرواد، على الفلسفة واللغة والمنطق..

تظهر ملامح هذا المكون في المنهج الإسلامي من خلال سعة الاطلاع المترابط / المتسق والمنسجم، داخل بعد ثقافي طافح بالتصورات والأفكار والأخيلة والمشاهد المتنوعة...

إنه يقدم فرشاً / ترتيباً نظرياً للجزئيات / الخصوصيات والكليات / العموميات، لينتهي بها إلى «خطاطة منهجية» على شكل دائرة منظمة القطر والشعاع، مرتبة المقاسات..

2 ـ **المكون الاستطرادي:** يقوم المفكر الإسلامي، ضمن العينة العشوائية المذكورة في عدة تخصصات متباينة، بتغيير مواضيع الدراسة والبحث ضمن المشروع الواحد «فتتناصُّ» القضايا والظواهر المحللة وتتداخل. يقع الابتعاد أحياناً عن الموضوع المحوري / القطب ضمن «عمليات الانتقال» والقفز وكثرة الأقواس والإحالات، ولكن «الالتحام المعرفي» و«الوحدة العضوية» الفكرية / العقلية الرابطة تبقى حاضرة بجسدها وشبحها المهيمن.

يشبه المفكر الإسلامي في هذا المستوى رجل المطافئ الذي يقاوم النيران الأخطبوطية الألسنة بمضادات غير مؤمنة النتائج، فإما أن يتغلب عليها أو يهلك دونها..

تتجلى آليات المكون الاستطرادي في فكر علماء الإسلام الأوائل أثناء الممارسة المنهجية من خلال ربط الثنائية الفضائية (الزمان والمكان) عبر (مراحل واصلة) بين جزئيات منهج العمل الإسلامي.

يطرح المكون الاستطرادي العمل الإسلامي بتقنية نسبية تبقى نهايتها على طبيعة كالية مفتوحة الأرجاء..

يملك المكون الاستطرادي «مراحل» واصلة بينه وبين المكون الموسوعي العام، وذلك هجية «تنتقل» من العام / الكل إلى الخاص / الجزء «والمراحل» عبارة عن قواعد ريلية ذات نسق عقلي متدرج...

إن ارتباط المكون الموسوعي بالاستطرادي يكون عبر نسق من العلاقات التي تنظم شطة الفكرية الإسلامية لتفضي بهما إلى نتائج / خلاصات نسبية. تخلق هذه علاقات» مسلكاً وطريقة للوصول إلى المكون الثالث ضمن المنهج الإسلامي...

يضم المكون الموسوعي والمكون الاستطرادي مجموعة من القواعد الكلية ضوابط التي تساعد المفكرين «المخترعين المسلمين» على دراسة الظواهر والقضايا تنوعة، وهي قواعد تشكل جسراً إدماجياً للمكونين.. يحمل المنهج الإسلامي «نظرية المعرفة» رصينة، وذلك لأنه يمارس أثناء التحليل، عملية نقدية تختبر مدى صلاحية عرفة المقدمة داخل العمل الفكري المتخصص. إن نظرية المعرفة «الابستمولوجيا» سلامية التي يقدمها مفكرونا الرواد تسطر المنبع المنطقي للمعرفة المعروضة وقيمتها ريقة تناولها وحمولتها العلمية.

3 ـــ المكون الاستخلاصي:

لقد أبرزت القراءة الباحثة عن المعدات الإجرائية البنائية للمنهج عند المسلمين الرواد المكون الاستخلاصي يقوم بالتنظيم العام الذي قدمته «المراحل» و«العلاقات» الرابطة ن المكون الموسوعي والاستطرادي.. يختبر هذا المكون المعلومات اختباراً نهائياً بياً. وهو مكون يربط كل المعلومات للوصول إلى مغزى نسبي، تمارس فيه أخلاقيات حث العلمي والتواضع، بعبارة «والله أعلم» في نهاية كل عمل علمي..

والحقيقة أن خصوصية المرتكزات البنائية والإمكانيات والتصور البنائي قد أنتجت

منهجاً إسلامياً يتفرد عن المناهج الغربية المسيحية التي تسودها «نزعة التخصص»، المتجلية في ثلاثة جوانب:

1 ـ تحديد الموضوع.

2 ـ تحديد المنهج.

3 ـ تحديد اللغة الواصفة / المفاهيم.

إن طبيعة الشروط السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية الإسلامية هي التي أنتجت منهجاً تخيم عليه مكونات خصوصية:

(المكون الموسوعي، المكون الاستطرادي والمكون الاستخلاصي).

.... والله أعلم.

العولمة الإسلامية قادمة..
زحزحة حدود الانترنيت

الاطروحات:

ما الخدمات التي يقدمها الإطار العام للعولمة الإسلامية، بغية إصلاح أحوال سكان المعمورة؟ ما هي أهم مكوناتها ومنجزاتها؟ كيف تزحزح العولمة الإسلامية حدود شبكة الانترنيت؟.

بماذا تتميز هذه العولمة عن العولمة الغربية المعاصرة؟ ما علاقة العولمة الإسلامية بالأخلاقيات والغيبيات؟. ما أهداف هذه العولمة؟

الإطار العام للعولمة الإسلامية:

أبرزت كتب العهد القديم، (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) والدستور النهائي للكون (القرآن) عدة مظاهر عالمية اتفاقية لخدمة سكان المعمورة، مثل:

أ ـ الهداية والتسيير المنسق (SYSTEMATIC) للبشر.

ب ـ أخذ العبرة من التاريخ.

ج ـ نشر لغة كونية بسيطة ملائمة (ADEQUATE).

د ـ توحيد القوانين العادلة وممارستها.

تتجلى هذه المظاهر الخاصة بالعولمة الإسلامية في (قصص الأنبياء)[1]، بغية توحيد

1 ـ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، ط2، القاهرة، مكتبة دار التراث 1985 ف.

الناس حول نظام إسلامي عالمي لا بديل عنه[2] ولا محيد عن حضارة يكون هو قائدها. نسجت (قصص الأنبياء) نظاماً عالمياً يضم أربعة مكونات (COMPONENTS):

1 ـ المكون الروحي[3].

2 ـ المكون الثقافي.

3 ـ المكون الاقتصادي.

4 ـ المكون السياسي.

تهتم العولمة الإسلامية بإقصاء الثقافة الوحيدة القطب واللسان وتنبذ كل نظام اقتصادي فيه استغلال وكبت لغرض الربح غير المشروع، التي لا تتبادل المصالح. كما أنها ترفض المرتكزات السياسية الانتهازية الفوضوية، التي تنعدم فيها الشورى وتغيب عنها التشريعات الديمقراطية القرآنية.

ينجز الإطار العام لنظام العولمة الإسلامية، المرتكزة على (الدستور الكوني) ما يأتي:

1 ـ إلغاء التعصب الديني والإبادة العرقية.

2 ـ إنشاء مؤسسات عامة تحترم حقوق الإنسان.

3 ـ مراقبة العلاقات الاجتماعية[4].

* **زحزحة حدود الانترنيت:** تبني العولمة الإسلامية معجماً محدد المداخل يسهل نشره على شبكة الانترنيت. يتميز هذا المعجم بمضمون رائد لم يعهده أي (موقع) على هذه الشبكة؛ إذ أننا نصادف كلمات المعجم الشائع داخل كل (المواقع) ذات بعد مادي صرف، يتجه إلى مجال السياسة والاقتصاد وقليل من الثقافة.

---

2 ـ يدعم رأينا قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية 84:
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

3 ـ تنظر جريدة الدعوة، العدد 756، ص8، فيما يخص الموضوع عينه.

4 ـ وهي أعمال تقوم بها محاكم إسلامية اجتماعية، يديرها اختصاصيون اجتماعيون.

وهذا من أهم سمات العولمة الغربية المادية[5]، في حين أن معجم العولمة الإسلامية يضيف مجالاً رابعاً يتجه إلى المستوى الروحي.

تقدم العولمة الإسلامية المدرجة داخل مواقع الانترنيت عدة عناصر تبرز تفوقها، مما يزحزح الحدود المادية للشبكة.

نجد في هذا الصدد:

أ ـ نشر وإذاعة معجم يغطي مكارم الأخلاق والتقوى.

ب ـ تحديد مواقع للتوحيد والموحدين.

جـ ـ تقديم خدمات ثقافة الإسلام وعلوم العربية.

د ـ عرض تفاسير علمية متطورة لكتاب الله.

تقوم العولمة على قواعد وقياسات، تتجلى من خلال ممارسة العمل الديني اليومي ومعانقة (المواقع) المتخصصة.

إنها إذن نسق عقلي ـ تحليلي يكتشفه المتفحص لما يطرح بشبكة الانترنيت عن طرق الاستدلالات الدقيقة.

والواقع أن العولمة الإسلامية التي تداهم فضاءات شبكة الانترنيت تدعم وتقوي حجج الإسلام وتجعل دلالاته ووظائفه مضيئة تفحم كل مستشرق جاحد لرسالة خاتم الأديان. كما أنها تبرز لأناس الكون أن العولمة الإسلامية هي الخلاص والملاذ على المستوى الروحي والاقتصادي والسياسي والثقافي.

إن العولمة الإسلامية ستجعل (جيل الانترنيت) يتواتر ويتناقل الإسلام عبر أرجاء المعمورة من خلال فحص مضمون (المواقع) المتخصصة. كما أنها ستعيد إشراقة الصورة والعلوم الإسلامية وتطلعهم على الزيف والإسرائيليات المشوشة للدين الحنيف.

والواضح أن هذه العولمة تتميز عن العولمة الغربية من الجانب الروحي؛ إذ أنها

5 ـ تراجع في هذا الصدد أعمال سيد ياسين.

ستجعل سكان الكون يجتنبون بعض الزلات والمعاصي والسلوكيات المتفسخة، إنها تسعى إلى إذاعة نظام كوني إسلامي يعتمد على جانبين:

1 ـ جانب أخلاقي.

2 ـ جانب علمي[6].

تطلع العولمة الإسلامية سكان العالم بأسره على أفعال وأعمال الضالين والعملاء وممارسات إبليس. كما أنها ترسم لهم كل المعلومات الخاصة بالرسل والأنبياء، الأمر الذي يجعل العمل الحالي للانترنيت (ملغىً) ليحل محله عمل جديد ويضم (رسالة ربانية كونية)، تسجل على كل (المواقع) العمل المتوخى في الدنيا والآخرة؛ إذ أنها ترسم خصوصية كل من أهل الجنة والنار، وهو ما لا نجده في العولمة الغربية التي تعيش فراغاً روحياً.

إن العولمة الإسلامية، التي تزحزح خصوصية مكوناتها وحدود محتويات الانترنيت ونمط عمل (مواقعها) الحالية، تحلل العبادات التي لحقها التحريف والتلف في بعض الديانات القديمة. إنها تمثل عملية مناظرة ومجادلة عقلية لكل ما هو مطروح في المجال الروحي والثقافي والاقتصادي والسياسي داخل كل (المواقع).

تمنح العولمة الإسلامية (رواد الانترنيت) وصفاً وتحليلاً علميين عن الديانات القديمة وبعض القضايا والمواضيع، مثل: وصف الحيوانات وخدماتها، وصف مظاهر الكون وكيفية الاستفادة والاحتياط منها. كما نجد معالجات فريدة للمواريث والمعاملات والجهاد والأسرة والفلاحة والنباتات والعطور والطفيليات والجراثيم والغيبيات والوقاية والعلاج وفوائد الطبيعة والفلك والبحار وأحوال الطقس وأبعاد الفضاء الزمكاني وطبائع النفس البشرية...

تهدف العولمة الإسلامية المستعملين لشبكة الانترنيت إلى مجال (علم خارق) يقدم معلومات روحية وقفية[7]، لا نجدها عند (دخولنا) إلى (المواقع) الأخرى التي ترتبط بعلوم بشرية وضعية (POSITIVE) محدودة.

---

6 ـ اكتشاف مبادئ وأسس تفسيرية جديدة تقدم بصورة إجرائية تحليلية. إننا نعرض مبادئ واضحة، مما يخلق عملية اختراع.

7 ـ هو تعليم رباني يبثه في خلقه.

تقدم (مواقع) العولمة الإسلامية تفاسير وتأويلات لكتاب الله ليوافق مستجدات وتطورات الحياة، وذلك نظراً لوجود عدة موانع غربية مادية تعاندنا ولا تصدقنا كمسلمين رواد، الأمر الذي يجعل منها عولمة عقلية تخاطب العقلاء وبعض الغربيين الذين يخالفون مقاصد (INTENTIONS) دستور الإسلام، الواضح والمنظم لكل مظاهر الكون.

تجعل العولمة الإسلامية من القرآن الكريم نظرية كونية تنتشر بين سكان العالم عن طريق (مواقع) الانترنيت. إنها عملية هادية تنير للبشر طريقهم السليم.

تتميز العولمة الإسلامية ببعدها الروحي الذي يلغي الجهل الكبير لسكان العالم عن الملائكة، الجنة، النار، الموت، قوانين الصواعق وكهربائها. كما أنها تطلعهم على بعد آخر خاص يتعلق بالجهاد والتضحية، مما يجعلها تلغي بعض التحديات الغربية السطحية التي تعدُّ الجهاد الإسلامي إرهاباً.

والواقع أن العولمة الإسلامية تروم خلق (نظرية الخلاص) لسكان المعمورة من عذاب الآخرة، إذ تسطر لهم طرق العمل الصالح وتحضهم على الزهد والإنتاج الجيد والعدل وتأدية الفرائض (وإنجاز) الأركان الخمسة وإبعادهم عن الكبائر. إنها نظرية موضوعية (OBJECTIVE) تقوم على نسق شامل جامع لكل أمور الدنيا والآخرة.

*** أهداف العولمة الإسلامية:**

تملك العولمة الإسلامية أهدافاً عميمة دنيوية وأخروية (أهداف قريبة ـ أهداف بعيدة)، نذكر منها:

أ ـ نشر علم إسلامي هادف بين سكان الكون.

ب ـ اعتماد العمل الصالح.

جـ ـ الموازنة بين عمل الدنيا والآخرة.

د ـ الابتعاد عن المكاسب والسلوكيات الدنيئة.

هـ ـ نشر الشورى والعدل.

و ـ بناء الشخصية التقية.

لِكَي لاَ تَنْسَوا أَيُّها المسْلِمُونَ

أوليات: هل يجيد المسلمون استخدام شبكات نقل المعلومات الهادفة، التي تعينهم على معرفة ما يكتب عنهم ويحاك ضدهم بلغات أجنبية متعددة؟

كيف يمكن للمسلمين توظيف أجهزة فعلية تضم باحثين ومترجمين متخصصين يمارسون رقابة جدية على البحوث والكتب الهدامة التي تروم تشويه صورة الإسلام وتحد من تطور دوله الحالية؟. ما موقف الدول الإسلامية من بعض الكتاب والباحثين الغربيين «الحربائيين» الذين يتصيدون الفرص المادية؟ هل يمكن نقل سياسة الدول الغربية في مجال تخطيط اللغة ووضع البرامج الدراسية، دون الأخذ بعين الاعتبار الفرق بين الأصل اللغوي السانسكرتي الذي انطلقت منه، والهدف العربي السامي الذي ستطبق عليه؟

بأي طريقة يمكن الرد على بعض الباحثين اللسانيين اليهود بشأن كتاباتهم عن السياسة اللغوية لبعض الدول الإسلامية.

كيف يمكن مواجهة المؤسسات العلمية الغربية الضخمة التي يسيطر عليها باحثون يهود يمارسون الإرهاب والإبادة الفكرية لتراث الإسلام؟

لكي لا تنسوا أيها المسلمون: تعددت الحملات العنصرية اليهودية على الإسلام منذ عهد الرسول ﷺ.. برزت جوانبها السافرة عند جماعة الأحبار والتجار الذين صادفهم الرسول أثناء رحلاته.. ثم تظهر اليهودية الحديثة، الخالقة «لأسطورة إسرائيل» المزيفة للحقائق والوقائع التاريخية، التي جسدتها الكتب السماوية.. تعدد التحريف والتزييف

لعدة مآثر بفلسطين ولتاريخ بعض الشخصيات بالبلاد الإسلامية[1].. انتشرت «قصة اليهودي الشارد» لإثارة العطف والإشفاق...

كونت بعض الدول الغربية الحالية جماعة من الباحثين المتمرسين في تزييف الحقائق العلمية لتضليل الرأي العام.. تمثل المؤسسات الأمريكية والبريطانية حصة الأسد في هذا التكوين.. تنصب هذه المؤسسات أجهزة «تنصُّت» وتقيم إدارات وقنوات تجند لها أناساً متخصصين لسرقة المخطوطات والإيقاع بالأدمغة العلمية المتنورة... تخلق بعض المؤسسات الغربية المذكورة «باحثين» تغيب عنهم الأمانة العلمية والوازع الديني والواجب القومي.

تخطيط اللغة والعنصرية:

نشر الباحث اليهودي «موشي نهير» دراسة عن تخطيط اللغة العبرية المعاصرة. ظهرت هذه الدراسة ضمن مجلة «اللسانيات والسياسة» الصادرة عن مجلس اللغة الفرنسية ـ حكومة كيبك / كندا، سنة 1987ف.

تتعرض الدراسة لتخطيط اللغة العربية في بعض الدول العربية والإسلامية المجاورة لفلسطين. كما أنها تقيم مقارنة عنصرية بين اللغتين المنتميتين إلى العائلة السامية: أي بين العربية والعبرية، فما هي أهم محاور الدراسة؟ ما مدى صحة فحواها العلمي، دون تعصب أو تشنج؟

قامت الدراسة اللِسانية عند موشي نهير على عدة أسباب منها[2]:

1 ـ السعي وراء نقل معرفة غربية تبتغي خلف صياغة صورية لتخطيط اللغة العبرية والعربية، دون مراعاة للفوارق بين اللغات الغربية ذات الأصل السانسكرتي الهندي، واللغتين العربية والعبرية التابعتين للأصل السامي.

2 ـ قلة الدراسات الميدانية حول «تخطيط اللغة» في منطقة الشرق الأوسط. فالدراسات الموجودة تلغي السياقات الاجتماعية والثقافية والنفسية والاقتصادية. لقد مارس «موشي

1 ـ ينكر بعض اليهود ابتكارات: ابن النفيس، العباس بن الفرناس، الفارابي وغيرهم.

2 ـ ينظر «حايم بلان»، 1954، ص 388.

نهير» تقييمه المبني على التعصب الديني لليهودية، ولم يركب العلم الذي يرفض هذا..

3 ـ إبراز الطبائع السلالية والعرقية التي تثير التفرقة، وتتوغل في الاختلافات اللغوية ببلدان الشرق الأوسط، وخاصة بلاد الشام.

4 ـ التعريف بمستوى البحث العلمي اللساني في إسرائيل.

وهي قضية تبرز تجنيد «هذا الكيان» اللسانيات في عمليات التوسع والدعاية.

محاور الدراسة:

تعرضت الدراسة لعدة محاور منها:

1 ـ العلاقة بين اللغات السامية: حيث يظهر إيثار اللغة العبرية.. والنسق العلمي لا يقر بأفضلية لغة على أخرى (هذه جيدة وتلك رديئة).

2 ـ علاقة اللسانيات الحديثة بتخطيط لغات بلاد الشام.

3 ـ نهضة اللغة العبرية المنطوقة.

4 ـ اللغة ـ المعيار.

5 ـ تخطيط اللغة: تجديد المعجم لجميع الأجهزة (الجيش، الاتصالات والإلكترونات المعاهد التقنية، المجمع اللغوي للتقعيد، التطهير اللغوي، وسائل الإعلام، اللغات الأجنبية..).

مدى صحة فحوى الدراسة:

لم يلتزم «موشي نهير» بالموازاة بين الإطار النظري والتطبيقي. لقد توغل بعيداً داخل المجال النظري، مما جعله غير وفي للخطوط التي رسمها في بداية الدراسة...

قدّم الباحث عدة مفاهيم ارتكزت على ظواهر نابعة من الدول الغربية، ولم يتطرق إلا لقلة قليلة ترتبط ببلدان الشرق الأوسط. كما أنه لم يحدد تخطيط اللغة أو السياسة اللغوية للدولة تحديداً علمياً مستفيضاً. فتخطيط اللغة يسعى إلى ضبط الاستعمال الاجتماعي للغات، بغية تنظيمه وتقعيده. يقوم تخطيط اللغة على الكلام والإنجاز الفعلي الرائج في

المجتمع. كما أنه يحاول الإجابة عن عدة أسئلة، مثل: لماذا نقوم بتصحيح و«طرقنة» النظام اللغوي باستمرار؟

كيف يحدث تغيير وتحسين الإنجاز اللغوي عند المتكلم؟

ما هي الطريقة الواقعية التي تجعل اللغات تنمو بسرعة؟

أهمل «موشي نهير» اللغة العربية الرائجة داخل فلسطين، لأنه يعدُّها مستوى ثانوياً قليل الإنتاج العلمي والصحفي. وهو زعم لا تقره كثرة الأدباء والشعراء والباحثين في الأرض المحتلة أو الذين يهيمون في الأوطان حاملين على أكتافم تاريخ أرضهم، منتجين معارف ذات بناء علمي متين.. يتهم «موشي نهير» اللغة العربية بأنها لغة استيراد واستهلاك للمصطلحات العلمية الحديثة. وهذا ليس حكماً دقيقاً. فالاشتقاق والمقياس الصرفي العربي يستطيعان تغيير كل المصطلحات الغربية وإدراجها داخل البناء اللغوي العربي. يحمل هذا الرأي إجحافاً وتحاملاً كبيراً على لغة القرآن. إن تعقيد الظواهر اللغوية المطروحة وصعوبة إيجاد حل لها داخل دراسة موشي نهير قد أبرز لنا وجود ثغرة بين اللسانيات والإشكاليات التي تعرض لها الباحث في الشرق الأوسط..

لم يكن موشي نهير ملتزماً في دراسته عن اللغة العربية وواقع السياسة اللغوية داخل بعض البلدان العربية... درس التعدد اللغوي وعلاقاته بالبرامج الدراسية العربية العديد من الباحثين الغربيين الجيدين، أمثال فرغسون وغيره.

لقد كان الباحث متذبذباً في دراسته حول تخطيط اللغة في منطقة الشرق الأوسط، فهو من حيث الإطار النظري يذكر بعض الجوانب الأساسية ويغفل أخرى (تخطيط العينة اللغوية العربية). كما أنه يكثر من الإسقاطات العنصرية والنظرية الجاهزة على أشكال وصفات، دون ذكر للمصدر الذي استقاها منه. إنه يأخذ الأمر على عواهنه، فلا يرجع للدراسات العربية الرصينة في هذا الصدد، وذلك لأنه متعصب يستخف بمضمونها العلمي وملاءمته المنهجية والمفاهيمية للعصر.

وهو باطل نقصيه بإحالة الباحث على النصوص العلمية عند الجاحظ الذي يطرح

شروط النظرية «ملاحظة افتراض تجريب...» لم يستغل الباحث ولو بصورة رمزية الاهتمامات المتنوعة الموجودة داخل البلاد العربية، وذلك لإبراز الجوانب العرقية، الاقتصادية الدينية، الثقافية.. بشكل ديموقراطي لا يفضي إلى النبز والهمز الذي ترفضه الأديان السماوية، إذا كان «موشي نهير» له وازع ديني يهودي فعلي.

فالعرب المسلمون يحافظون حالياً في جميع الأمصار الإسلامية على اللغة العربية ـ المعيار، وعلى استعمالها في إداراتهم وبرامجهم التعليمية وشعائرهم الدينية، وليس كما زعم «موشي نهير» بأنهم أصبحوا يتواصلون داخل هذه المجالات باللسان العربي الوسيط واللهجي[3] وهي بدعة ضالة فقط.

لقد قدّم هذا الباحث اليهودي دراسة دعائية مرقعة، تروح للعقلية اليهودية.. ولم يكن متمرساً بتخصصه. كما أنه جانب العديد من الأسئلة الجوهرية في تخطيط اللغة، مثل: هل يمكن الإبقاء على كل اللغات واللهجات داخل منطقة الشرق الأوسط؟ ما نوع القانون اللغوي الاجتماعي الذي يمكن إضفاؤه على كل لغة على حدة؟ هل يمكن لهذا القانون أن يصبح اجتماعياً داخل المنطقة العربية؟ ما هي التدابير التي يجب اتخاذها لكي تعمل كل لغة داخل المجتمع المتعدد اللغات؟ كيف يمكن ضبط المقاييس اللغوية (صوتية، صرفية، نحوية، معجمية، دلالية) بالاعتماد على لغة القرآن الكريم المعجزة.

لم يتعرض موشي نهير إلى تخطيط اللغة في مجال الأدب (تحديث المعجم، الأسلوب، التركيب) داخل بلدان الشرق الأوسط، مدعياً أنها تنتج أدباً محلياً لا يصل إلى العالمية متغافلاً عن الشعر العربي الحديث والرواية والقصة والمسرح، رغم أنها ملأت الدنيا وشغلت الناس.

يمثل هذا الباحث اليهودي شخصاً يريد أن يخفي نور الشمس، أو يضمر حقيقة إلهية سرمدية.. إنه كاتب دعايات وآراء ساذجة.. فليقرأ المسلمون مثل هذه الدراسات المغرضة في لغاتها الأصلية ليردوا عليها بدقة فيرفعوا الباطل ويقاوموا هذا الخنجر اليهودي المسموم..

3 ـ الرأي عينه ذكرته «جوليت جرمادي»: في كتابها «اللسانيات الاجتماعية».

الاتّصَالُ اللساني
فِي الشَّرِيعَةِ الإسلاميَّةِ

المقاصد:

هل نحن قادرون من خلال التطور العلمي المعاصر على نشر الخطاب الإسلامي «قرآن، سُنَّة، إجماع» وعولمته في بقاع المعمورة؟ هل يمكن خلقُ هيمنةٍ وصحوةٍ دينية للشريعة الإسلامية عن طريق الأقمار الصناعية العربية وشبكة «الانترنيت»؟.

كيف تستطيع المنارات الدينية المبثوثة في أرجاء الجماهيرية والمؤسسات والزوايا الموزعة في البلاد الإسلامية وجمعية الدعوة بكل فروعها تصدير خطاب ديني موضوعي عقلي، بعيداً عن التشنج والطائفية؟.

كيف تشتغل وظائف اللسان العربي داخل مكونات الشريعة الإسلامية المتمثلة في القرآن والسنَّة والاجتهاد؟ ما خصوصية اشتغال كل وظيفة لسانية داخل المكونات الإسلامية السالفة؟ هل تملك هذه المكونات وظائف لسانية اتصالية متميزة؟.

الشريعة الإسلامية ومكوناتها:

تتميز الشريعة الإسلامية بدقة التحديد والوضوح والشمولية للمقاصد والغايات. كما أنها تتميز أيضاً بالتركيز على إعمال العقل واستحضار الضمير ومباركة الخير والالتزام، وتحذر من كل نقيض وضيع لما سلف. تمثل الشريعة الإسلامية نسقاً فكرياً متعدد الأبعاد

والدلالات التي ترتبط بممارسة الشعائر والطقوس الدينية المنجزة تبعاً لمستوى وعي وإدراك المؤمن.

تسعى مكونات الشريعة الإسلامية «القرآن، السنّة، الإجماع» إلى جعل المؤمن في اتصال «فعلي»[1] دائم مع خالقه بعقله وروحه. تتعرض هذه المكونات إلى تسطير واجبات وحقوق المؤمن إزاء موجده «أداء الفرائض والأركان، عدم تعدي حدود الله، الحصول على الجنة والثواب والخير العميم والشفاء والعون والمدد..».

كما أنها تبرز أن الله جلّت قدرته هو المسير والمغير للعالم والمصرف للرياح والأيام.. وأن على المؤمن المكلف السليم طاعته واجتناب نواهيه. تدفع الشريعة الإسلامية المؤمن إلى استخدام جوارحه بدقة وعفة، والتزام الأخلاق النبيلة النابعة من الإيمان كممارسة. كما أنها تساعده على التكيف مع السلوكيات القويمة وتطويرها ونقدها لتوقع أخرى جديدة تنفع أمته، وتجعلها ذات إبداع مستمر في هذا الصدد. تقدم الشريعة الإسلامية من هذا المنظور نظاماً معرفياً وقواعد متسقة ومنسجمة مع الحياة الاجتماعية السليمة المعاصرة.

تجسد الشريعة سلوكاً إنسانياً متحضراً تحكمه قواعد وزواجر، تنجز روابط والتزامات دقيقة لم ترق إليها المواثيق والإعلانات الدولية المعاصرة المغرقة في الإقليمية والعنصرية. إن مستوى الوعي والفهم عند المسلم الفرد يجعل من الشريعة الإسلامية ممارسات فرعية مختلفة، انطلقت من أصل واحد فريد. لذلك فإنه يصعب العيش في عالم واقعي دون ممارسة دينية لأنها تنظم حياة المسلم وتقوي شخصيته في جميع المواقف، وتمنحه تجديداً مستمراً في الفكر والروح لكي يصل إلى الحقيقة. يتجه كل من القرآن الكريم والسنّة المحمدية الشريفة والإجماع الصائب نحو خلق نسق علمي معرفي شامل للإيمان والممارسة الدينية، مما يحدد أنواع العلاقات بالمبادئ والقِيم الربانية التي تخص المجتمع الإسلامي. والملاحظ أن الشريعة الإسلامية تقدم أنموذجاً رصيناً للحقيقة من خلال مضامين مكوناتها ومستوياتها الدلالية.

1 ـ نقصد به مستوى القول والفعل المسؤول.

ترسم المكونات السالفة منابع ومصادر الفكر الإسلامي. كما أنها تجسد مستوى النشاط العقلي والتحليلي للمسلم داخل مجتمعه المتغير.

الاتصال اللساني في الشريعة الإسلامية:

يمثل اللسان العربي الفصيح وسيلة اتصال تنظم كل مكونات الشريعة الإسلامية، يحدث هذا الاتصال عن طريق نقل لساني يروج بين الفاعل الديني المتحدث، الذي ينتج أقوالاً وملفوظات ظاهرة أو مقدرة «تبعاً لنمط القول الديني»، والمتلقي الذي يستقبل هذه الأقوال. يُخلق الاتصال اللساني العربي المنسق لمكونات الشريعة الإسلامية تبادل الذوات: أي تبادلاً بين ذات الباث الديني والمتلقي لأقواله وملفوظاته، حيث تقلب المواقع وتتغير المناصب.

يشترك المتكلم الديني صحبة المخاطب في إنتاج الدال والمدلول الذي يضبط نصوص الشريعة الإسلامية، فيخلفان سلوكيات نفسية وممارسات لسانية، تحكمها دينامية متينة[2].

يظهر المشاركون في الاتصال اللساني العربي الموجّه لخطابات القرآن والسنّة والإجماع على شكل ممثلين وأشخاص تتحقق ذواتهم داخل النصوص بصور متفاوتة الدرجات والدلالات. تضم مكونات الشريعة الإسلامية ثلاثة عناصر للاتصال اللساني العربي:

1 ـ المتكلم الديني (أو المتكلمون)؛ حيث تبرز «الأنا الدينية / الفاعل الديني المتحدث» كبوصلة موجهة للمعنى المقامي، مما يمنح القول الديني إنجازاً تداولياً.

2 ـ المخاطب (أو المستقبل)، وهو المستهدف بالقول الديني، بغية الفهم والتأويل ورد الفعل.

3 ـ الكائن (موجودات العالم) وهو ما تتحدث عنه نصوص الشريعة الإسلامية، مشكلة بذلك موضوعاتها وظواهرها المحددة.

---

2 ـ تتجلى الدينامية القولية في الشريعة الإسلامية عن طريق نمو النصوص الدينية، تعدد حواراتها، تناسلها وتجاذبها، الصراع، الحركة، السيرورة، الانسجام. انظر محمد مفتاح في كتابه (دينامية النص).

تضبط مكونات الشريعة الإسلامية (قرآن، سنّة، اجتهاد) حالة الاتصال اللساني العربي وسياقه المقامي عن طريق:

أ ـ الموجه للاتصال اللساني العربي: يظهر عمله اللساني بواسطة ضمائر المتكلم (مفرد، مثنى، جمع)، فهو الذي يمثّل قطب العملية القولية الدينية.

ب ـ الأبعاد الزمكانية للقول أو سياق الموقف الديني: يقع رصد العلاقات الزمنية بين أجزاء القول القابع داخل النص الديني ولحظة تردده في ذاكرة المستقبل (جهة وزمن الفعل داخل النص الديني)، وكذلك رسم للعلاقات المكانية بين الفاعل ومواضيع القول الديني، سواء أكان ذلك عن طريق حضورها أم غيابها، قربها أم بُعدها.

تتعرض الأبعاد الزمكانية أيضاً لدراسة العلاقات الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بين هؤلاء الأشخاص الموجهين للاتصال اللساني العربي المنظم لمكونات الشريعة الإسلامية ولمواضيع القول الديني المدرج فيها «أنماط الخطاب الديني» الموجه للشريعة الإسلامية، العوامل التاريخية المؤثرة في مسيرة الإسلام، العوامل الاجتماعية التي يتحرك فيها خاتم الأديان والرسالات.

تتميز قواعد ونظم الاتصال اللساني العربي المنسق لنصوص الشريعة الإسلامية باستعمال «شفرة إسلامية» دقيقة تبرز وجود مسافة اجتماعية أو تبادل الذوات وتغيير المناصب والمواقع بين المتخاطبين المسلمين «الفرق الموجود بين أنا / نحن، أنت / أنتم للمتكلم والمخاطب في حال التعظيم والتبجيل»، مما يحدد مستوى التقديس والاحترام المتبادل بين المتكلمين داخل نصوص الشريعة الإسلامية، وتمايز المقامات والدرجات الدينية والاجتماعية بينهم، وكذلك الطريقة التي يواجه بها الفاعل الديني المتحدث أقواله. وهكذا فإن الأقوال الدينية المنتشرة داخل نصوص القرآن والسنّة والإجماع يمكن النظر إليها لسانياً حسب تكفل الفاعل الديني المتحدث بها. يبرز هذا التكفل عن طريق زمن وجهة الفعل والنعوت والأحوال، وهو ما نعدُّه محدداً للصيغ الصرفية للقول الديني الإسلامي.

تَخْلقُ نصوص الشريعة الإسلامية نظرية اتصال لساني، تروج معلومات دينية أزلية تنقل الأشخاص «أو بين المكان والشخص». يقع نقل المعلومات الدينية المعشّشة في نصوص الشريعة الإسلامية بواسطة «إرسالية إسلامية»، ذات شكل لساني عربي محدد ومقنن.

يتم الاتصال اللساني العربي داخل نصوص الشريعة الإسلامية بصورة دقيقة تبرز أن القرآن والسنّة والاجتهاد تشكل قاطبة نسقاً للاتصال الديني السليم في الحياة العامة. يشترط نظام الاتصال اللساني العربي الديني نقل إرسالية قولية تحدث بين الباث المسلم والمتلقي، بحيث يملك الاثنان معاً بصورة شاملة أو جزئية القانون اللساني الضروري لديباجة الإرسالية الدينية. يضم نسق الاتصال اللساني العربي المتحكم في نصوص القرآن والسنّة والإجماع العناصر الآتية:

1 ـ الباث الديني: يمثل مصدر نصوص الشريعة ومنبع عناصرها الثلاثة السالفة. فالباث في الإسلام يتحرك عن طريق آليات إنتاج الخطاب الديني والجهاز الناقل للنص. يشارك ظهور الباث الديني داخل نصوص الشريعة الإسلامية على فك وفهم نقاصدها، لأنه يسعى عن طريق أقواله الدينية إلى انتقاء بعض العلاقات اللسانية العربية المساعدة على نقل الإرسالية الإسلامية إلى متلقيه بصورة واضحة...

2 ـ المتلقي: الذي يفسر ويؤول الإرسالية الإسلامية حسب فهمه وإدراكه، خالقاً بذلك مؤسسة مستقبلة «جمعية دينية، مؤسسة متخصصة في دراسة الخطاب الديني، منارة إحدى الزوايا..». فالمتلقي للشريعة الإسلامية يمثل عقلية جمعية محللة لها آلياتها الخاصة في التفسير والتأويل للنصوص باستعمالات متداولة، تقرب النص القديم من الأذهان المعاصرة[3] (اللغة التحليلية لعلماء الدين أثناء المحاضرات والندوات والمقابلات الإذاعية». يمثل التفسير والتأويل عند المتلقي المسلم للنصوص الدينية بحثاً ونحتاً في الذاكرة عن الآليات التي توجه مكونات الشريعة.

3 ـ القانون اللساني العربي: تتجلى فيه جميع العلاقات اللسانية العربية الخاصة ونسقها

3 ـ وهو منظور فقه اللغة المعاصر على مستوى التحليل.

وكذلك مجموعة من القواعد والترابطات التي حددها بعض النحاة والمفسرين[4]. تتسق الأصوات العربية والوحدات الصرفية وقواعد الإدماج والربط وتنسجم بآليات النص الديني.

4 ـ قناة الإرسال الإسلامي: تمثل المرتكز والوسيلة التي تنقل كل إرساليات الشريعة. إنها الطريقة «الفزيائية» التي توصل النسق اللساني العربي إلى المتلقي ومراده المقصود. قد تتنوع قناة الإرسال الإسلامي لنصوص الشريعة: ترتيل وتجويد، إنشاد وسماع، محاضرة دينية مناقشة دينية، صحافة، أجهزة اتصالات، منارات وجمعيات، شبكة انترنيت، مختبرات، أشرطة وأسطوانات، أقمار صناعية.

5 ـ التفسير والتأويل: تحصل نصوص الشريعة على شكلها التحليلي الملائم المبسط، بحيث تصبح سهلة التداول بين المسلمين.

فما وظائف نسق الاتصال اللساني العربي داخل نصوص الشريعة الإسلامية؟ نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تمنح إنتاج الأقوال الدينية المتنوعة عدة مقاصد دلالية شاملة ومتنوعة. تتوخى نصوص الشريعة الإسلامية ترويج معلومات دينية خالدة، تخص الدنيا والآخرة بالتركيز على وظيفة مرجعية مؤطرة، تستعمل لغة حقيقية أو مجازية. تساعد هذه الوظيفة كل المسلمين على التفاهم والاتصال فيما بينهم. كما أنها تصف اللسان العربي تبعاً للعناصر السالفة[5]. تهيمن على نصوص الشريعة الإسلامية الوظيفة التحليلية الإصلاحية، التي ترتبط بها عدة وظائف لسانية ثانوية.

تروج داخل نصوص الشريعة الإسلامية وظيفة أخرى تتعلق بالتكليف، حيث يستعمل اللسان العربي كوسيلة تقود المؤمن إلى اتباع الأوامر واجتناب النواهي.. كما يضم الخطاب الإسلامي وظيفة إنشائية يتجاوز من خلالها المتكلم المؤمن تقديم مجرد معلومات ليدرج مشاعره.

4 ـ يثير بعض المفسرين العديد من القضايا اللسانية التي تحتاج دراسة متخصصة «أنموذج القرطبي».

5 ـ انظر قاموس (اللسانيات) لجون ديبوا ومعاونيه مادة «اتصال».

حال دار لقمان

حال الديانة النصرانية:

تعد من الديانات السماوية، ظهرت تاريخياً بعد اليهودية. كان عيسى (عليه السلام) هو حامل رسالتها التوحيدية، التي تحث البشر على المحبة والإخاء والمساواة والفضيلة والسلام.

تقوم العقيدة المسيحية على ثلاثة عناصر:

1 ـ التثليث، والإيمان بثلاثة أقانيم[1].

2 ـ صلب المسيح فداء للخليقة وقيامه من قبره ورفعه.

3 ـ محاسبة الأحياء والأموات على أفعالهم.

لقد كان عيسى (عليه السلام) رسولاً كريماً واعظاً ومرشداً من المستوى المتميز؛ إذ كان في منتهى الرفعة والتسامح وسمو الأخلاق.

لم تبق حال النصرانية توحيدية، نقية التعاليم والأفكار، فقد جاء نصارى نجران لمبايعة سيدنا محمد ـ ﷺ ـ حينما دعاهم إلى الإسلام.. قالوا له: نحن مسلمون قبلكم.. فقال عليه السلام لهم إنما يمنعكم من الإسلام ثلاثة: عبادتكم للصليب وأكلكم لحم الخنزير وزعمكم أن لله ولداً.

1 ـ هي: الأب، الابن، الروح القدس.. ينظر كتاب «عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة»، ص 431.

ارتكزت المسيحية في عباداتها على ركنين هما:

1 ـ الصوم، وفيه اختلاف بين فرقهم.

2 ـ الصلاة، تقرّب إلى الله وتسمى الصلاة الربانية وتضم الدعاء والطلبات والتمجيد.

غيّرت الأناجيل عدة حقائق في العقيدة المسيحية وتاريخ عيسى (عليه السلام). تظهر حياته في نهايتها عبارة عن مأساة فظيعة، كما أنها طورت فكرة الثالوث المقدس (الأب، الابن، الروح المقدس). وهكذا فقد ظهرت في القرن الرابع الميلادي آراء متضاربة تقول إن:

أ ـ المسيح شخص سماوي نزل إلى الأرض لأنه روح الله وصورته[2].

ب ـ المسيح هو كلمة الله، فهو له لأن الكلمة فيض من الله[3].

جـ ـ المسيح ليس رجلاً، إلا من حيث المظهر.

يرد في القرآن، ضمن سورة النساء، الآية 171، قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾

رفض المسيحيون، بعد القرن الرابع الميلادي وحدانية الله وقالوا بالاعتقاد المتناقض المرتبط بالثالوث، وهذا ما مزّق المسيحية إلى فرق. إن فكرة الثالوث لم ترد عن عيسى (عليه السلام). كما أن الأناجيل قد اختلفت في نسب السيد المسيح[4].

حال دار لقمان: رؤية إسلامية..

يؤمن المسلمون بأن السيد المسيح هو رسول الله وعبده وكلمته ألقاها إلى مريم

2 ـ فوزي محمد حميد، عالم الأديان بين الأسطورة والحقيقة منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1999 مسيحي، ص 442.

3 ـ راجع هذا الرأي عند اليوصفية.

4 ـ الاختلاف واضحٌ حول هذا الموضوع في إنجيل لوقا وإنجيل متّى.

وروح منه، كانت أمه عفيفة وطاهرة، يقول تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [5].

فالإسلام يعترف بنبوة عيسى وأنه عبد فقير ضعيف. كما أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد اعترف بذلك في رسالته إلى النجاشي امبراطور الحبشة: «وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول..».

لم تترك الأناجيل النصرانية على الحال التي كانت عليها في عهد عيسى (عليه السلام). تجاوزت هذه الأناجيل المائة وأكثرها غير قانوني أو شرعي، مثل أناجيل الناصريين والعبرانيين والمصريين وإنجيل توما وإنجيل برنابا وعدة رسائل دينية أخرى. نجدها قد قامت بعدة أمور كالتحريف، والتكرار والتناقض، والزيادة أو النقصان..

نجد أيضاً أن الأناجيل والنصارى قد قاموا بتغيير عدة تشريعات: تحويل الصلاة جهة الشرق، وضع الصور الآدمية في الكنائس، نقل الصيام إلى فصل الربيع، أكل لحم الخنزير، تحريم زواج الرهبان، زيادة الأعياد بسبب العظماء، تكفير الفرق[6].. وهكذا فلم تبق دار لقمان على حالها.

5 ـ سورة آل عمران، الآية 59.

6 ـ حدث هذا بين النسطورية واليعقوبية.

المرجع اللِّساني عند المفسرين

الفرضيات:

كيف تعامل المفسرون للقرآن الكريم مع المرجع اللساني الديني الذي يضمه النص المقدس؟ ما علاقة هذا المرجع الإسلامي بالتحليل العلمي الحديث؟ هل استطاع المفسرون لكتاب الله الجمع في تحليلاتهم بين المرجع اللساني الديني الكامن داخل النص المطهر والعالم الخارجي؟ أليس هناك اتفاق تام بين المفسرين على أن المرجع اللساني القرآني واحد، مهما اختلفت الثقافات والانتماءات؟.

المرجع اللساني الديني:

يمثل وظيفة اتصالية محددة على المستوى الديني، إذ تجعل العلامة اللغوية تلتحم بمواضيع العالم الخارجي سواء كانت حقيقية أم خيالية.

تلعب وظيفة المرجع الديني القرآني دوراً اتصالياً مهماً، يخله اللسان العربي المعجز الذي يدبّج التنزيل. تبرز هذه الوظيفة واضحة، مهما تنوعت الأساليب والمستويات اللسانية (صوت، صرف، تركيب، معجم، دلالة) داخل السور والآيات المقدسة.

يربط المرجع الديني الذي يوظفه القرآن الكريم بين المفاهيم العربية التي تحدد أهداف ومقاصد الشريعة الإسلامية والصور السمعية اللفظية المنسقة للذكر

الحكيم[1]. كما أنه يتصل داخل بعض السياقات بمواضيع الواقع الخارجي الذي يصفه ويحلله ويبينه الكتاب المقدس. تقوم الوظيفة المرجعية اللسانية المرتبة لكتاب الله بربط الكلمات القرآنية بعالم الموجودات والأشياء الخارجية، وذلك من خلال رؤية دينية شاملة، تحدد المظاهر الفكرية لثقافات الأمم التي يتعرض إليها التنزيل بالتحليل، مستشرفاً ومتنبئاً بآفاقها المستقبلية.

يتجه المرجع الديني المنسق للقرآن صوب تحديد مواضيع كونية دقيقة ومتنوعة، حيث يقرنها بأفكار متطورة لا حصر لها، يفهمها جل أبناء الإسلام: إدراكهم لطرق معالجة المعادن والعلوم في القرآن الكريم (التعرف عليها من خلال بعض الصور والآيات المحددة). قد يملك الإنسان اليهودي والنصراني مراجع لسانية أخرى مختلفة (كلمات أخرى) للتعبير عن المعادن والعلوم في التوراة والإنجيل المقدسين[2].

لقد سعى بعض المفسرين لكتاب الله إلى الجمع بين الألفاظ والتعابير التي يضمها النص المطهر والمرجع (مواضيع العالم الخارجي). لذلك فإن المرجع الديني يشكل ظاهرة تتحدد من خلال (أجزاء) السلسلة القولية العربية المنظمة للذكر الحكيم أو من خلال الكلمة التي يتوخى أنه يجسدها، تبعاً للسياق.

يقسم المرجع اللساني القرآني من خلال علاقته بالتحليل العلمي الحديث إلى قسمين:

1 ــ مرجع لساني صوتي وظيفي:

يقوم على إدماج الأصوات العربية وتركيبها لتكوين الكلمات القرآنية، مما يحلق نسقاً صوتياً متلاحماً ومتناغماً، يظهر أثناء الترتيل أو التجويد من خلال عدة ظواهر، مثل: النبر، المقطع، التنغيم، التفخيم، الإمالة... لذلك فإن المرجع الصوتي الوظيفي الكامن في القرآن يبرز السمات المميزة لكل وحدة صوتية تدخل في اتساق وانسجام كلمات التنزيل.

---

1 ـ نقصد به إقامة علاقة «وقفية» بين الدال والمدلول في القرآن، حسب ما أراده الله سبحانه.

2 ـ جون ديبوا (وآخرون). قاموس (اللسانيات). مادة (مرجع) ط 1973ف، لاروس، ص 414 ـ 415.

2 ـ مرجع لساني صرفي:

يشارك في تحديد الكلمة القرآنية: الروابط النصية، الإلحاق والزيادة في تصريف الأزمنة، علامات الجمع في الأفعال العربية المصرفة بكتاب الله. يملك الإملاء القرآني نسقاً عربياً له بعد صرفي متميز، وهو ما نسميه بالكتابة القرآنية الصرفية. «فالوحدة القرآنية الإملائية القرآنية»: تجسد وحدات فكرية وكلمات محددة وليس «أجزاء» صوتية فقط تدرج داخل السلسلة القولية القرآنية.

قد يجسد المرجع اللساني الديني الموظف في كتاب الله العزيز المعنى الذي يشير إلى الحقيقة الفعلية للكلمات القرآنية داخل بعض سياقاتها الإسلامية المحددة. لكننا نجد أيضاً أن بعض العلامات اللغوية القرآنية ترمز إلى موجودات متنوعة بالعالم الخارجي، متجاوزة في شموليتها وإعجازها البيئة والثقافة الإسلامية الخاصة.

وهكذا فإن المرجع اللساني الديني المدبج للقرآن المعظم يعبر عن استعمال الكلمات العربية داخل مقامات معينة، ترمز إليها «الإرسالية القرآنية» عن طريق وظيفة اتصالية دقيقة. فهل وفق المفسرون في تجسيد مظاهر وتجليات هذا المفهوم حسب التحديد السالف؟.

المرجع اللساني عند المفسرين:

يربط بعض المفسرين (من القدماء والمحدثين) بين المرجع اللساني الموظف بالقرآن الكريم واستعمالات الخطاب العربي اليومي الرائجة في حياة المسلمين، فيبرزون في بعض تفاسيرهم مطابقة القرآن الكريم على مستوى المعجم (من حيث التركيب والصرف) لألفاظ الخطاب المذكور.

يحدد فخر الدين الرازي كلمة (روح) الواردة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ سورة مريم، الآية 17، أن المقصود هو شيء معين، أو شخص محدد محبوب.. والواقع أن «الروح» يقصد به في الغالب جبريل عليه السلام. كما أنه يفسر قوله سبحانه ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ سورة الذاريات، الآية 29، بالرجوع إلى كلمات عربية وأحداث

مشابهة لاستعمالات الخطاب اليومي في حياة المسلمين، حيث يجسد تعابير معروفة ترسم هيئة جسم المرأة المقصودة. إن هذا النوع من التفسير يمثل قراءة ذات خلفيات تقصي عن لغة القرآن الكريم دلالاتها المقدسة، لأنها تجعل المفسر ينزلق إلى مقارنتها بلغة الاستعمال اليومي عند المسلمين. يشترط في مفسر القرآن المطهر توفر ثقافة إسلامية ملتزمة ومنهجية دقيقة واختبارات علمية لقناعاته الدينية عن طريق تتبع نوعية القراءة التي يستعملها.

لقد تعامل المفسرون مع المرجع اللساني الديني الذي يضمه النص القرآني بطرق مختلفة تَنِمُّ عن تنوع الثقافات والانتماءات كقوله تعالى في سورة يونس، الآية 54 ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، حيث نجد أن بعض المفسرين قد «أجروا الفعل﴿وَأَسَرُّواْ﴾ على التضاد على اختلاف في التفسير.. والمفسرون على غير إجماع على اعتبار «أسر» من الأضداد. فالإمام الطبري وهو من مفسري السنّة يثبت أن معنى الفعل المذكور هو (الإخفاء) وهو المعنى الأصيل الذي تنصرف إليه الكلمة عامة.

يذكر الطبري في تفسير الآية السابقة من سورة يونس قائلاً: «وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم وأيقنوا أنه واقع بهم»[3]. أما الزمخشري فيقارب الآية الكريمة عينها من منظور مختلف: «..لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سَلَبَهُمْ قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب.. وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء لخالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة وقيل: أسروا الندامة: أظهروها.من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد»[4].

والملاحظ أنه لا يوجد اتفاق تام بين المفسرين حول مقاربة معنى آيات قرآنية بعينها،

3 ـ الطبري. تفسير ـ 86.

4 ـ الزمخشري. الكشاف 2 ـ 235. مطبعة الاستقامة 1365ف.

وذلك نظراً لاختلافاتهم الثقافية والمنهجية وتعدد مذاهبهم الإسلامية.

يتطرق فخر الدين الرازي إلى تحليل الفعل «أسرَّ» في الآية الكريمة المذكورة سابقاً، فيقول «... واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد. أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر، وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو قولهم: سر الشيء وأسره إذا أظهره. إذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال: المراد منه إخفاء تلك الندامة والسبب في هذا الإخفاء وجوه»..[5].

يظهر أن الخلاف بين المفسرين للقرآن الكريم، انطلاقاً من مذاهبهم وفرقهم الدينية، قد انعكس على تحليل المرجع اللساني الديني الكامن في الآيات المقدسة التي تعرضنا إليها. يتلون المرجع اللساني القرآني، حيث يصطبغ بعدة استعمالات وتطورات دلالية يرمز إليها. تذكر جماعة من المفسرين أن المقصود بقوله تعالى في سورة البقرة، الآية 69، ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ هو السواد. فقد نقل ابن الأنباري قول الفراء «إنما قالت للجمل الأسود: أصفر، لأن سواده تعلوه صفرة فسموه أصفر»[6].

كما يظهر الخلاف بين المفسرين شديداً حول المرجع الألسني الكامن في قوله جلّت قدرته ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، الرعد، الآية 2، لقد ذكر بعضهم أن المقصود خلقها مرفوعة بلا عمد فالجحد واقع في موضعه الذي يقوم فيه، ثم قال سبحانه﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي أنه لا داعي لخبر يقترن بالرؤية. وفسر الآية ذاتها آخرون بأن الله تعالى رفع السموات بعمد لا يراها البشر «فدخل الجحد على العمد في اللفظ وهو في المعنى منقول إلى الرؤية...»[7].

يحلل بعض المفسرين المرجع اللساني في كلمة«يظنون» من خلال قوله تعالى في سورة البقرة، الآية 249:﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾من منظور الأضداد اللغوية العربية بدعوى أن الذين يتيقنون أحبوا التأكد أن اليقين هو غير الظن المعروف الذي يعد

5 ـ الفخر الرازي. 3 ـ 5.

6 ـ ابن الأنباري. الأضداد. ص 110.

7 ـ المرجع نفسه. ص 268.

أضعف من اليقين والعلم. والواقع أن المتكلم العربي لا يستعمل الفعل المذكور بهذه الطريقة التي تحمل التضاد.

«والأمر في الآية الكريمة غير هذا، فلم يذهب وهْم عاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قوماً بالشك في لقائه كما يعلل ذلك ابن الأنباري. وهكذا فإن التضاد حاصل في الآية لما عرفنا من الحقيقة في أن لقاء العبد بربه حاصل لا محالة»(8).

تركيبنا:

تبقى مقاربة المفسرين لمعاني القرآن الكريم نسبية عند تحليلهم المرجع اللساني الديني الذي يضمه النص المطهر. لذلك فإننا نركب تحليلنا للمرجع اللساني المنسق لكتاب الله فيما يأتي:

1 ـ تبقى دلالات المرجع اللساني القرآني «وقفية» منزلة، تفوق الأطروحات النسبية الوضعية لدى المفسرين.

2 ـ تعتمد مقاربات المفسرين للمرجع اللساني القرآني على ثقافاتهم الخاصة وانتماءاتهم المذهبية.

3 ـ يمزج المرجع اللساني القرآني بين المعنى الحقيقي والمجازي.

8 ـ إبراهيم السامرائي. التطور اللغوي التاريخي. ط2، دار الأندلس. ص 99. بيروت. لبنان 1981.

الجوانب اللسانية من التفسير

المنطلقات:

هل استطاعت الجوانب اللسانية التي وظفها المفسرون القدماء بلورة أحكام ومقاصد الشريعة الإسلامية الموجودة بين طيات النص المقدس؟ كيف تعامل الطبري وابن كثير مع هذه الجوانب أثناء تفسيرهما لكتاب الله؟. ما علاقة البنية السردية بالجوانب المذكورة داخل النص القرآني؟. هل هناك اتفاق وتجانس بين المفسرين في توظيف المستويات اللسانية؟ كيف عالج المفسرون قصة إبراهيم وأبيه (آزر) على المستوى اللغوي؟ هل هناك اختلاف بين مدارس التفسير بالنسبة للجوانب اللسانية؟.

الجوانب اللسانية:

يثير المفسرون للقرآن الكريم عدة جوانب لسانية، ذات مميزات وخصائص شكلية محددة. إنهم يستخلصون معالمها الدقيقة من خلال تعاملهم المتأني الطويل مع النص المقدس. لا تبدو هذه الجوانب تامة إلا بالوجود الفعلي للذكر الحكيم، الذي يفككه العمل اللساني إلى أجزاء تحكمها علاقات ووظائف محددة لخدمة أحكام ومقاصد الشريعة الإسلامية. يمرح بعض المفسرين بهذا العمل، حيث يتبعون نسقاً معيارياً معيناً.

والواضح أن الجوانب اللسانية تتنوع بتنوع اشتغال المفسرين بالنسبة للسور والآيات

القرآنية المقدسة، الأمر الذي يجعلهم ينجزون أنساقاً قانونية متمايزة. إن التفكيك الذي يضبطه نظام لغوي دقيق لم يكن حاضراً أثناء التفسير بصورة منهجية ومتدرجة، بل كانت تتخلله في أغلب الأحيان بعض الاستطرادات الموسوعية[1]، مما جعل هذا النوع من الاشتغال اللساني يحتل بؤرة التقاليد المتبعة في مجال التفسير. إن هذه الجوانب الشكلية تعد أساسية عند المفسرين القدامى ولا تحتاج نقاشاً أو تفصيلاً كثيراً.

تتجلى إشكالية رصد الجوانب اللسانية المسيطرة على التفسير عند الطبري وابن كثير من خلال بعض السور والآيات التي تعالج قصة إبراهيم عليه السلام. إن تحليلنا اللساني لن يجعل عمومية التفسير خاصة وأحادية.

فالإشكالات والمظاهر السردية (NARRATIVE)[2] التي يثيرها النص القرآني متعددة، لكنها ما زالت تحتاج أجوبة دقيقة وتوضيحات كافية لأن مناهج التفسير القديم لم تمط اللثام عن بعض جوانبها[3].. لا نجد أي امتداد أو تواجد للبعد التداولي اللساني داخل مدارس التفسير أثناء تعرضها للسور والآيات القرآنية، على مر العصور واختلاف المذاهب.

يمثل الطبري وابن كثير مرحلة علمية حديدة حْلقت منعطفاً واضحاً في تاريخ تفسير كتاب الله العظيم، حيث جسدت وصفاً بنيوياً متفرداً قام على قواعد نصية تضبط الجوانب اللسانية. كما أنها ساعدت على بلورة وتمييز أعمال محمد بن أحمد القرطبي وفخر الدين الرازي وغيرهم.

تتوزع الجوانب اللسانية عند المفسرين معلنة قيام نسق محدد تحكمه علاقات ووظائف، من خلال:

1 ـ ضبط البنى اللسانية في القرآن.

1 ـ إننا نعدّها صرعة العصر آنذاك، علاوة على أنها كانت السمة المنهجية المسيطرة على المصنفات، ولا يمكن وصفها بالتداخل أو العقم، لأن لكل فترة شروط إنتاجها الفكري.

2 ـ تبرز المظاهر السردية من خلال مصطلحات: القصة، الخطاب، التاريخ، المتكلم، الكاتب، الجمهور، القارئ.

3 ـ المناهج ليست أزلية أو عصا سحرية: إنها ترتبط بفترة معينة، ثم تصبح عقيمة وغير مثمرة نتيجة للتطور الفكري.

2 ـ إبراز ضغط هذه الجوانب داخل النص المطهر.

يعترف المفسرون المعاصرون بوجود هذه الجوانب داخل مدارس التفسير القديم باختلاف اتجاهاتها، حيث تعدد مستوياتها ودرجاتها[4]. نجد مستويين هامين، يحددان الجوانب اللسانية المنتشرة بين المفسرين، وهما:

1 ـ مستوى دينامية الجوانب اللسانية عند المفسر.

2 ـ آفاقها وحدودها.

حينما نعانق بشغف الأيات المتعلقة بقصة إبراهيم عليه السلام فإن ذلك يساعدنا على إنجاز عدد لا بأس به من القراءات الحسنة النية[5]. ترتبط معانقتنا بتفسير كلمة (آزر) التي تشير إلى اسم والد سيدنا إبراهيم.

لكن عدة خطابات سردية (التاريخ، قصص الأنبياء، الرواة، التوراة، الإنجيل) تذكر أن اسم والد إبراهيم كان (طارح) أو (طارخ).

وهذا القول يستوجب بعض التأمل والنقد البناء. يزعم[6] بعضهم أن أب إبراهيم عليه السلام كان يحمل اسمين هما: يعقوب وإسرائيل. لذلك نجد في بعض اللهجات والاصطلاحات القديمة أن (آزر) كان يمثل لقباً، و(طارح) هو اسم علم والعكس صحيح. والواقع أن (آزر) يعد الاسم الصحيح. لقد روج هذه الفكرة الحسن البصري، أما سليمان التيمي وآخرون فيرون أن كلمة (آزر) تدل على الاستخفاف والشتم، وهي تقابل في اللغة العربية (المخطئ). يذكر الجوهري أن (آزر) كلمة أعجمية اشتقت من العربية القديمة بمعنى (آزر، ساعد، عاضد، أيد، ساند، ناصر..)، الأمر الذي يجعلها تحيل إلى الواقعة التي تقول بأن طارح / آزر قد ساعد قومه على عبادة الأصنام، فجسدت في اللغة العربية لتدل على معنى (القوة)[7].

4 ـ المقصود بها: المستوى الصوتي، المستوى الصرفي، المستوى التركيبي، المستوى المعجمي والمستوى الدلالي.

5 ـ كل مفسر يتعامل مع النص المقدس من زاوية تخصصه أو ما يهم جماعته، ساعياً إلى إبراز معنى معين. إنه يشبه بروكست قاطع الطريق اليوناني. فهو يفكك ويقترح تأويلات للنص تنسجم مع أهدافه ومذهبه.

6 ـ الرأي قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً.

7 - APPROACHES TO THE QUR'AN. ED. GR. HAWTING AND ABDUL KADER A. SHAREEF. ROUTLEDGE. LONON AND NEW YORK 1993.

هناك آراء كثيرة متمايزة تتعلق بمعنى اسم (آزر)، منها:

أ ـ رأي مجاهد وقطرب، إذ يتساءلان: هل كان (آزر) وثنياً يعبد الأصنام؟. كما يقرران بأن الكلمة هي اسم جنس.

ب ـ رأي ابن عباس: يفسر (إزراً) بمعنى (خليلاً).

جـ ـ رأي محمد بن محمد الجويني، الذي يحدد معنى كلمة (آزر) بالمخطئ. وهذا الرأي يحمل اتفاقاً مع بعض المفسرين السابقين. يذكر قطرب 18 تنوعاً دلالياً لقراءة الآية الكريمة التي تضم اسم (آزر).

إن الاستشهادات والآراء التي ذكرناها تفضي إلى نتيجة واحدة، وهي: تعدد قراءات النص القرآني عند المفسرين. كما أنها توضح خصائصه اللسانية البنيوية المتميزة.

هناك بعض العوامل الإسلامية التي تحدد الجوانب اللسانية المجسمة لنوعية التفسير الذي يقدمه الطبري وابن كثير، مثل:

1 ـ فتح باب التفسير، أي اختيار سور معينة بمنهجية مخالفة للقدماء.

2 ـ تحديد المرجعية الدينية وضبط دلالتها (ضبط التنوع على مستوى الدال والمدلول).

قد نجد عوامل إسلامية أخرى ترتبط بتفسير كتاب الله، هدفها توسيع وتعميق اتجاهات التفسير من خلال المضامين الرفيعة التي تحملها، حيث تُخلق عدة تخصصات علمية تدور حول الرسالة الربانية وبؤرة اشتغالها اللساني وموقف مدارس التفسير منها.

يدمج الزمخشري عدة جوانب لسانية في تفسيره يسيرها المستوى النحوي، حيث يدافع من خلاله عن المذهب المعتزلي. إنه يفضل التنوع اللساني في التفسير واختيار بعض الوسائل المتاحة.

يتطلب تعدد قراءات النص القرآني المقدس التوفر على قاعدة ومعيار لسانيين، نطلق عليهما «سلطات النص القرآني» التي يحاول بعض المفسرين الوصول إليها، وبعضهم الآخر يختزلها بصورة واضحة.

إن الاهتمام بأعمال بعض المفسرين (فخر الدين الرازي، ابن كثير) من المنظور اللساني يجعلنا نبحث بدقة عن العوامل المتشابهة والخيوط الرابطة بين هذا التنوع الكبير في الجوانب اللسانية المرتبطة بمجال التفسير من أجل ضبط وحصر القراءات من خلال:

1 ـ تسجيل ملاحظات حول مذاهب المفسرين.

2 ـ معرفة الشروط العلمية لتنوع الجوانب اللسانية المرتبطة بالتفسير.

3 ـ ضبط الشكل والجوهر لتعدد القراءات.

4 ـ تحديد الآفاق الدلالية لِـ «سلطات النص القرآني».

5 ـ معرفة طرق بناء الجوانب اللسانية المسيطرة على مذاهب التفسير (سنّة، شيعة، معتزلة..).

إن العمليات اللسانية التي تحدد «سلطات النص القرآني» والالقة للقراءات المتنوعة تمثل نوعاً من الولاء والانتماء لمذهب معين، إذ أنها ترسم تقاليد التفسير ونوعية العمل المهيمن على هذا التخصص. كما أنها تعني أيضاً تبني الفردية والفنية عند بعض المفسرين من خلال:

أ ـ انتقاء النصوص القرآنية.

ب ـ عرضها النحوي والبلاغي.

ج ـ تنسيق الاستشهادات الضابطة لأنواع التفاسير السابقة.

تتجسد «سلطات النص القرآني» من خلال قوة العناصر اللسانية التي تحرك الرسالة الربانية التي يبثها الذكر الحكيم إلى البشر.

إن عدم كشف وفهم وضبط تعدد الجوانب اللسانية المنتشرة داخل التفاسير المتنوعة للنص المقدس يجعلنا لا نستطيع رصد ومتابعة تقاليد التفسير، حيث نقع في عدة مزالق صنع الخيال المجنح. كما أن عوامل الاختيار لبعض السور والآيات تكون أحياناً مذهبية ومدرسية ترتبط بالفضاء الزمكاني.

والله أعلم.

مناهج التفسير

التشابه والاختلاف

جوهر الجدل:

لماذا يكثر بعض المفسرين من مجادلة التقاليد العقلية والثقافية الإسلامية التي سيطرت على تحديد الجنس اللغوي الذي يفرزه قطاع تفسير كتاب الله المعظم؟. هل تتشابه أم تختلف مناهج التفسير بالنسبة للخطاب السردي (NARRATIVE, DISCOURSE) الذي يبني قصة الذبيح في القرآن الكريم؟. لماذا نجد بعض التأرجح عند عدة مفسرين بشأن تحديد شخصية الذبيح من أبناء سيدنا إبراهيم عليه السلام؟. هل تستطيع مناهج التشابه أو الاختلاف التحكم في ثنائية: سلطة النص المقدس / سلطة المفسر؟. كيف تحدد مسؤولية المفسر عند القدماء؟. ما رأي الطبري بالجنس اللغوي الموجّه لكتاب الله العزيز؟.

مناهج التفسير في قصة الذبيح:

يقلل ابن كثير من شأن التقاليد العقلية والثقافية الإسلامية، الواردة عند المفسرين السابقين، بغية تحديد الجنس اللغوي داخل مجال تفسير كتاب الله المعظم. إنه أحد الخبراء في علم الحديث والسنّة وأنجب تلاميذ ابن تيمية.. علماً بأن الاثنين معاً ينتميان إلى قطاع التفسير الثقافي العقلي بكل رموزه المتسقة والمنسجمة.

تختلف الأحاديث حول الذبيح «الذبيح هو إسحاق»: يذكر كعب خطاباً سردياً مطولاً حول هذا الموضوع، نقلاً عن أبي حورية. يروي الطبري 24 حقيقة وردت عند المفسرين

القدماء، بشأن قصة ذبح إسماعيل، فيسترشد بابن عباس حول لقب (الذبيحان)[1].

والحقيقة أن الطبري يؤثر أن إسحاق هو الذبيح (الأضحية) وهذا (أولى القولين بالصواب)[2]. فالمعنى التام لهذه القصة يبدو ظاهرياً (FORMEL) بالنسبة لأسباب النزول التي ترصد ظروفاً محددة، تسعى لخدمة عقيدة التوحيد. علاوة على هذا نجد أن الله سبحانه قد «أمر» إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم بذبح سيدنا إسماعيل[3].

والواقع أن ابن كثير يستعمل في تفسيره لـ«قصة الذبيح» في كتاب الله العزيز عدة مقاسات؛ وهي:

1 ـ قلة الركون إلى التقاليد العقلية والثقافية، القابعة في التفاسير السابقة.

2 ـ الاعتراف بوجود اختلافات حول هذه القصة عند عدة مفسرين.

3 ـ رفضه تعدد القراءات والتفاسير.

4 ـ التركيز على قراءة واحدة صحيحة.

5 ـ الاعتماد على المذهبية في سرد (القصص القرآني)[4].

6 ـ التقليل من شأن تنوع المظاهر النحوية والبلاغية في النص المقدس.

7 ـ عدم الاعتماد الكبير على العلوم الإنسانية في تفسيره.

يمكن القول، من خلال ما سلف، أن ابن كثير قد طور الاختلاف حول قصص الأنبياء في القرآن، وذلك إذا ما قارناه بالثعلبي الذي يعتمد على سلطة المفسر. يذكر رأيه في المفسرين في عدة مواقف بقوله (فذلك قوله). كما أنه يتميز بخصوصية وتفرد تفسيره للسور الآتية:

1 ـ العنكبوت.

2 ـ الشعراء.

1 ـ هناك تفاصيل كثيرة حول هذا الموضوع وردت في كتاب:
APPROACHES TO THE QURAN EDITED BY G. R. HAWTING AND ABDUL KADER A. SHAEREF. LONDON AND NEW YORK 1993.

2 ـ IBIDEM. P. 255

3 ـ ذكر هذا الموضوع في تفسير الآية 107 من سورة الصافات.

4 ـ أورد عدة آراء في كتابه (قصص الأنبياء)، وهي آراء منقولة تحتاج إلى غربلة وعقلنة ومنهجية.

3 ـ الأنبياء.

4 ـ الصافات.

يبرز هذا الإنجاز استقلال الثعلبي وعدم اعتماده على السرد السابق، الموجود في كتب العهد القديم وعند المفسرين القدماء. كما أنه يقدم منهاجاً تاريخياً لسورتي الأنعام ومريم.. ومع ذلك فإن ابن كثير يبقى مفسراً له طريقة متميزة عن غيره.

توضح صيرورة التفسير، انطلاقاً من الطبري إلى القرطبي أن جل المفسرين يملكون استقلالاً مذهبياً نسبياً يثري قراءة النص القرآني، الأمر الذي يساعد على إيجاد أدلة تتعلق باختلافات المعنى وتعدد فهمه و«قراءاته» الخاصة.

يبدو أن ابن كثير يقدم اختزالات كثيرة لعدة جوانب من القصص القرآني، لأنها غير إسلامية تقوم إنجازاته القوية على «تفكيك» النص القرآني واستقرائه (INDUCTION) وذلك باستقاء مادته العلمية من الحديث. إنه يمثّل قراءة نسقية (SYSTEMATIC) للنص القرآني المعظم، حيث تكون أقرب مراد وتداول مقبول. فهو يتميز بخاصيتين:

1 ـ مقارنة وقياس النص القرآني بالحديث النبوي.

2 ـ اختزال التعقيد والتفسير المبهم.

يحتاج التفسير قوانين الجماعة والتخصص العلمي. فلا يستقيم الأمر بغير النظر فيما قاله العلماء واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، إذ يقوم الاجتهاد على العلم والاستدلال (DEDUCTION)؛ أي (اجتهاده المبني على قوانين العلم والنظر)[5].

تقوم المسؤولية في مجال التفسير عند القدماء على:

أ ـ إبراز حقائق الأمة وقواعد إقامة علوم الدين، وذلك من خلال الاجتهاد وخُلق التنوع في العمل العلمي.

ب ـ البرهنة، من خلال التحليل، على وجاهة الجنس اللغوي للتفسير. وهذا ما ظهر واضحاً في تفسير ابن تيمية الذي يعرض النص القرآني على الحديث، مقصياً التفسير

5 - OP. CIT. p260

بالرأي عند بعض السلف (الأنباري والطبري مثلاً). يضع ابن تيمية تفسيره في إطار احتياجات سياسية واجتماعية لعصره.

يقدم ابن كثير مقاربة علمية واضحة لتفسير كتاب الله، إذ أنها تبرز تميزها داخل التقاليد الإسلامية من خلال بنائها طريقة جديدة لثنائية: سلطة النص المقدس / سلطة المفسر. إنه يملك رؤية موضوعية، ذات منهج تاريخي ساعد على تحديد عدة مفاهيم ارتبطت بممارسة الشعائر الدينية.

أما الطبري فإنه قد حدد البنى المتنوعة المجسدة للجنس اللغوي في مجال التفسير؛ مثل:

أ ـ تجربة الجماعة.

ب ـ أولوية الجانب العقلي والثقافي.

جـ ـ قياس المعنى المدرك بالنسبة للنص.

لقد تجلت إنجازاته الخاصة من خلال:

1 ـ الاستشهاد ببعض آراء السلف.

2 ـ الإحساس بوجود التنوع في مجال التفسير.

3 ـ ربط البعد الشخصي بالفني بالنسبة للجنس اللغوي في التفسير.

إن وجهات النظر التي قدمناها سابقاً تبرز وجود جوانب اختلاف وتشابه[6] بالنسبة لتفسير القصص القرآني. والحقيقة أن العملية تحتاج إلى منهج تحليلي استدلالي عقلاني، ينبع من النص المقدس ببناه اللسانية العاملية وتفاعلاته الاجتماعية والنفسية الوظيفية.

6 ـ ذكر الداعية المسلم عبد الحميد ديدت الذي ينتمي إلى جنوب أفريقيا في كتابه (الاختيار) أن التشابه يقع حول أصل أية قصة واردة في القرآن الكريم، في حين أن الاختلاف يكون عند ورودها في الكتب السماوية الأخرى.

تفسير القرآن الكريم

المدرسة الإخبارية نموذجاً

فرضيات الموضوع:

ما الجوانب الموجّهة لتفسير الحويزي..؟ ما عمل الحور العاملي بالنسبة للمدرسة الإخبارية في التفسير..؟ من هم أعلام هذه المدرسة الذين اعتمد عليهم الحويزي في تفسيره..؟ كيف تعامل المفسرون القدماء مع مضمون كتاب (نور الثقلين)..؟ ما هي أفكار ومحاور هذا الكتاب..؟ كيف يأخذ الحويزي عن الطوسي والقمي..؟ ما علاقة كتاب (الصافي) بالمدرسة الإخبارية على عهد الصفويين..؟

كتاب (نور الثقلين):

ألّف عبد العليم جمعة العروسي الحويزي كتاب تفسير سمّاه (نور الثقلين)، أخذ عنوان الكتاب من الكلمة القرآنية ﴿الثقلان ـ الثقلان﴾[1]، الواردة في عدة مصنفات تفسيرية. إن الجوانب الموجهة لتفسير الحويزي قد وردت في حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسُنتي»[2].

تعني (الثقلان) الإنس والجن. لقد جعل الله منهما ميزانين لا يفترقان إلى يوم اللقاء، فلا يجب نسيانهما لأنهما يشكلان معرفتين ملازمتين للكون[3].

---

1 ـ سورة الرحمن الآية 31.

2 ـ الحديث النبوي برواية الإمام مالك.

3 ـ يوجه الله ـ سبحانه ـ دائماً خطابه في القرآن الكريم إلى الإنس والجن، لكن المفسرين يركزون على الإنس كثيراً نظراً لطبيعتهم وامتلاك معرفة كافية عنهم.

عاصر الحويزي كبار أعلام المدرسة الإخبارية في مجال التفسير، مثل الحور العاملي (ت 1693 مسيحي)، الذي كان فقيهاً وجامعاً للحديث النبوي الشريف، وشاعراً. شارك في تحقيق عدة إنجازات في الفنون والعلوم. كما أن الملأ كانوا يضربون به المثل في الورع والتقوى.

اختلف كثيراً حول وفاة العاملي، ولا يُعرف إلا القليل عن نسبه وانتمائه إلى مدينة صغيرة تقع بمنطقة حويزة قرب الأهواز، في الجنوب الغربي لإيران. قضى بقية حياته بمدينة شيراز. ذكر الحويزي أن الناس كانوا يعتقدون أنه «الإمام المهدي». علّم سيد نعمة الله التوستري وجرت بينه وبين جعفر البحراني عدة مناظرات يوم الجمعة بمسجد شيراز، كان موضوعها يتعلق باستخلاص الأحكام من كتاب الله.

طبع كتاب (نور الثقلين) على نفقة هاشم الرسولي المحلاتي بمدينة قُم عام (1963 مسيحي). اعتمدت هذه الطبعة على ثلاث مخطوطات. كتب المقدمة أحد أعلام الشيعة، وهو السيد محمد الحسين الطباطبائي.

يرى آغا بوزورغ التيهراني صاحب كتاب (الذريعة) أن كتاب (نور الثقلين) يفسر القرآن نقلاً عن أهل البيت. كما أنه يجمع مادته من عدة أعمال كبيرة، مثل (الكافي)، و(تفسير القُمّي) و(الاحتجاج)[4]، وبعض أعمال ابن بابايات، وكتابي (الغيبة) و(المناقب) لابن شهر اشوب.

لقد وضع للإسناد عدة شروط، تبرز صعوبة التقييم «للخبر في مجال التفسير». يرى التيهراني أن الحويزي يبذل مجهودات جيدة لتفسير بعض الآيات الكريمة، التي تحمل تصنيفات معيارية (NORMATIVE) لألفاظ الإعراب والقراءة، مثلما نجد عند الطوسي. يناقض هذا العمل ما ورد حول موضوع (تفسير كنز الحقائق).

وقع إتمام القسم الأول من التفسير على يد أحد كتاب مدرسة المقيمية بمسجد شيراز سنة (1654 مسيحي / 1065 هـ) وتم تفسير القسم الثاني المتعلق بسورة (الكهف) سنة

4 ـ تظهر الاستفادة من كتاب الاحتجاج للطبرسي. كما أنه اعتمد على كتاب (التهذيب) للطوسي.

1655 / 1066. أما القسم الثالث المتعلق بسورة (مريم) وسورة (فاطر)، فقد أنجز سنة 1655 مسيحي / 1066 هـ. لا يتحدث التيهراني عن الجزء الرابع. كتب محسن فيض تحليلاً كبيراً لهذا العمل[5].

ملخص الكتاب:

لا تعد مقدمة الكتاب منهجية بالنسبة لعلم التفسير، مثلما في الأعمال الأخرى المضارعة، لكن هذا الكتاب يضم في مدخله بعض الفوائد، يحدد المؤلف خصوصية التفسير الشيعي، حيث يتبع مقولة «الأمة الوسطى. كما يعالج مسألة «الإمامية» التي تصلح بعض أمور البؤس واليتم والحبس. يعود الحويزي إلى مناقشة هذه القضايا والموضوعات التي ارتبطت عند بعض المفسرين بمسائل نحوية وكلامية ومعجمية[6]. يسعى من وراء هذا إلى إضافة بعض الآراء الجديدة، فيكشف في نفس الوقت عن منابعها وتوجهاتها الصوفية على مستوى التأويل. يخرج هذا التوجه عن الطريقة اللغوية التي ناقش بها البيضاوي (ت1286) الموضوع نفسه، الذي ما زالت به بعض الثغرات والنواقص. يعقب بهذا على من يعارض الإجماع عند الشيعة.

(الطائفة المحقة) لا يهتم في تفسيره بمذهب الاعتقاد على المستوى القانوني والممارسة (العمل)، يلغي هذا التصور عنده عملية إفشاء السر وكشف المضمر. لا يدرج بعض المعدات المادية التي تساعده على معرفة (كيف ينقل وعمن ينقل التفسير المأثور..؟).

يدافع الحويزي في هذا الصدد عن طريقة أخذه لبعض المعدات العلمية عن الطوسي والقمي. والملاحظ أن هذين المفسرين لا يذكران بعض الأحاديث النبوية الشريفة الحاملة لمعاني عدة آيات[7]. يقدم المؤلف بعض الأشعار التي تكاد تجعل منه شاعراً حقيقياً.

5 ـ يظهر أن التيهراني لم يطلع على هذا الجزء.
6 ـ يمزج المفسرون القدماء بين عدة أجناس أدبية ومستويات لغوية، نظراً لطبيعة المنهج والمناخ الفكري الذي كان سائداً آنذاك.
7 ـ APPROACHES TO THE QURAN P. 872.

كما أنه يستشهد بأبيات شعرية أخرى لم تثبت صحتها. لقد بالغ في إثارة فكرة «الوسط الضيق»، مما جعله مهمشاً في محيطه، ذكر حديثاً عن النبي ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ يتعلق بسورة (الفاتحة) و(آية الكرسي)، قال: «عندما أنزل الله سبحانه سورة الفاتحة وآية الكرسي لم يكن بينهما أي ستار أو حجاب»[8].

كتاب (الصافي): يُعد من أهم كتب المولاّ[9] محسن فيض كاشاي، أحد أتباع المولا صدرا (ت1640 مسيحي). ينتمي محسن فيض إلى مدرسة أصفهان في التفسير. روّج لحركة فلسفية عرفت بعده باسم (حكمة الإلهي). أنتج «الكتب الثلاثة»، من الكتب الاثني عشر عند الشيعة. عُرف هذا العمل باسم (الوافي). ناقش المفسر أيضاً بعض «الأحاديث»، التي شكلت مصدر الكتب الأربعة في التقاليد الشيعية. كان هذا المفسر الكبير معلماً لمحمد الباقر المجلسي (ت 1699 مسيحي). ساهم في إنجاز سلسلة أخبار الإمام، المعروفة بـ(بحار الأنوار)، التي تجادل عدة قضايا عند الصوفية وبعض أئمة الشيعة.

يُعد هذا الرجل أحد المفكرين الكبار. ينتمي مثل محسن فيض إلى مدرسة الإخباريين. لم يكن هذا الاتجاه بسيطاً أو سطحياً، حيث أنتج أعمالاً أخرى، تحمل بين طياتها أصالة نقدية وفلسفة كبيرة. لكن السؤال المطروح هنا هو: ما هي المقاييس التي تجعلنا ننسب هذا الرجل إلى المفسرين الإخباريين..؟ هل أنتج ما يضارع أعمالهم من حيث المنهج والعمق..؟

وقع إتمام كتاب (الصافي) عام 1644 مسيحي، على عهد الصفويين. كان الاسم الكامل للكتاب هو (الصافي في تفسير كلام الله الوافي). يضم 12 مقدمة تحدد قواعد ومقتضيات عمل المفسر وافتراضاته. نجد بعض الجوانب مثل:

1) وصية النبي ـ ﷺ ـ المعتمدة على القرآن وتطبيق ذلك.

2) المعارف والعلوم عند أهل البيت.

---

8 ـ لم يدقق جيداً في صحة هذا الحديث وتوثيقه.

9 ـ يعني هذا اللقب: «الفقيه» في كتاب الله، والمعلم له.

كان القرآن ينزل على خاتم الأنبياء، فيستظهره على سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ يكتبه هذا الأخير مفسراً ومؤولاً للناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه. كان محمد ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ قوي الفهم[10]. ناقش المؤلف ثلة من علماء الشيعة، الذين اهتموا بمسألة جمع القرآن أمثال الإمام الباقر، صاحب كتاب (فتح الإمام) «ت 1177 مسيحي / 75هـ»، الذي يرى أن القرآن نزل على محمد ـ ﷺ ـ فجمعه علي والأئمة. تعرض أيضاً لشخصية الصادق (الإمام السادس) «ت1148 مسيحي / 765هـ»، الذي كان يردد كثيراً: «نحن الراسخون في العلم نعرف تأويل القرآن».

3) نزول القرآن مجموعاً على النبي ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ فحفظه أهل البيت والصحابة، وهذا معنى (السر) الرباني.

ذكر الإمام الباقر أن القرآن نزل على أربعة جوانب، هي:

1) جانب يعنينا.
2) جانب يعني أعداءنا.
3) جانب يعني السُنن والأمثال.
4) جانب يعني القوانين والنظم.

يتوفر كتاب الله الكريم على استعمالات لسانية لا يرقى إليها عقل الإنسان. كما أن الأقوال الربانية، المنتشرة في الذكر الحكيم تملك عدة (وجوه) أو دلالات ومقاصد.

10 ـ لقد اعترف بعض الباحثين الغربيين العادلين أن محمداً ـ ﷺ ـ هو أعظم شخصية عرفتها البشرية.

تجويد القرآن الكريم
وعلم الأصوات الحديث

أوليات:

هل يمثل تجويد القرآن الكريم فناً إلقائياً أم علماً صوتياً متميزاً، أم أنه يجمع بين الاثنين؟ معاً ما علاقة المصطلحات التي يوظفها بعلم الأصوات الحديث «تجريدي + وظيفي» هل تطرح القراءات السبع نظرية صوتية اجتماعية؟

المرجعية القديمة:

تعرّف عدة كتب وموسوعات إسلامية التجويد على أنه فن[1] متميز يهتم بقراءة خاتم الكتب السماوية، فهي ترى أن هذا الفن يرتكز على مجموعة من الوسائل المنظمة الموصلة إلى نتيجة معينة تتعلق بهذه القراءة.

والملاحظ أن فن التجويد يقوم على مهارات «موضوعية» في القراءة، تكون مقرونة بمعرفة جيدة بالوسائل والطرق الموظفة من منظور إسلامي خالص في هذا الفن. إنه يمزج بين بعض الطاقات الطبيعية والآليات الاصطناعية، كما أنه يملك نسقاً من المعارف والقواعد الضابطة «لنظرية القراءة» في المجال القرآني. يدفع فن تجويد القرآن المعظم باستمرار إلى تطوير وتحسين «نظرية القراءة الدينية» على مستوى إبداع القدرات والمعارف التي يجسدها مجوّد كتاب الله.

1 ـ دائرة المعارف الإسلامية ج9، دار الشعب ص 232.

كما أنه يفضي به إلى الإتقان والتفنن في قراءة مختلف استعمالات الكلمات القرآنية المطهرة عن طريق إنجاز بعض التقنيات وممارسة بعض القواعد الصوتية الوظيفية. فالتجويد ينطلق بهذا المعنى من تعبير صوتي يحدده المقام القرآني لأنه يتمركز حول قدرات وإنجازات المقرئ صوتياً، بغية الوصول إلى جمالية سامية للذكر الحكيم.

يقرن فن التجويد التوظيف الجمالي للصوت العربي بالإبداع العقلي في مجال «نظرية القراءة الدينية»[2].

يخلق فن تجويد القرآن نشاطاً إبداعياً متنامياً يتمايز بين المهتمين بهذا المجال الديني، بحيث يؤدي إلى انتشار وتعدد وتطور جمالية القراءة، نظراً لكثرة الممارسات الوضعية المجتهدة. يرتبط تطور وإتقان تجويد كتاب الله بالمستوى المعرفي عند المقرئ وبيئته وعصره.

المرجعية الحديثة:

إننا نرى أن تجويد القرآن العظيم يمثل علم أصوات إسلامي، تتحرر مضامينه وظواهره من التأثير الغربي في هذا الصدد. فهو يقوم على مجموعة من المعارف الصوتية الوظيفية ذات الطبيعة التدريبية، التي تخلف قراءة دينية دقيقة وعميقة التحولات. يقدم علم تجويد الذكر الحكيم في هذا المستوى قواعد صوتية وظيفية معروفة[3]. تَنْبَعُ المعارف الصوتية من خبرات وملكات المجودين. إنها معارف هائلة تتعلق بطرق وإمكانيات قراءة القرآن، مما يخلق نتائج ذات فوائد عامة، تهم ممارسة علم التجويد في جميع ديار الإسلام المعاصرة. يمتزج العلم بالفن في تجويد القرآن الكريم، من خلال الإتقان والتفنن في إبراز المعارف الصوتية والدراية بقواعدها الوظيفية. إنه يملك عدة معايير تقييمية جمالية فية محددة وكذلك قواعد صوتية تنظيمية منتهية تساعد على استعمال الأصوات القرآنية في

2 ـ نقصد بها القراءة المعرفية المنهجية، المبرزة لطريقة معينة تحمل شروطاً ومقاييس محددة، المآل القويم الخالق لحكم سليم.

3 ـ تمثل القواعد الصوتية الوظيفية صياغات رياضية صورية. إنها تحدد الصفات المميزة «جهر / همس، ترقيق / تفخيم» بواسطة الخصائص الإيجابية (+) والسلبية (ـ) علاوة على ذكر المخرج.

مواقعها الصحيحة، فهو يجمع بين جمالية الإلقاء وعلمية الممارسة للقواعد الصوتية الوظيفية، مما يجعله يمثل «نظرية صوتية إسلامية خاصة»[4]، في بناء القواعد الصوتية المشكلة لنسق القراءات. لذلك فإنه يقوم على نظام دقيق من القواعد (التفخيم والترقيق، المد والقصر، الإدغام «كبير، صغير»)؛ أي مخارج وصفات بعض الأصوات: النون الساكنة، النون والميم المشددتان[5]. إن علم التجويد يقدم لنا معلومات صوتية قابلة للاختيار. كما أنه يضع القراءات المتنوعة تحت التجربة العلمية. فهو يجعلنا نلاحظ ونصف ونحلل «نظرية القراءة الدينية» من أجل تحقيق تقنية علمية للتجويد. فماذا يشترط هذا العلم اللساني الإسلامي؟ ما هي أقسامه وحدوده وآفاقه؟ يشترط علم تجويد كتاب الله القراءة السليمة الموضوعية للكلمات التي تضمها السور والآيات؛ أي عدم المبالغة أو استعمال قوة زائدة لا ترسمها مخارج وصفات الأصوات العربية «ضعف واضح، لين، إمالة، تفخيم / ترقيق مفتعل عند بعض المقرئين»[6].

تقسم عدة كتب قديمة متخصصة علم التجويد إلى أقسام، هي:

1) الترتيل: هو مرحلة التجويد النابع من قراءة متأنية.

2) الحدر: يمثل القراءة السريعة.

3) التدوير: يقصد به القراءة المتوسطة.

تخلق ممارسة القواعد الصوتية التنظيمية لعلم تجويد الكتاب المصون قراءة علمية موضوعية رائقة الجمالية، بحيث تقصي اللحن والخطأ والضعف والجهل بعلم الأصوات الوظيفي. فلا بد لمجود كتاب الله من دراسة علمية صوتية لمخارج «أماكن النطق» للأصوات ولصفاتها «الجهر / الهمس، التفخيم / الرقة، الغنة / بدون غنة». كما أن عليه أن يطلع على القواعد الصوتية الوظيفية لبعض الظواهر القائمة في القرآن الكريم: الإمالة،

4 ـ تتميز الخصوصية الصوتية في إنجاز الأصوات الحلقية.

5 ـ عبد الله عبد الحميد سويد، أحكام تجويد القرآن الكريم في ضوء علم الأصوات الحديث «دون تاريخ».

6 ـ يصعب على أحد المجودين، إذا كانت به حبسة صوتية أو بعض الأمراض النطقية، أن يتقن هذا العلم.

الوقف، الإدغام لبعض الأصوات. إن علم التجويد يقسم الإدغام الوضعي القائم في كتاب الله الكريم إلى قسمين:

1) إدغام كبير: يتجلى في الأصوات العربية المتحركة كما يرد في سورة المدثر، الآية 42 قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ ، حيث يقع فيها إدغام على مستوى التجويد، فتنطق «ما سلكّم»..

2) إدغام صغير: يحدث في تجويد الذكر الحكيم بتسكين الصوت الأول وتحريك الثاني[7]. قد تحول لام التعريف إلى صوت مماثل وتدغم فيما يليها إذا كانت شمسية، وإذا كانت الهمزة ساكنة لم ترد عن ترخيم فيجوز تحويلها[8] إلى صوت من نوعها. لذلك تصبح الهمزة لينة غير تامة ما لم تسبقها همزة متحركة، وتشبه حركة الهمزة الثانية السكون والواو، إذا كانت مسبوقة بضمة مثال: «أؤنبئكم»، والياء حينما تتقدم عليها كسرة، مثال: «أئذا» والألف إذا ورد قبلها فتحة، مثال: «أأنت». والملاحظ أن بعض المصاحف الشريفة لا تشتمل على وقف دقيق رغم ظهور حدود الآيات.

فالوقف يظهر جلياً عند تمام الآية الكريمة، ولكننا نجد بعض المصاحف الجيدة تحدد مكان عدم الوقف في بعض الآيات، مما يبرز جودتها والتزامها بالقواعد الصوتية العلمية.

قد يقع الوقف الصوتي في تجويد القرآن المقدس عند بعض الكلمات «هن، مم، عم»، فتضاف هاء صامتة. يبرز التحليل الصوتي الحديث أن بعض المجودين ينطقون الياء المتطرفة في «هادَ، باقَ، واق..»، وآخرون يحذفون التنوين والحركة، فيجوّدون «هادْ، باقْ، واقْ..». قد ينتهي الوقف الصوتي في تجويد القرآن بهمزة تسبقها ياء أو واو، فتحول الهمزة إلى صوت مماثِل قريب من نطقها الصوتي، حيث تدغم فيه، فنجود «بري» بدلاً من «بريء». تحدث ظاهرة الإشمام الصوتي أثناء تجويد بعض الآيات المطهرة،

7 ـ دائرة المعارف الإسلامية. مرجع مذكور، ص 240.

8 ـ نؤثر استعمال مفهوم تحويل بدلاً من قلب لأن للتحويل قواعداً صوتية تولد الجديد من العميق المضمر المقدّر.

فتحذف الحركة من الكلمة القرآنية المنتهية بصوت متحرك أو تضعف بالروم.. لا نستطيع استعمال الإشمام الصوتي في الكلمات القرآنية المنتهية بالكسرة. فالروم والإشمام ينجرهما بعض مجودي الذكر الحكيم صحبة وجود الضمة. يطرح علم التجويد من المنظور الصوتي العلمي الرصين ظاهرتين صوتيتين معروفتين هما:

1) ظاهرة الأصوات المستعلية: يرتفع اللسان إلى الحنك «الغار» فتنتج أصوات الخاء، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، القاف، الأمر الذي يبرز تفخيماً صوتياً محدداً بعدة مستويات.

2) ظاهرة الأصوات المستفيلة: يتحرك لسان مجوّد كتاب الله إلى أسفل حنكه، فينتج أصواتاً مرققة.. يفخم المجوّد كل راء مضمومة أو مفتوحة واردة في الآيات الكريمة، ولا يفخم الراء المكسورة إذا وردت في الآيات نفسها. كما أنه يفخم اللام في «الله»، «اللهم» بعد فتحة أو ضمة: «قال الله، قال اللهم».

يتفرد علم تجويد القرآن الكريم بخصوصيته الصوتية الإسلامية التي تميزه عن علم الأصوات الحديث، وذلك عند نطق الأصوات الحلقية الستة: الحاء، الخاء، العين، الغين، الهاء، الهمزة. يقع تحويل النون والتنوين إلى صوت مماثل للصوت الذي يأتي بعدهما، إذا كان هذا الصوت نوناً أو واواً أو ميماً أو راءً أو ياءً بغُنَّة إلا مع الراء.. أما إذا كانت الكلمة القرآنية التي تتأثر بها تنتهي بصوت آخر فلا ينطق المجود بالنون والتنوين على أصلهما فهما يدغمان إدغاماً خفيفاً. يحدث الأمر عينه مع الميم الساكنة التي تدغم في التي بعدها، وتخفف إذا جاءت بعدها ياء متحركة.

التركيب الحديث:

تدفعنا التساؤلات المطروحة في المقدمة وكذلك عنوان المقال الذي ينشر أطرافه بين الدراسات الصوتية العربية القديمة والدراسات الصوتية الغربية الحديثة إلى تركيب حديث وحوصلة جامعة:

1) يساعد الإلمام الجيد بعلم التجويد وعلم الأصوات الحديث على بروز التحليل العقلي الموضوعي والتعليل السليم والإنجاز الدقيق للأصوات. كما أن إتقان هذين العلمين (تجويد + أصوات حديثة) يؤدي إلى تجلي المعنى الدقيق من وراء الكلمات القرآنية، وذلك من خلال نطقها من مخارجها الصحيحة، تبعاً لصفاتها السليمة المعروفة.

2) يتميز الوقف الصوتي في آخر بعض الآيات المطهرة بجمالية إسلامية خاصة. قد نقف على:

أ) سكون خالص «فلا تنهر».

ب) وسكون وروم «الرحيم».

ج) أو سكون وروم وإشمام «الصَّمد».

لذلك فإن علم التجويد يبرز بدقة ممارسات صوتية متينة في إنجاز قراءة بعض السور والآيات الكريمة.

3) نجد عند تجويد كتاب الله شيوع صوت النون الساكنة. قد تكون بالتنوين «الضم، الكسر، الفتح»، أو تكون أصلية في الاسم والفعل والحرف.. لذلك فإن القراءة الصوتية العلمية تبرز قواعد ممارسة النون الساكنة «إظهارها، إدغامها، تحويلها، إخفاؤها». فالإظهار يكون صحبة أصوات الحلق «نون + همزة، نون + هاء، نون + عين، نون +فاء، نون + خاء، نون + غين».

يقع الإدغام في أصوات الميم، النون، الياء، الواو، الراء، اللام. فإن حدث ضم صوتي الياء والواو، فهو إدغام صغير أو ناقص، كما في قوله تعالى في سورة البقرة الآية 8 ﴿مَن يَقُولُ﴾ وفي نفس السورة الآية 107 ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ . وإن ضمت أصوات النون، الميم، اللام، الراء، فهو إدغام كامل أو كبير، حيث يتحد المخرج في اللثة، فتغيب الغنَّة الأنفية.

أما تحويل النون أو «قلبها» ميماً قبل الباء كقوله تعالى في سورة الشمس، الآية 12: ﴿أَنۢبَعَثَ﴾، والنمل 8 ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾. والإخفاء تحجب فيه النون وتبقى صفتها الأنفية، ولا يضعف ما بعدها. يحدث الإخفاء في 15 صوتاً: «التاء، الثاء، الجيم، الدال، الذال،

الزاي، السين، الشين، والصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الفاء، القاف، الكاف». يميز تجويد القرآن بإنجازات دقيقة لأصوات عربية مثل: الميم الساكنة والنون والميم المشددتان ولام «ال» وقواعدها وأحكام نطقها، علاوة على استعمال الثنائيات العصرية كما في «حلقة براغ» مثل «ترقيق / تفخيم، مد، قصر».

القراءات السبع:
الأئمة والظواهر

إشكالات الموضوع:

ما الصفات المميزة لكل قراءة صوتية للقرآن الكريم عن الأخرى؟ ما العلامات الإعرابية التي تلتزم بها كل قراءة؟ ما علاقة أئمة القراءات السبع وإبداعاتهم بأطروحات النحو العربي؟ هل استفاد النحو والصرف العربيان أو طورا بعض الظواهر الصوتية الوظيفية التي حددتها ومارستها القراءات السبع بما فيه الكفاية؟ كيف نستطيع «الاستدلال» على أن الشواهد والمتون النحوية تعد حبلى «بمكون صوتي توليدي إسلامي» متميز ينبع من القراءات؟ ألا يمكن إعادة النظر في المادة النحوية العربية القديمة المعتمدة لبناء مادة جديدة «حدسية» فعلية تداولها المتخاطبون من صحابة رسول الله ﷺ وآل بيته (نهج البلاغة مثلاً) بمنهجية ونظرية معرفية استدلالية بسيطة نابعة من القراءات، مبتعدة عن فكرة «العامل» وفلسفته؟

أئمة القراءات السبع:

ظهرت أولى القراءات السبع بالمدينة المنورة على يد الإمام نافع المدني. توخى من وراء إنجازه الصوتي العلمي ترتيل كتاب الله الكريم بنطق عربي مبين. اصطلح المتخصصون على تسمية القراءات بعلم التجويد، بغية إجادة وإتقان صوتي لترتيل كتاب الله، تجويد يرقى إلى درجة الكمال. لقد سعى أئمة القراءات ورواتها، عند ترتيلهم الذكر

الحكيم، إلى إنجاز كل صوت قرآني من مخرجه النطقي الدقيق بصفاته المميزة المحددة[1]. لذلك فإنه يشترط في كل قرّاء كتاب الله المنتشرين في دنيا الإسلام المعاصرة الابتعاد عن اللكنة وبعض الصفات اللهجية المحلية، حتى يطغى الأداء العربي السليم المشترك في قراءة القرآن الكريم...

لقد رسم مسيرة علم القراءات أو التجويد أئمة ورواة[2]، مثل:

1 ـ نافع المدني: دفعه والده عبد الرحمن بن أبي نعيم إلى مجالس العلم والعلماء. تفوق نافع واشتهر علمه، فأصبح إماماً في القراءات بالمدينة المنورة...

تعددت الروايات عن الإمام نافع المدني، منها:

أ ـ رواية قالون عن الحلواني.

ب ـ رواية قالون عن أبي نشيط.

جـ ـ رواية ورش عن الأصبهاني.

د ـ رواية ورش عن الأزرق.

2 ـ ابن كثير: كان عبد الله بن كثير الداري من أئمة القراءات في مكة المكرمة، ما بين (45 و123هـ).. من أشهر الروايات عنه:

أ ـ رواية البزي عن أبي ربيعة.

ب ـ رواية البزي عن ابن الحبّاب.

جـ ـ رواية قنبل عن ابن مجاهد.

د ـ رواية قنبل عن ابن شبنود.

3 ـ أبو عمرو بن العلاء: (... ت 154هـ) وهو زياد بن العلاء البصري. روى قراءاته أشخاص متعددون، نذكر منهم:

أ ـ رواية الدوري عن أبي الزعراء.

ب ـ رواية الدوري عن ابن فرح.

---

1 ـ ابن الجزري: النشر في القراءات العشر. ج 1. ص21.

2 ـ المرجع نفسه. ص 99 ـ 981.

جـ ـ رواية السوسي عن ابن جرير.

د ـ رواية السوسي عن ابن جمهور.

4 ـ ابن عامر الشامي: ولد هذا الإمام سنة 21هـ كان إماماً للمسلمين بالمسجد الأموي قبل عصر عمر بن عبد العزيز وبعده.

بعد وفاته سنة 118هـ، خلف انتشار قراءاته عدة روايات منها:

أ ـ رواية هشام عن الحلواني.

ب ـ رواية هشام عن الداجوني.

جـ ـ رواية ابن ذكران عن الأخفش.

د ـ رواية ابن ذكران عن الصوري.

5 ـ عاصم الكوفي: عرف عاصم بن أبي النجود الأسدي بأنه شيخ قراء مدينة الكوفة ورئيسهم. توفي سنة 127هـ. شهدت قراءاته لكتاب الله الكريم عدة روايات منها:

أ ـ رواية شعبة عن يحيى.

ب ـ رواية حفص عن عبيد بن الصباح.

جـ ـ رواية حفص عن عمرو بن الصباح.

6 ـ حمزة الكوفي (80هـ ـ 156هـ) علمه أبوه حبيب الزيات الكوفي علم القراءات وعرضه على العلماء، فأصبح إماماً لهذا العلم بعد عاصم. تعددت قراءاته وتعددت رواياتها:

أ ـ رواية خلف عن إدريس.

ب ـ رواية خلاد عن ابن شاذان.

جـ ـ رواية خلاد عن ابن الهيثم.

د ـ رواية خلاد عن الوزان.

هـ ـ رواية خلاد عن الطلحي.

7 ـ الكسائي الكوفي: ينحدر من حمزة بن عبد الله. ربط في معارفه بين النحو

والقراءات. من أشهر الروايات عن قراءاته:

أ ـ رواية أبي الحارث عن محمد بن يحيى.

ب ـ رواية أبي الحارث عن سلمة.

جـ ـ رواية الدوري عن جعفر وأبي عثمان.

د ـ رواية الدوري عن أبي عثمان.

نجد بعض الكتب القديمة والدراسات الحديثة تضيف قراءات أخرى، علاوة على القراءات السبع المشهورة. القراءات هي:

8 ـ قراءات أبي جعفر المدني: هو يزيد بن القعقاع الذي كان أستاذ نافع. شاعت قراءاته بالمدينة المنورة، فأصبح شيخ القراء بها وعمدتهم. عرفت قراءاته بروايتين:

أ ـ رواية ابن وردان عن الفضل.

ب ـ رواية ابن جماز عن الهاشمي.

9 ـ قراءات يعقوب البصري (ت 205). إنه أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي. تربع على إمامة القراءات بمدينة البصرة بعد أبي عمرو بن العلاء. عرفت عن قراءاته روايات هي:

أ ـ رواية رويس عن النخاس.

بـ رواية رويس عن التمار.

جـ ـ رواية روح عن ابن وهب.

10 ـ قراءات خلف العاشر: عرف بأبي محمد خلف بن هشام البزاز الأسدي البغدادي. كان يحفظ رواية حمزة. رويت قراءاته بالآتي:

أ ـ رواية إسحاق عن ابن أبي جعفر.

ب ـ رواية إدريس عن الشطي.

والملاحظ أن بعض هؤلاء القراء والمجودين لكتاب الله اشتهر بإتقانه للنحو والصرف، كما تذكر مجالس البصرة والكوفة وكتب التراجم في اللغة والأدب، علاوة

على أن لبعضهم آراء ومصنفات في النحو والأصوات (الكسائي، أبو عمرو بن العلاء).

الظواهر الصوتية في القراءات السبع:

تبرز لنا القراءات السبع حينما نتصفحها بعمق أن الأصوات العربية موزعة بدقة تبعاً لصفاتها وطبقاتها. فهناك أصوات قوية وأخرى أقوى، وهناك ضعيفة وأضعف ومتوسطة.

تحدد الدراسات الصوتية العربية أن الأصوات القوية هي:

الجيم، الدال، الصاد، الغين، الراء والزاي، أما الأصوات الأقوى فهي: الطاء، الضاد، الظاء، القاف. فالإنجاز الصوتي العربي للأصوات القوية يحد في عشرة أصوات. والأصوات المتوسطة الصفات والإنجاز هي: الهمزة، الألف، الباء، التاء، الخاء، الذال، العين، الكاف... أما الأصوات الضعيفة فهي: السين، الشين، اللام، الواو، الياء، والأصوات العربية الأضعف صفة وإنجازاً تتمثل في: الثاء، الحاء، النون، الميم، الفاء، والهاء.

من أهم الظواهر الصوتية الوظيفية الشائعة في علم القراءات: التفخيم، الإمالة، القلقلة، نطق الهمزة، نطق الألف الساكنة، المد الطبيعي، ألف المد المأتور، همزة لام التعريف، الإدخال، المد المتصل، السكت[3]..

تتجلى ظاهرة التفخيم في القراءات واضحة عند نطق لفظ الجلالة شريطة ألا يسبقها كسر. لذلك يرد تجويد هذا اللفظ المعظم عند الوقف والبسملة مفخماً كما في سورة آل عمران ﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أو قوله تعالى في سورة النساء ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾.

تؤدي طبيعة القراءة أحياناً إلى ترقيق لفظ الجلالة، إذا كان هناك نطق متصل أثناء الإنجاز وكذلك ورود كسر قبل اللفظ المقدس. والمتواضع عليه أنه يجب الوقف عند البسملة، والترقيق الدائم في حالة الدرج. تؤدي الإمالة الصوتية في القراءات السبع إلى تغيير كامل للصوت عن وجهته الطبيعية، بحيث تختفي صفته الصوتية الحقيقية خلال

3 ـ ابن جني، سر صناعة الإعراب-ج1. ص58 ـ 56.

الكتابة والنطق. تقترب الإمالة من نطق الكسرة[4] وتسمى كبرى. هناك إمالة صغرى وهي ما بين الفتح المتوسط. كما نجد إمالة خالصة، وتسمى «التقليل». تقلل كلمة «التوراة» في رواية قالون عن نافع من طريق ابن نشيط.

ترد في القراءات السبع ظاهرة القلقلة الصوتية التي تتجه إلى الضم الخالص عند الوقف أو الدرج، وهو لحن. كما ترد في القراءات السبع للذكر الحكيم الفتحة معبرة عن الألف الساكنة، والكسرة معبرة عن الياء الساكنة، والضمة معبرة عن الواو الساكنة[5].

إن الألف صوت مد ساكن ولين يتبع ما قبله، فهو جامد غير مستقل، مثل: «الضالين ـ محيايْ ـ السماء..» يكون الإدخال بين همزتين منجزتين حركة أصلية. يحدث مد الصلة بين متحركين ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ ينتفي هذا المد عند الانفصال لوجود همزة قطع ﴿عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾. والملاحظ أن أعلام القراءات السبع يستعملون عدة مذاهب صوتية من حيث الإشباع والتوسط والقصر...

والله أعلم.

4ـ المرجع نفسه، ص 72.

5ـ عبد الله سويد أحكام تجويد القرآن الكريم: في ضوء علم الأصوات الحديث. ص 248.



معجم التصوف الإسلامي

في ضوء السيميائيات

أرضية إنطلاق أول:

ما الأَشْكَالُ التي يستخدمها المعجم الرمزي عند أعلام التصوف الإسلامي لسبر أغوار الحقيقة..؟ ما المراحل التي مر بها معجم التصوف في الإسلام..؟ كيف بلور محي الدين ابن عربي الأندلسي «الوحدات المعجمية الرمزية» في مجال التصوف..؟ هل أقام «نسقاً سيميائياً» في هذا الصدد..؟ ما المفاهيم والصفات التي روجها «معجم التصوف» بالنسبة لآل البيت؟.

سمات معجم التصوف الإسلامي:

يسعى أعلام التصوف الإسلامي مهما اختلفت تياراتهم ومشاربهم إلى استخدام «معجم رمزي» يحاول سبر أغوار الحقيقة، بناء على عدة أشكال، مثل:

1 ـ الكشف الصوفي (الذوق).

2 ـ الإدراك العقلي (الاتصال).

يقوم هذا المعجم بتأمل أحوال المسلمين الذين يعبرون الحياة الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية. يبلور هذا المعجم قضايا الزهد وموضوعات العزوف عن مباهج الحياة الزائلة.

شهد «معجم التصوف الإسلامي» ثلاث مراحل:

ـ المرحلة الأولى: تميزت بسيطرة «كلمات معجمية» مثل: «الخوف» من الله كأحد مظاهر التقوى الحقيقية «الموت»، محاسبة النفس، طاعة تامة لله سبحانه، «التشوق» إلى العالم الآخر أو «الخلة».

ـ المرحلة الثانية: عرفت شيوع بعض الأفكار التي تعدُّ بؤرة معجم التصوف الإسلامي مثل: «العشق الإلهي»، «الهيام المطلق»، «الفناء».

ـ المرحلة الثالثة: غلبت عليها مفاهيم ومصطلحات «التوحيد» «التأويل الروحي»، «الحبّ الإلهي»، «الاتحاد، الحلول».

أحد أعلام معجم التصوف الرمزي:

يمثل محي الدين بن عربي الأندلسي 561هـ ـ 1165 مسيحي «تجربة صوفية فريدة من نوعها، إذ أنها بلورت عدة وحدات معجمية رمزية مثل الاتحاد. استفاد في هذا المجال من بعض الأفكار الأفلاطونية(1). كما أنه عالج مفهوم وحدة الوجود، حيث ركز على رمز الكلمة الربانية التي يبثها الله سبحانه لأنبيائه. تملك الذات الإلهية في هذا الصدد عدة تجليات توضحها التجليات النبوية.

يميز ابن عربي عدة جوانب لهذه الذات:

أ ـ جانب الخفاء: يدرك بالارتكاز على فكرة الأحادية، فهو نور محض وخير صالح.

ب ـ جانب الربوبية: يشكل فيه الله سبحانه محور الاتصال بالعالم لأنه الواحد المعبود.

يرى محي الدين بن عربي أن الله يفيض من ذهنه الإلهي ليخلق نماذج أزلية هي عبارة عن أعيان ثابتة. فبروز الخالق سبحانه يتجلى في إبداع أبهى الصور الكونية وأجمل المخلوقات، هو الذات البشرية، أي الكلمة الآدمية أو الإنسان الكامل. تعدُّ المخلوقات

1) ماجد فخري، مختصر تاريخ الفلسفة العربية، ص 110 وما بعدها.

بالنسبة لله ـ جلت قدرته ـ مثل الصورة بالنسبة للمرآة، أو الظل بالنسبة للشخص، والعدد بالنسبة للوحدة[2].

ينتج «المُكوِّن المعجمي» للغة العربية دلالات رمزية صوفية، تميز بين «أنماط» الاستعمال في هذا المجال. لذلك فإن معجم التصوف الإسلامي ينبع من نسق عربي سيميائي متميز[3]. يشيع أيضاً استخدام هذا المعجم في بعض القصائد العربية المعاصرة، وضمن العديد من الأذكار والمدائح والإنشادات الصوفية والطرقية، التي ترمز إلى حب الله والنبي والوطن ومقاومة الاستعمار[4].

تصل النفس البشرية العاقلة عند ابن عربي أسمى حالات الذوق، وهي أسمى درجات التجربة الصوفية، مما يخلق «وحدة الوجود» بأسره، تفقد هذه الذات بعد ذلك وعيها بنفسها فتفارق العالم وتفنى لتصل غاية المطلب البشري والذوق والعيان ووحدة الأشياء.
تطرح هذه الكلمات المعجمية والمفاهيم الدينية والنفسية سؤالاً رئيسياً:

هل يملك «معجم التصوف» عند ابن عربي بُعداً رمزياً أو سيميائياً..؟

إن معجم التصوف الإسلامي يتسم بالعمق والشفافية عند هذا الرجل، رغم أننا نجد عدة ألغاز وشطحات وتطرف عند بعض أنداده. يؤسس عمل ابن عربي في مجال التصوف والزهد «نسقاً سيميائياً»، إذ أنه يوظف عدة علامات لسانية لرسم أجواء عميقة الدلالات على مستوى «العشق»، و«الشوق»، و«الصدّ»، و«الوصال»[5].. يقول المكزون ـ أمير سنجار ـ في هذا الصدد:

علم التصوف ليس يدرك بالإشارة والعبارة

---

2) مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص 451 وما بعدها.

3) ترتبط خصائص وسمات «المعجم الصوفي الرمزي» في الإسلام بطبيعة الموضوعات المطروحة، الباحثة عن الحقيقة، مثل: (التورية الصوفية «الشطحات»، مجاهدات الرقي، صفات الغيب المدرك، الكرامات في الكون).

4) تطرق الأستاذ «علي مصطفى المصراتي» لهذا الموضوع في كتابه عن المرحوم الفنان الليبي عبد الله جمال الدين الميلادي، وعالجناه أيضاً في دراسة أنجزناها عن (معجم المقاومة في الأغنية الليبية).

5) تكثر المرادفات والمقابلات والثروة المعجمية في هذا الصدد. نجدها تنبع من مناجاة الخالق وحب ذاته وعشق صفاته والسعي إليه والفناء في ذلك.

إلا لـــقـــلب مـــخـــلص بـــالـــروح مـــلـــقـــيـــهـــا أمـــارة
فـــجـــلا الـــيـــقـــيـــن الـــظـــنَّ عـــنـــه بـــحـــقـــه وجـــلا غـــبـــاره

يحتفل «معجم التصوف الإسلامي» بذكر آل البيت والحقيقة المحمدية. فسيد الورى ﷺ يمثل النور والهداية السارية ومجمع المحاسن ومنتهاها.

أرضية انطلاق ثان:

ما طرق معالجة «معجم التصوف الإسلامي» لقضايا العالم الأخروي..؟ هل تنتمي نزعة التصوف الإسلامي إلى نسق لساني مجازي خاص..؟ هل يتوفر الفكر الإسلامي على لغة عربية واصفة للخطاب الصوفي..؟ كيف تتجلى القدرة اللسانية الواصفة عند أعلام التصوف..؟ ما علاقة هذا المعجم بالترادف والجناس..؟

نحو «نسق لساني صوفي»

يستخدم معجم التصوف الإسلامي كلمات أو مفاهيم ترتبط بقضايا العالم الأخروي. يستغل من أجل ذلك عدة صيغ وصور مجازية. إنه يختصر أو يختزل بهذا العمل «معجم الحقيقة» العابرة، أو العالم الدنيوي.

يهتم أعلام التصوف والزهد في الإسلام ببناء «نَسَقٍ لساني صوفي» يدرس العلاقات اللغوية العربية التابعة لمعجم صوفي يحمل بُعداً منطقياً طبيعياًخاصاً بهذا النسق.

يؤسس «النسق اللساني الصوفي» نموذجاً عربياً سيميائياً مجازياً. لذلك فإن المعجم المنتمي إلى هذا النسق يعانق أثناء وصفة لموضوعات (Themes) الفكر الإسلامي، عدة مضامين رمزية.

يظهر «معجم التصوف في الإسلام» متماثلاً (Assimi Lation) في عدة خطابات عربية متخصصة.

إنه مجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي تعالج قضايا الزهد. لا يتعلق الأمر هنا

بالعلاقات السيميائية الصوفية، ولكن بعناصرها الدلالية المتنوعة. يدفع «النسق السيميائي العربي المجازي» معجم التصوف الإسلامي إلى احتواء عدة «طبقات لسانية» توظف السيميائيات والمنطق.

يشترط في هذا المعجم التوفر على عناصر اللغة العربية الطبيعية وعناصر خاصة به، نسميها «المتغيرات العليا» التي تعبّر عن العلاقات القائمة بين المصطلحات واللغات الأخرى. يطرح هذا التوجه سؤالاً مهماً: هل يتوفر الفكر الصوفي الإسلامي على المقابلة التالية:

لغة عربية واصفة للتصوف ـ خطاب عربي صوفي واصف.

إننا نرى أن الأمر ما يزال غير دقيق بالنسبة للوضع الحالي الذي توجد عليه الدراسات والبحوث الإسلامية [6] لذلك فإنه من الملائم استعمال المصطلح العام «لغة عربية صوفية واصفة» (Metalanguage)، تتحدث عن كل قضايا الزهد باختلاف اتجاهاته ومشاربه. من الطبيعي أن تتأسس هذه اللغة حالياً على نسق لساني عربي طبيعي أو صوري.

يطرح هذا الاقتراح الجديد أيضاً سؤالاً آخر: هل يملك أعلام التصوف في الإسلام «قدرة لسانية عربية واصفة» لقضاياهم..؟

يؤدي وجود هذه «القدرة اللسانية» إلى إنتاج جمل عربية مجازية مقبولة، تسرد وتحدد عدة وقائع خاصة بالدنيا والآخرة.

إن تحديد «معجم التصوف الإسلامي» يؤدي إلى معرفة عما إذا كنا نواجه «قدرة مثالية للمتكلم المتصوف» أم لا. لا يعرف أي متكلم متصوف واقعي مسلم، المعجم الكامل للغة العربية. يختلف هذا بين رجل متصوف وآخر، بكيمة كبيرة (عدد كلمات معجم التصوف) وكيفية خاصة (نوع الكلمات الصوفية المستخدمة). إن عدن تكافؤ (القدرات Competences) على مستوى ترميز «لغة التصوف» وفكها يثير قلقاً كبيراً بالنسبة للاتصال، مما يجعل العملية عبارة عن لغو.

6 ـ يخضع هذا الأمر لفوضى تحديد المفاهيم والتشرذم المعرفي، والنقل السطحي عن الآخر وذيوع صيت «التنظير المرعب» في هذا المجال.

يفرض وصف هذا المعجم اللجوء إلى «القدرة المثالية»، حيث نستطيع مواجهة الحالات الفردية الواقعية. إنه يتألف من تصنيف يقابل بين علامات لسانية وعلامات واصفة. كما يوازي أيضاً بين جوانب مقابلة تحمل مدلولات من صنف: العالم الخارجي، اللغة العربية.

يرمز المعجم هنا إلى أشياء محددة، من خلال توظيفه لكلمات أو مفاهيم خاصة. قد تدل هذه الوحدات اللسانية على نفسها فقط. تعدُّ كلمات هذا المعجم، ذات أبعاد اجتماعية واصفة.

يضم المعجم المدروس إذن كلمات عربية واصفة وكلمات دالة ذاتياً، إذ أنها تحمل جناساً (Homonym) أو ترادفاً (Synonym) بالنسبة لعدة كلمات أخرى (عشق، وجد، هيام، حلول، الذات الإلهية، التجليات النبوية...).

إننا نحدد «معجم التصوف الإسلامي على أنه مجموعة من المفاهيم والمصطلحات الواصفة لقضايا وموضوعات الفكر الإسلامي المتخصص في هذا المجال. كما أنه قد يضم كلمات أو مصطلحات متعددة المعاني (Polysemy)، حسب السياق والموضوع.

ينبع هذا المعجم من نسق سيميائي متفتح، إذ أنه يمثل لغة عربية واصفة تدل على لغة عربية طبيعية[7].

كما أنه يحمل سمات وخصائص تجعل علاماته الواصفة تدل على علامات أخرى.

تعالج كلمات «معجم التصوف الإسلامي» كل ما هو لغوي. يمكن تصنيف كلمات هذا المعجم عن طريق إعادة كتابة تحدد «الكثافة المعجمية» على مستوى «الدليل اللساني»، لكن إعادة هذه الكتابة ما تزال في البداية. تملك كلمات «معجم التصوف الإسلامي» عدة انعكاسات بالنسبة للمعنى الرمزي. فالكلمة تتوفر على محيط تركيبي وتواتر محدد، كما أن معانيها تحمل عدة رُتب ودرجات. والله أعلم..

7 - يمثل مفهوم «العربية الواصفة» في هذا المجال خادماً أميناً يساعد «اللغة العربية الطبيعية» التي تقوم وظيفتها على خدمة الفكر الإسلامي من خلال تفسير وتوضيح قضاياه. يقدم المفهوم الذي نعرضه أدوات تدفع الباحث إلى استخدام جيد للغة العربية الطبيعية. إنها «لغة داخل لغة» على مستوى التقعيد.

تفسير القرآن الكريم
وعلم الدلالة المعاصر

منطلقات المناظرة الدلالية:

هل كان كل المفسرين يستعملون منهجاً واحداً لمقاربة كتاب الله الكريم؟. كيف يمكن الموازنة بين الأبعاد الاستقرائية الوصفية عند بعض المفسرين والأبعاد الاستدلالية عند بعضهم الآخر؟ هل تجوز «المقارنة» بين نص إلهي منزّل، ونصوص موضوعة بشرية؟ ما الدوافع التي جعلت بعض المفسرين المسلمين يضيفون بعض الجوانب السردية إلى قصة سيدنا إبراهيم وأبيه آزر، المتميزة الخصوصية والأهداف في الذكر الحكيم؟[1].

موازنات لسانية بين المفسرين:

إن موازنة لسانية دلالية بين الرازي والقرطبي تبرز لنا أن هذا الأخير يعتمد على النص القرآني المقدس وتضمين رأي الجماعة وتجربتها المتنوعة، أما الرازي فيرتكز على الرؤية العقلية والثقافية المجسدة في الذكر الحكيم. إنه لا يقر مثابرة أخرى لتقييم النص القرآني، باعتباره معنى مدركاً، فهو يترك المعنى غير المدرك والفردي جانباً.

يوظف الرازي قناعاته العقلية والثقافية بكل عمق، أما القرطبي فإنه يجسد تجربة أصيلة بالنسبة للمفسر المسلم، المعتمد على رأي الجماعة والمقارنة بالنص المخطوط

1 ـ تعرضنا لهذا المفهوم ضمن مقالة سابقة، صحيفة (الدعوة الإسلامية) عدد: 703.

(SCRIPT). يبرز لنا علم الدلالة المعاصر أن التفسيرين السالفين (تفسير الرازي + القرطبي) يتحركان داخل تقاليد أدبية عربية وأشكال لسانية واحدة لكنهما يشكلان مجالين متفردين، هما:

1 ـ الرمزية في التفسير.

2 ـ تقاليد «سُلْطَةِ النص» عند الجماعة.

يمثل ابن كثير اتجاهاً وتطوراً متميزاً في علم التفسير: إذ أنه عالج القضايا المطروحة سالفاً بصور مختلفة، وقضى على بؤرة التوتر فيها.

ساعدت الدراسات الدلالية على «مقارنة الأسلوب القرآني المعجز بـ "TORSO"[2] مما أبرز:

أ ـ قوة القدرة (COMPETENCE)[3] الموجودة بالقرآن.

ب ـ تعاقب وتسلسل التفاصيل بالذكر الحكيم.

جـ ـ وجود حكاية ألسنية لا تقلد ولا تغتصب[4].

كما وقعت «مقارنة» الأسلوب القرآني بالرسوم والكتابات الصينية، حيث اتضح:

أ ـ تفجر وهيمنة الأسلوب القرآني على مظاهر الكون.

ب ـ التناسق وسد المنافذ والثغرات في اللغة ـ المعجزة.

جـ ـ تجلي الخيال الحر الرفيع في «البلاغة البيانية».

د ـ استقلال البنى والصور الأسلوبية القرآنية وتميزها.

هـ ـ مشاركة البنى السردية (NARRATIVE STRUCTURES)[5]، في المادة الخام للخيال الحر.

---

2 ـ يمثل أحد النماذج الفنية الحاملة لبلاغة ذات أساليب معروفة، يضبطها نسق كأنه البدن أو الجذع المبتور الأعضاء، المقصوص الرأس، الفاقد المركز. إنه نسق فني من دون أطراف. لذلك فإن «مقارنته» بالأسلوب القرآني تضم غلطين فادحين:

1 ـ مقارنة أسلوب منزل معجز بآخر بشري موضوع.

2 ـ مضارعة أسلوب رباني تام بأسلوب بشري مهشم الأطراف.

3 ـ هي المعرفة اللسانية التي يوظف بها العقل الإلهي اللغة في الذكر الحكيم، خالقاً جملاً لا حصر لها بقواعد محدودة.

4 ـ هو ما يعبر عنه اللسانيون بـ (TRANSGRESSION)

5 ـ ينظر العدد 740 من جريدة الدعوة الإسلامية.

تساعدنا الدراسة الدلالية المعاصرة على مواجهة تعدد التفاصيل وتنوعها بالنسبة لتفاسير قصة سيدنا إبراهيم ووالده وآلهة قومه، فهي تضم:

1 ـ تفاصيل متعددة تقابلية (CONTRASTIVES).

2 ـ تنوع الدال والمدلول.

3 ـ الاتفاق / العشوائية «والتهافت».

4 ـ اعتماد الرواية الشفهية والمكتوبة[6].

يقدم كل مفسر هذه القصة من وجهة نظر معينة تحدد الموضوع الذي يروم معالجته.

والواقع أن هذه القصة تجسد في القرآن الكريم مجادلة تقنية لا ترتبط بالمناظرات الاستدلالية، حيث يظهر السرد القرآني برهانين خاصين:

1 ـ التدريب على معرفة الله سبحانه من خلال النجوم.

2 ـ وجود وثنية قائمة بين الناس.

يرى ابن كثير أن قصص الأنبياء تحدد المكان الجغرافي للعديد من الرسالات ومسقط رأس ومحل سكنى عدة أنبياء ورسل.

ترد قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ ووصف سلوكه في عدة مواضيع من الذكر الحكيم، فهو خليل، حنيف، مؤمن. يذكر ابن كثير أن هذه القصة[7] قد ضربت كمثل على كذب بني إسرائيل. فما أسباب هذا السلوك عند ابن كثير، الذي يريد صناعة برهان حول كذب بني إسرائيل من خلال هذا السرد الوارد في القصة؟.

إننا نصادف هنا قضية أخرى تعمق الجدل في علم الكلام. والحقيقة أن أصول القصة مختلفة، الأمر الذي يعيد النظر في تفسير ابن كثير من داخل التخصص اللساني.

يقدم الطبري الجانب السردي التام للقصة، معتمداً على ابن إسحاق، حيث يقدم اعتراضه المبلور في القول الآتي (من غير أهل الرواية). فما المعايير العلمية لأهل الرواية؟

---

6 ـ لا نرى أنه من الضروري إضافة جوانب خارجية سردية إلى تفسير (القصص القرآني). فالذكر الحكيم مكتف بنفسه، شامل لغيره.

7 ـ ألّف ابن كثير كتاباً مشهوراً يحمل عنوان (قصص الأنبياء). كما نجد عبد الوهاب النجار ينجز مؤلفاً يحمل نفس العنوان.

كما نجد رفضاً للقصة عند ابن عباس، لأن هناك طريقة متميزة في السنَّة والسرد والقصة واختيار الأنبياء.

يذكر الطبري أن المعنى التام للنص الكريم يبرز من خلال الاستنتاج (الصواب في ذلك الإقرار بخبر الله الذي أخبر به إنهاء الاعتراض)[8].

يبرز لنا علم الدلالة المعاصر أن بعض المهتمين بعلم الكلام يرصدون براهين الطبري حول القصة، فيستخلصون أن:

1 ـ المعارضين يقيدون حرية الله سبحانه في اختيار أنبيائه.

2 ـ إبراهيم كان الأول والسبَّاق البالغ في تحمل المسؤولية (وهو بالغ).

3 ـ المعارضين يجهلون تقاليد سرد الرواية وفهمها، بغية إبراز صلاحية النبي، وهي عملية ترتبط بفهم معاني القرآن.

لقد نمت وتطورت تقاليد التفسير بالنسبة لهذه النقط.

يظهر تفسير الثعلبي غير ملائم بأكمله فيما يخص قصة سيدنا إبراهيم، رغم وضوحها داخل (قصص الأنبياء) وبروز خطها الموضوعي.. يعدد الثعلبي خصوصية عمله من خلال:

1 ـ عرض قصص الأنبياء.

2 ـ احترام تقاليد السرد.

3 ـ كثرة الاستشهادات والمصادر.

4 ـ تنوع التفاصيل وثراؤها.

5 ـ قلة التقيد بمذاهب علم الكلام، المسيطرة على التفسير.

يتجلى تأثير الثعلبي قوياً. فهو يرى أن القرآن يقرأ على ضوء البناء القصصي ولا يفهم بدونه.

---

8 ـ يراجع في هذا الموضوع كتاب:

APPROACHES TO THE QURAN. ED. G. R. HAWTING AND ABDUL KADER A. SHAREEF. ROVTLEDGE. LONDON AND NEW YORK. 1993.

تحليل الخطاب الديني

دينامية القول القرآني

المحل في البحث اللساني: كيف نحدد مكونات وعناصر الخطاب الديني الذي يضمه القرآن الكريم؟ ما القواعد الخاصة التي تضبط القول القرآني؟ ما مظاهر الدينامية القولية، التي تنتج قولاً ربانياً متسقاً ومنسجماً؟. كيف تهيمن بعض العناصر القولية البانية للنص القرآني المطهر وتتوافر داخل سور وآيات بعينيها، خالقة رموزاً لغوية تتجلى بصورة مباغتة؟. لماذا تحاول بعض العناصر القولية «نسخ» عناصر أخرى داخل بعض السور والآيات دون غيرها؟.

إننا نعدُّ تحليل الخطاب الديني الباني للقرآن الكريم فرعاً من اللسانيات الإسلامية العامة التي نروم بناءها في مشاريعنا المتخصصة. فهو قطاع لساني يسعى إلى تحديد القواعد التي تضبط إنتاج الأقوال المتّسعة، المتجاوزة لحدود الجملة القرآنية الواحدة.

يهدف تحليل الخطاب الديني الذي يرسم معالمه الدقيقة كتاب الله إلى رصد لساني استنباطي للغة العربية المقعّدة، والمدبّجة للسور والآيات. كما أنه يحدد مختلف استعمالاتها التداولية في الحياة الدينية اليومية القائمة على ممارسة الشعائر عند المتكلمين المسلمين.

يبدع تحليل الخطاب الديني القرآني معالجة أدبية ولسانية جديدة للنصوص تتجاوز

مجرد تفكيك القول القرآني إلى عناصره البانية، حيث يدرج شخصية الفاعل الديني المتحدث ومواقفه من النص (الظواهر الانفعالية، الذاتية، الفردية...)[1].

نحاول خلال توظيفنا للمكونات القولية المرصوصة داخل الخطاب الديني القرآني إنهاء سيطرة الجملة وتحاليلها على اللسانيات الإسلامية، لنخلق دراسة جديدة تهتم بالأقوال القرآنية المتسقة على مستوى العناصر الداخلية والسياق الخارجي: أي كل ما يتصل بالنظرية القولية والقول، بحيث تتجه الدراسة اللسانية الدينية إلى تحليل المتواليات والترابطات الجميلة المبثوثة في السور والآيات القرآنية كافة، بغية استنباط القواعد اللغوية المتحكمة في توالي المدلولات داخل النص القرآني.

لقد اتجه تحليل الخطاب الديني[2] في الدراسات اللسانية القديمة إلى الاهتمام ببعض الجوانب، مثل:

1 - تحليل المحتوى أو المضمون.

2 - التحليل المعجمي (الكلمات المتقابلة، المترابطة، التي تملك نفس الموقع المتواتر...).

3 - تحليل التوزيعات الفرعية لبعض عناصر القول الديني المتسق (فئات الأقوال المتعادلة)[3].

نروم من وراء طرحنا لتحليل الخطاب الديني كمشروع لساني يقارب الذكر الحكيم تحديد العلاقة بين الفاعل الديني المتحدث في النص المقدس وعمليات الإنتاج للقول اللغوي، أو علاقة النص القرآني بمختلف فئات المسلمين الذين يوجه إليهم دون تمييز أو مواربة. كما أننا نقصد أيضاً من وراء إرساء مكونات هذا القطاع الجديد توجيه البحث اللساني الديني إلى تحديد طرق معالجة النص القرآني وتفكيكه لغوياً حسب السياق

1 - لا يمكن إحصاء مواقف الفاعل الديني المتحدث في القرآن. نذكر منها: موقف موسى من العبد الصالح، موقف يونس من إلقائه في البحر، موقف إبراهيم من آلهة قومه، موقف الشيطان من السجود لآدم.

2 - هناك أنماط في تحليل الخطاب تعددت حولها الدوريات، منها:

تحليل الخطاب السياسي، تحليل الخطاب الدعائي، تحليل الخطاب التربوي، تحليل الخطاب القانوني...

3 - انظر زليج هاريس في كتابه، تحليل الخطاب 1952 ف.

والعناصر وأسباب النزول لكي نؤسس تقعيداً جديداً استنباطياً «للنحو القرآني العام، نحو القول الذاتي، نحو الشذوذ...» الذي يحكم النص الوقفي.

يشترط أيضاً في هذا القطاع الاهتمام بالبنى العميقة[4] (المقدرة أو المضمرة) التي لا يفصح عنها القول القرآني الكريم في بعض الأحيان.

يحتاج الباحث اللساني المسلم الذي يتعامل مع تحليل الخطاب الديني القرآني إلى امتلاك مرجعية دينية منسجمة مع العالم الخارجي.

الدينامية القولية في القرآن:

يتجه العمل اللساني في هذا المستوى إلى تحديد الطريقة الفردية التي يوظف بها الفاعل الديني المتحدث اللغة العربية المنسقة للخطاب القرآني.

فالقول اللغوي في كتاب الله هو إذن نتيجة للحدث اللساني الذي ينجزه الفاعل الديني المتحدث في النص.

تمثل الدينامية القولية المسيرة للنص القرآني الكريم حصيلة العوامل والأحداث التي تؤدي إلى إنتاج القول الديني، خالفة وظائف اتصالية معينة[5].

والحقيقة أن الدراسة اللسانية في مجال تحليل الخطاب الديني القرآني ترصد عدة معالم، مثل:

1 – الفاعل الديني ـ المتحدث: موقفه من قوله الذي يدبجه في بعض السور والآيات، بحيث يتبنى سلوكاً لغوياً يجعله يتمظهر داخل خطابه الديني بواسطة ضمائر خاصة، أو ينتفي منه نهائياً عن طريق ضمائر أخرى تلتصق بالغياب، مما يحدث مسافة قولية بينه وبين النص.

2 – المرسل الديني: الذي يصرحُ قولياً من خلال عملية الاتصال اللغوي بأنه يشارك

---

4 – انظر ناحوم تشومسكي حول ثنائية: بنية سطحية / بنية عميقة.

5 – من عناصر الاتصال الديني: الباث الديني – النص القرآني – السياق الإسلامي – الكتاب المنزل وتلاوته – لغته العربية – المتلقي الديني.

في الخطاب القرآني أو يرفض ذلك (مؤشرات وصيغ الفضاء الزمكاني، الوضوح والغموض من خلال علاقته بالمرسل إليه...).

3 - الدينامية القولية: تتجلى عن طريق الضغط القولي الذي يحدد نشاط وحركية العلاقة القائمة بين (الباث الديني والمتلقي لإرساليته). يصبح تحليل الخطاب الديني في هذا المستوى محاولة لوضع المتلقي للنص القرآني المطهر أو العالم الخارجي أمام ثروة ومستغلقات وآفاق القول الديني المجيد.

يتفاعل القول القرآني المقدس في كل السور والآيات بشكل متسق ومنسجم[6]. يحدد هذا القول في بعض السور الحوارية (يوسف، إبراهيم، نوح، آل عمران، القصص...) على أنه سلسلة مُتّسقة من الكلمات العربية التي بثّها مرسل ديني واحد أو جماعة دينية موازية.

تتعدد أنواع القول في القرآن الكريم. فقد تكون له وظيفة دينية، اجتماعية، اقتصادية، علمية، سياسية.

التركيب العام للمشروع:

يسعى مشروع تحليل الخطاب الديني القرآني تجاوز دراسة النصوص الدينية المرتبطة بممارسات مدرسية معيارية وصفية، وذلك لخُلق بُعد تحليلي استدلالي.

كما أنه يتجاوز أيضاً بعض الاستعمالات الدلالية والتركيبية البنيوية القديمة للبحث عن توفير قواعد منتهية تحكم النص الوقفي. علاوة على أن هذا المشروع الإسلامي ينصّب نفسه للإجابة عن أسئلة البداية.

والحقيقة أننا قد اختزلنا علاقة هذا المشروع الديني بالمجال اللساني.

فقد غابت علاقة بعض المفاهيم اللسانية (الخطاب، القول...) بالمجال القرآني. كما أننا لم نحدد تفرد منابعها. لذلك فإننا ندفع ثمن موضوعية المعلومات اللسانية التي نقدمها

6 - دراستان للكاتب: الاتساق النصي في (الطائر الذي نسي ريشه) للقاص، زياد علي، وتحليل الخطاب القصصي عند عبد الله القويري.

لكل فئات المسلمين، عن طريق ارتياد الصعب الذي نحاول به خَلق ممارسات لسانية قرآنية منتظرة.

يخلق تحليل الخطاب الديني قراءات نسبية محدودة لكتاب الله. وهي قراءات تبرز ظاهرة المشاركة والالتحام بين النص القرآني والمنهج اللساني.

يطرح هذا المشروع المقدَّم سؤالاً صريحاً: هل هذه الطريقة اللسانية لمعالجة النص القرآني توصلنا إلى الهدف المطلوب؟ يخلق النص القرآني مقاومة خاصة بالمستوى الدلالي وبعد الموضوع الديني، حيث يظهر الانفصال بين المنهج اللساني وممارسة الفاعل الديني المتحدث، أو المرسل الديني أثناء تواصله اللغوي تعود هذه المقاومة أو الانفصال المنهجي إلى تكوين «المتن» القرآني، المتجلي من خلال:

1 - أن تكوين الموضوع الديني في القرآن الكريم لا يخضع لما يدور داخل عقل الباحث اللساني في مجال تحليل الخطاب.

2 - أن الباحث اللساني الخطابي يقابل مصادفة الموضوع الديني القرآني كمعطى طبيعي. وهذا يقصيه عن الالتزام والمسؤولية.

لا تتضح في المشروع المقدم طريقة النفاذ إلى الموضوع القرآني. كما أنه لم يحدد ما ينتمي إلى النص المقدس وما لا ينتمي إليه.

يثير المشروع المقدم عدة أسئلة، مثل: ما نوع الاشتغال اللساني الذي يناسب نصاً منزلاً؟ بماذا يفيد مفهوم تحليل الخطاب الديني بكل مكوناته في تكوين الموضوع القرآني؟ هل النص القرآني يمثل موضوعاً لسانياً منظماً قابلاً للتحليل؟.

يشترط في قطاع تحليل الخطاب النظر إلى معالجة النص القرآني من خلال أسباب النزول والسياق العام للشريعة الإسلامية الشاملة. فالخطابات القرآنية في السور والآيات الكريمة تحيل إلى بعضها بشكل متسق ومنسجم.

تبقى بعض الأسئلة التي أثارها مشروعنا دون جواب. إن موقفنا الحالي لا يتعلق ببناء مشروع لسانيات إسلامية عامة، وإنما يقتصر على ربط تحليل الخطاب القرآني بأسباب

النزول وسياقات الدين الإسلامي الحنيف. كما أن هذا القطاع اللساني يهتم بتحديد بعض العناصر القولية النظرية التي تساعدنا على معرفة العمليات الخطابية داخل النص القرآني[7].

والواقع أن تحليل الخطاب الديني الذي ركز هنا على القول القرآني المتجاوز لحدود الجملة الواحدة في كتاب الله العزيز يمكن أن نعدّه نوعاً من الاشتغال اللساني الفعلي. ولكن هذا الاشتغال قد لا يكون لسانياً برمته.

لا يمكن تحديد اشتغال تحليل الخطاب الديني في مجال القرآن الكريم إلاّ بالرجوع إلى الآليات والمفاعلات التي تضبط موقع المتنافسين داخل النص الكريم.

يمكن «توليد» العديد من الخطابات المضمرة داخل النص القرآني، من خلال أسباب النزول وسياقات الشريعة الإسلامية، مما يخلق تنوعات دلالية وأسلوبية - بلاغية رائدة ترتبط بالعمليات الخطابية المطهرة.

يُصرُّ تحليل الخطاب الديني على أنه من المستحيل معالجة النص القرآني كمتوالية جملية أو أقوال منغلقة على نفسها بنيوياً، ومحدودة الإنجاز والإبداع اللغوي. إنه نص تواصلي إعجازي متنامي وقفي، لا يحد بعمليات لسانية تحليلية وضعية. فهو يخلق إثارة جلية ساحرة تشكل عملية «اتصال لغوي روحي» تؤدي إلى رسوخ العلاقة بين الباحث اللساني والموضوع القرآني.

7 - إنها عملية اجتهادية ترتبط بنظرية معرفية محددة.

السياق والتفاعل النصي في القرآن الكريم

عتبات الموضوع:

كيف يتم السياق والتفاعل النصي دورتهما داخل كتاب الله العزيز؟ ما علاقة هذين المفهومين المنظمين للنصوص القرآنية بالتحليل اللساني الحديث؟ كيف تعامل المفسرون القدامى مع السياق والتفاعل النصي في القرآن؟ هل استطاعت ترجمات معاني كتاب الله إلى اللغات الغربية إبراز المفهومين المذكورين؟ كيف تتجلى هاتان العمليتان اللسانيتانِ داخل سورة (الرحمن)؟.

ما علاقة الأسلوب القرآني بالسياق والتفاعل النصي في إبراز المعاني المرادة؟ كيف يبرز هذان المفهومان من خلال تكرار بعض الكلمات داخل سورة (الرحمن)؟.. ما علاقة السياق والتفاعل النصي بنظرية توالي العناصر وتكرارها في الكتاب المنزل؟.

دورة التفاعل النصي في كتاب الله:

يبرز التفاعل النصي البنيوي لسور وآيات القرآن الكريم من خلال اتساقها وإحالاتها على بعضها. يذكر السيوطي أن أحد عوامل تميز الأسلوب القرآني يتمثل في بعض الأقوال الربانية المجسدة للتفاعلات الداخلية للنص المقدس، وهو ما يعرف بالاختصاص. يتجلى هذا المكون اللساني من خلال قوله سبحانه:

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾

الذي يحيل على﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾، وكذلك﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ الذي يحيل بدوره على ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

إن كل مرتل لكتاب الله العزيز يعانق هذه الأقوال باستمرار ولكن المثال الصارخ لما نقصده يظهر جلياً داخل سورة الفاتحة، التي يرددها كل مسلم حتى اليوم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ ، مما يوضح الإحالة على ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾. كما نجد صدى لهذه التفاعلات النصية المتعددة من خلال سورة الرحمن ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

السياق والتفاعل النصي:
سورة (الرحمن) نموذجاً

يمثل السياق ظاهرة مهمة في تحديد معنى النص القرآني أو أي نص آخر، علاوة على أنها أصبحت مسألة معروفة جداً في مجال اللسانيات الحديثة، لا يرقى إليها الشك بتاتاً.

يحدد الأسلوب القرآني المقدس أهمية التفاعلات النصية في فهم الخطاب الإلهي، فلا يجب القفز عليها أو تجاهلها.. إن السياق القرآني يقوم على تعابير وألفاظ معينة، تجرّ وراءها تفاعلات نصيّة، توظف المقارنة بين عدة قوانين وأنظمة، تقع داخل «البؤرة القرآنية» التي تتوخى إثارة اهتمامنا حول خصوصية النص المنزل، مما يجعله يستحق فعلاً أولوية على كل مقاربة تروم فهم وتفسير الكتاب العزيز.

إن تفسير سورة (الرحمن) على ضوء ظاهرة السياق والتفاعل النصي له هدف هو استخلاص نتائج تزكي هذه المقاربة اللسانية.

يرى هارون بن موسى أن كلمة (الرحمن) قد استعملت على شكل استعارة لإبراز عدة تجليات: (رَحِمَ) بمعنى (الخير). كما وظف استعارة أخرى في إطار المجاز المرسل، أي علاقة السبب بالمسبب.

تضم سورة (الرحمن) 78 آية قصيرة تستهل باسم الرحمن، وهو تمييز لهذا الجزء من القرآن بهذه البداية. كما أن الآية الأولى تعدُّ متفردة، وملخصة للجزء كله، علاوة على تحكمها فيما تبقى من المعدات اللغوية مجملة على المستوى الصوتي والدلالي. يتردد اسم الرحمن على شكل موضوع يعقبه محمول[1] وكل الجمل المتعاقبة تخضع لكلمة (الرحمن) ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ .

يبرز السياق لهذا الجزء من كتاب الله رحمة الخالق سبحانه ونعمته ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. فأثر المعنى (للرحمن) يفهم من خلال الوقف في نهاية الكلمة. تظهر الوقفات الصوتية الوظيفية المتناغمة: في الآيات (1 – 6): القرآن، البيان، بحسبان، يسجدان.

﴿وَخَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾

يرجع العديد من المفسرين الآية (6) إلى أن النجم يقصد به أحد الأجرام السماوية، وفي الآية (5) مقابلة بين كوكبين (الشمس/ القمر).

كما نجد تكراراً عميق المعنى في الآيات (7 – 21)

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۞ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۞ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۞ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾

إن تكرار بعض الكلمات في هذه السورة يثبت ويدعم السياق: فكلمة (الميزان) تتناغم دلالياً مع كلمة (بحسبان).

يظهر التفاعل النصي في سورة (الرحمن) من خلال تعلق بعض الكلمات ببعضها ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ ، مما يجعل السياق مناسباً ورائعاً في كل آية. يتجلى التفاعل النصي أحياناً من خلال تكرار بعض الأرقام داخل عدد سور وآيات، كما يورد ذلك الرازي حول قيمة رقم (3) و(10). فهذه العملية تبني التفاعل النصي في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

1 – القرآن الكريم.

يمثل السياق والتفاعل النصي لازمة موسيقية ذات إيقاع جميل، يتكرر مع هذه الآية الأخيرة 31 مرة، مما يشكل لب النصّ القرآني في هذا الجزء من الذكر الحكيم، ويخلق دلالة شاملة خاصة عند مقارنتها بالآية 17 ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ . تظهر الموازنة ـ القياس ـ بين اتجاهين متناظرين بدقة.

نجد أيضاً في الآيات المطهرة (19 ـ 23)

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ❁ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

يبرز الاتساق والانسجام في التركيب والمعنى بين لقاء البحرين ولؤلؤهما ومرجانهما. كما أن عدة كلمات واردة في هذه الآيات (المرجان) تحيل على مقتضى الحال (المقام). وقد ورد ذكر ذلك عند امرئ القيس، حيث جسد علاقة البحر بنوع السمك، مما يجعل السياق منتقى.

نجد عدة مفسرين لا يربطون دلالة بعض الكلمات في سورة (الرحمن) بالمقام، بل يقفون عند التفسير المعجمي، النافي للسياق. لكن بعض المفسرين قد أثاروا قضية علمية مهمة، إنطلاقاً من الآية (22): يستخرج المرجان والأحجار الكريمة من الماء المالح كما يذكر ذلك أبو عبيدة[2]. فهو يُقر بأن المرجان يستخلص من الماء المالح، ولا علاقة له بالماء البارد، أو الاثنين معاً. كما يرى بعضهم أنه «يستخرج من أحدهما» وليس (منهما)، إذ تفسر بعض العبارات القرآنية المشابهة لهذه الصيغة «منهما». يركز أبو عبيدة على أقوال مماثلة (أكلت خبزاً وحليباً). تكون الممارسة (بالأكل ثم الشراب)، حيث إن العطف يحذف الفعل الثاني (شربت). فالحكمة الربانية قائمة في أن اللازمة القرآنية المتكررة بُعداً دلالياً عميقاً، فهي لم تظهر في مستهل السورة ولم تتجاوز الرقم المذكور، ولم تذكر اعتباطاً في موقع آخر.

لم يدرس المفسرون سبب تأخر ذكر بعض اللوازم المكررة، ولم يصفوا استعمالها اللساني الفعال في تغيير النص القرآني.

2 - أبو عبيدة. مجاز القرآن. ج 2 - ص 153.

يناقش فانسبورغ تكرار بعض اللوازم في القرآن المعظم، فيقارنها بالمزمور 136 ليلاحظ أن وظيفة اللازمات في الذكر الحكيم تهدف إلى استخلاص شكل وصيغة علمية معينة، لكن المفسرين لم يصفوها بمنهجية علمية من خلال استعمالها وتكرارها في سورة (الرحمن).

يركز التحليل اللساني الحديث السياق والتفاعل النصي على اللوازم القرآنية المكررة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ باعتبارها شكلاً لسانياً متميزاً يستخلص بنية قرآنية متفردة. يظهر لنا في الآيتين (17 ـ 18):

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

تكرار كلمتي (المشرق والمغرب) لإقامة معادلة رياضية متوازية، تبرز ملك الله سبحانه المنظم الأبعاد الجغرافية. فالتكرار يحدد المقاسات بإحكام ويبرز قوة الخالق في الفضاء.

كما أنه يظهر كثافة البنية اللسانية وضغطها، نظراً لمتطلبات السياق، فهو يتجاوز الكلمات الغامضة والإكثار من المضائر العائدة.

يدخلنا التحليل اللساني السالف في تفسير أبي عبيدة: فالقراءة السيئة النية (المغرضة) قد تخلق أخطاء جسيمة في التفسير. لذلك فإن القول (يخرج من أحدهما) لا يجب تأويله بشكل علمي على أنه استعمال سطحي أو مجرد تقنية أسلوبية بسيطة. يواجه ابن قتيبة الموضوع نفسه، فيرى أن (المرجان) يستخلص من الماء المالح فقط، وينتقد أحد الأبيات الشعرية لأبي ذؤيب الهذلي الذي يذكر بأن (المرجان) يوجد بالماء البارد. يسعى ابن قتيبة إلى تبرير ذلك من خلال مقتضى السياق، محللاً ما يحدث بشط العرب.

لكن السؤال المطروح هو: من لا يعرف أن اللؤلؤ أو المرجان لا يستخلص من الماء البارد؟ الماء البارد يوجد بمنطقة ذات حرارة معينة، مثلما في شمال الكرة الأرضية ووسط أوروبا (بافاريا) والصين. تحتاج هذه الآية [3] إلى تأويل علمي مدعم بالأدلة والإثباتات.

---

3 – سورة الرحمن، الآية 22.

فالجنتان تفهمان على أنهما مفرد (الآية 46 – 60)، وهما ترتبطان بفئتين من المؤمنين. إذاً هناك وصفان لهذا الموضوع كما يرى الزمخشري.

إن السياق (المقام القرآني) يجب أن يواجه من خلال معرفة وممارسة دينية عميقة لكي لا يحلل مفهوم الجَنَّتْينِ بصورة تنافي أحكام ومقاصد القرآن الكريم والشريعة الإسلامية كاملة.

هناك تقاليد ترتبط بالقوانين البنيوية الأصلية التي نزلت بها الشريعة الإسلامية لكنها عرضت عند الفراء من خلال التناظر، الذي يجعل بعض السياقات تتشابه، أو ذات بعد دلالي وحيد. يترجم فانسبورغ معنى (من دونهما) بقوله (بجوارهما). وهي نظرية غربية يصعب معها رؤية السياق القرآني والمرجع الإسلامي داخل ترجمة غربية من هذا القبيل[4]. كما يرى فانسبورغ أن السياق في الآية 60: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ يجب أن يتبع التقاليد الإسلامية ليخلق مرتكزاً للاستعمال القرآني وتداوله. واقتراحه لإمكانية توظيف سياق ديني أولمصر لاهوتي يقوم أساساً على معالجته لتكرار بعض الكلمات وأبعادها الصوتية والدلالية. يختزل تفسير فانسبورغ الجِنان (البساتين) إلى واحدة. أما المصادر العربية فهي تقدم نتائج متعددة لهذا الموضوع من خلال عدة أسس ومرتكزات.

تمثل الآية 78﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ حلاً للمقدمات فالعوامل التي توضع من خلال 31 (فبأي) تظهر كمخططات ومتواليات خاصة لمواضيع تتطور داخل سياق هذا الجزء من كتاب الله العزيز. فالآية﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لم تتكرر في جزء قرآني آخر بنفس الكمية والكيفية. إنها تحمل (سياق موقف) دقيق، يحدد بعض الصفات والنعوت مثلما في الآية 78.

4 – ينظر كتاب:

APPROACHES TO THE QURAN ED. G. R. HAWTING AND ABDUL-KADER ASHAREEF. ROUTLEDGE LONDON AND NEW YORK 1993.

القرآن الكريم
والتفسير العلمي للصواعق

الأطروحات:

ما السور القرآنية التي تعالج الصواعق معالجة علمية؟ ما علاقتها بقصة سيدنا صالح وقوم ثمود؟ كيف تعامل المفسرون القدماء مع مفهوم «الصواعق» المطروح بكتاب الله؟ ما علاقة الصواعق الوارد ذكرها في التنزيل بالبرق والكهرباء؟ ما الهدف من تقديم هذه الظاهرة العلمية بالصورة التي عرضت بها في عدة سور ربانية؟.

*** النموذج العلمي للصواعق في القرآن:**

ورد التحليل العلمي للصواعق في قصة سيدنا صالح التي يذكرها خاتم الكتب السماوية تسع مرات، في سورة الأعراف الآيات: 73، 79، وفي سورة هود الآيات: 61، 68 وفي سورة الشعراء الآية: 142. يتحدث عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» عن هذه القصة فيقسمها إلى عدة فروع:

1 ـ نسَبُ صالح وثمود.

2 ـ مساكن ثمود.

3 ـ دين أهل ثمود.

4 ـ نَاقَةُ صالح ـ عليه السلام ـ وعقرها.

5 ـ الهلاك بالصاعقة.

التفسير العلمي للصواعق في قصة صالح (عليه السلام):

إن الصاعقة التي أهلك بها الله ـ سبحانه ـ قوم صالح هي عملية إفراغ كهربائي يحدث بين طاقتين كهربائيتين مختلفتين. فالرب جلت قدرته يقدم لنا أعظم تحليل علمي بطرق ومعادلات رياضية يندر مثيلها في التعريف العلمي للصواعق عند علماء الطبيعة، وهو أمر يبرز المضمون العلمي الرصين لكتاب الله الكريم.

رأي المفسرين القدماء:

يذكر العديد من المفسرين أن الله ـ سبحانه ـ قد وضع ملكاً مكلفاً بالرعد يسوقه من بلد إلى بلد كما يسوق الراعي إبله، فكلما خالف أوامره يصيح فيزجره . فالذي نسمعه على شكل قعقعة هو صوت الملك، وهو مكلف أيضاً بالسحاب، وقد وقع الاختلاف في حجم الملك[1].

ذكر الزمخشري أن الرعد يسمع من السحاب وكأن أجرام السحاب تضطرب وتنتفض إذا حدتها الريح فينتج الصوت عند ذلك.

ذهب بعض المفسرين إلى معالجة مضمون القول الرباني في التنزيل بأنه سبحانه قد ضرب الملك الذي هو الرعد للسحاب بمخراق من حديد، وجاء عن مجاهد أن الله جلت قدرته قد وكل ملكاً بالسحاب فالرعد قعقعة صوته والبرق سوطه[2].

قال الزمخشري في تفسيره ان الصاعقة قصفة من رعد تنقض معها شقة من نار. وذكر بعضهم أنها تقدح من السحاب إذا اصطكت أجرامه وهي نار هادئة «لا تمر بشيء إلا أتت عليه إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود متى سقطت على نخلة عالية أحرقت أعاليها»[3]. والملاحظ أن صاحب «مناهج الفكر ومناهج العبر» يذكر أمراً عجيباً وهو أن الصاعقة قد تحرق ما في كيس معين ولا تحرق الكيس وإن احترق فإنما يحترق باحتراق ما ذاب وسال

1 ـ ينظر كتاب (قصص الأنبياء) لصاحبه عبد الوهاب النجار.

2 ـ المرجع نفسه ـ ص 78.

3 ـ المرجع نفسه ـ ص 79.

بداخله. كما أنها إذا سقطت على جبل أو حجر جعلته كلساً ونفذت إليه، وإذا سقطت في بحر غاصت فيه وأحرقت ما تصادفه على ضفافه، وقد تلاقي عند انطفائها فوق الأرض برداً ويُبساً، فتتكون منها أشكال حجرية أو حديدية أو نحاسية، وربما طبعت الحديد سيوفاً لا تقاوم.

ذكر القرطبي في (أحكامه) «الصواعق تجمع عدة أنواع»، وقال ابن عباس وآخرون: «إذا اشتد غضب الرعد الذي هو الملك طارت النار من فيه على شكل صواعق. وجاء عن الخليل قوله: «الصواعق هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد يكون أحياناً قطعة من نار تحرق ما أتت عليه»، وقال أبو زيد: «الصاعقة نار من السماء في رعد شديد»[4].

والواقع أن القرآن الكريم يعرض علينا مسألة علمية طبقت بكل حذافيرها على قوم ثمود. إنه يطرح عمل الصاعقة والبرق والرعد من منظور علمي، حيث أصبحنا نشاهد اليوم عدة إنجازات تحدد خواص الكهرباء، وابتكارات ظهرت فوق جل المؤسسات والمصَانع والعمارات الشاهقة، تسمى «مانعات الصواعق». خلق الله ـ سبحانه ـ مظاهر اشتغال الصاعقة في قصة سيدنا صالح، فهي تعمل على شكل:

1 ـ رجفة.

2 ـ طاغية.

3 ـ صيحة.

إن التحليل الرباني المقدس دقيق علمياً، إذ أن هناك صوتاً قوياً يرافق حدوث الصاعقة، وقد ترتج الأرض لحدوثها وكأنه زلزال، مما يجعلها تطغى على أماكن مجاورة. إن الصاعقة تمثل علمياً عملية إفراغ كهربائي يحدث بين طاقتين كهربائيتين متخالفتين، على مستوى السلب والإيجاب. «فإذا دنا جسم محمل بكهرباء موجبة من جسم محمل بكهرباء سالبة اتحدت الكهربائيتان لما بينهما من التعاشق فيحصل عن ذلك البرد الشديد ثم الرعد بسبب

4 ـ تراجع السور والآيات القرآنية التي تتعرض للصواعق، إذ أن تفاسيرها تطرح عدة معجزات ربانية بشأن هذه الظاهرة الطبيعية العلمية.

اضطراب الهواء وتدافع أجزائه في كل مكان الإفراغ وذلك هو الصيحة»[5]. إن اقتراب سحابة مكهوبة من طاقة موجبة فوق الأرض ينجز كهرباء بالتأثير فترتبط الطاقة السالبة الارضية بالطاقة الموجبة الموجودة بالسحاب ليقع الإفراغ أو الاتحاد في معين موجود فوق الأرض. تؤدي هذه القوة إلى صهر المعادن وحرق الشجر أو الإنسان وتفتيت الصخر أو المباني. فكمية أو مبلغ التدمير مرتبط بكمية أو مبلغ الإفراغ داخل الطاقة الكهربائية، وهذا ما يخلق الرجفة وهولها. إن الإفراغ الذي يحدث بين طاقين كهربائيتين متخالفتين، من حيث السلب والإيجاب ينتج في البداية البرق ثم الرعد ثم المطر. هنا يطرح سؤال علمي وجيه: لماذا تختلف الطاقتان الكهربائيتان الموجودتان في السحاب؟.

والجواب هو أن الجو مكهرب بالطاقة الموجبة ومشحون بها. فالأرض مكهربة بطاقة سالبة. كما أنَّ السحاب ينشأ في أعلى مكان من الجو، مما يجعل طاقته سالبة. لذلك فإن اقتراب سحابتين من بعضهما يخلق بمقتضى «ناموس الكهرباء» في كل طاقة اتحاداً مع الأخرى فيحدث التفاعل، أما التقاء الطاقة الموجبة بمثيلتها فإنه يؤدي إلى الابتعاد. والحقيقة العلمية هي أن هلاك قوم ثمود قد كان بقدرة الله ـ سبحانه ـ التي توجه الظواهر الكونية المنتجة للصواعق.. فالله تعالى يقدم لنا، من خلال عرضه لقصص الأنبياء في خاتم الكتب السماوية، عدة جوانب:

1 ـ العبرة والموعظة من الظواهر الكونية.

2 ـ بيان قوانين الله ـ سبحانه ـ المطبقة بين ظهراني خلقه.

3 ـ هداية الرسل والأنبياء للأمم.

4 ـ سرد حوادث الأمم ووقائع التاريخ.

5 ـ إبراز تغيرات الفضاء «الزمان + المكان».

6 ـ تحديد بعض الأعمال حسب الفضاء والأشخاص.

7 ـ مستويات الإيمان والتسليم برسالات التوحيد.

5 ـ عبد الوهاب النجار ـ مرجع مذكور ـ ص 89.

تحديات القرآن الكريم
النشوء والارتقاء نموذجاً

أرض الإنطلاق:

ما مكونات وعناصر العلوم «الدقيقة» الموجودة داخل الكتاب الحكيم؟. هل استطاعت التفاسير الإسلامية القديمة بناء نظرية دلالية تحليلية استدلالية Deductive تبلور كل علوم القرآن؟. كيف يفند التنزيل أراء داروين بشأن النشوء والارتقاء المتعلق بخلق الإنسان؟. ما عناصر النظرية العلمية بالنسبة لخلق الإنسان في «سورة المؤمنون»؟. لماذا أهمل داروين البناء العقلي القرآني لتفسير خلق الإنسان واعتمد على جانب وضعي غير ثابت؟.

العلوم الدقيقة في القرآن الكريم:

إن الكتابة عن «العلوم الدقيقة» التي يتعرض إليها كتاب الله الكريم بالتحليل والتفسير، تعد عملية صعبة، نظراً للإشكالات الآتية:

أ ـ النص القرآني وقفي وليس وضعياً.

ب ـ لغته ربانية معجزة.

ج ـ انعدام نظرية دلالية في التفسير.

د ـ ضعف بعض القراءات وإنجرافاتها التأويلية.

لذلك فإن الكتابة عن العلوم الواردة في الذكر الحكيم تحتاج إلى نظرية تحليلية عقلية، تعتمد على بناء استدلالي يوظف تقنية دقيقة تبتعد عن الأطروحات الوضعية في هذا المجال.

كما أنها تتطلب أيضاً تفقهاً وتبحراً في مجالَي التفسير والعلوم «الدقيقة» لكي تقدم النظريات العلمية الوِقفية بكل دقة من خلال:

1 ـ تحديد قضايا العلوم «الدقيقة» الموجودة بالتنزيل.

2 ـ الإيمان بالطرق الربانية الخاصة بالمعالجة.

3 ـ معرفة المفاهيم القرآنية العلمية.

يضفي الكتاب الكريم على «علومه الدقيقة» محتوى وعمقاً يحتاجان إلى علماء ومفسرين جيدين وملتزمين، الأمر الذي يفرض توفير مؤسسات ومراكز بحث علمي متخصص، إذ لا يفيد الاعتماد على أفراد معدودين من دون مناظرات ومشاورات.

فالأفراد ضعفاء خطاءون. كما أنهم قد يغيرون أفكارهم ومبادءهم تبعاً لتقلبات وجهات النظر التي أصبحت خاضعة لوسائل الإعلام والمذاهب والانتماءات ومحتويات شبكة الأنترنيت.

علاوة على أن الفرد الباحث يختار أحياناً بعض المواضيع الخاصة المؤقتة لخدمة نزعات وتيارات معينة، مما يجعل «التفسير العلمي» لكتاب الله يوجه لصالح بعض السلطات والطبقات، بالإضافة إلى مجابهة سلطة النص المقدس لسلطة المفسر الخطاء[1].

إن «العلوم القرآنية الدقيقة» هي التي تؤسس وتطور كل الاكتشافات المرتبطة بالبحث العلمي، إذ أن مضمونها رباني أزلي شامل، في حين أن مضمون العلوم «الدقيقة الوضعية» هو مجرد ظواهر عرضية دنيوية[2].

---

1 ـ تنظر صحيفة الدعوة الإسلامية. العدد 706 بشأن هذا الموضوع.

2 ـ تأتي العلوم الوضعية دائماً ناقصة، في أن العلوم الربانية الوقفية شاملة ولا تنفذ كما أنها تتعرض لجوانب غيبيةوما وراء العلم PARA SCIENCE.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يقدم إلينا كل يوم أجوبة قاطعة وهادئة عن أسئلتنا البشرية المحدودة، مما يبرز عظمة القدر في العلم والسيطرة والشمولية، وروعة التفسير والتدبير لمظاهر الكون والخلق.

خلق الإنسان:

يقدم الله ـ سبحانه ـ في سور وآيات كتابه العزيز «مشروع الخلق السرمدي المعجز بالنسبة للإنسان» الذي يبدأ من النطفة فالعلقة، فالمضغة. يقول جلّت قدرته في هذا الصدد:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (3)،

مما يبرز الخلق الرباني المعجز من خلال:

1 ـ الخلق الأول من الطين.

2 ـ بث النطفة في الأرحام.

3 ـ تحويل النطفة علقة.

4 ـ تحويل العلقة مضغة.

5 ـ تحويل المضغة عظاماً.

6 ـ كساء العظام باللحم.

7 ـ تسيير النمو والتطور البشري.

فـ«دورة الحياة» كاملة ينشئها الخالق المبدع بصور مقدسة لا تدركها إنجازات وابتكارات العلوم المتخصصة في هذا المجال.

يقدم الله للبشر غير المتخصص منظراً عاماً عن خلق الإنسان ويعرض للعلماء

---

3 ـ سورة المؤمنون، الآيات، 12 ـ 14.

المتخصصين ما يفحمهم ويجعلهم يؤمنون بعظمة الخالق، فيما يتعلق بـ«النظام العصبي وخلايا الدماغ والأرحام»، وهي أمور تبقى محيرة بالنسبة للعلوم الوضعية. كما أن طرق الخلق وعرض القضايا تبرز عجز التيارات العلمية وقصر نظرها ومحدودية معرفتها، مما يدفعها إلى الإيمان بعظمة وقوة الخالق في النشوء والارتقاء بالنسبة للإنسان. فالإنسان الباحث في هذا المجال يبقى «قليل العلم» وخطّاء أمام القدرة الربانية المنزهة الشاملة.

لا تستطيع العلوم «الوضعية» المتخصصة خلق «المادة البشرية» أو كسوها لحماً. فالرب هو الذي يوجدها من عدم، في حين أن «العلوم البشرية» تعتمد على «مواد أولية».

إن «العلوم القرآنية الرائدة» متعددة الجوانب وآفاقها سرمدية «دنيوية وأخروية»، إذ أنها تسمح في كل عصر «بإنشاء خلق آخر» وبقراءات متطورة تقدم وسائل إيضاح معاصرة متنامية.

يسعى القرآن الكريم إلى إقناع البشر من خلال تقديمه للعديد من «المقاربات الربانية» العضوية المرتبطة بالدراسة النفسية «للمواضيع العقلية»، مبرزاً أنها تملك مرتكزاً أوجده الرب ـ سبحانه ـ على مستوى الأعصاب وهو مرتكز جزيئي، لا تدركه «العلوم البشرية».

إن دراسة النوع البشري من خلال القرآن الكريم تقودنا إلى إقصاء مرتكزات داروين في مجال «النشوء والإرتقاء» لكي نحدد الخلق الرباني للمرتكزات الجنسية الطبيعية للإنسان.

يعتمد القرآن المعظم في عرضه لخلق الإنسان على التحليل العلمي القائم على العقل، إذ يقدم عدة براهين ويبسط عدة حجج في كثير من السور والآيات، وهو أمر لا يمكن أن ينافي أو يعارض العقل.

والملاحظ أن كتاب الله يسير وفق «نظرية علمية في الخلق»، وهي نظرية تدعم ما يثبته العلم المتطور والعقل البشري المتعطش إلى المعرفة عبر العصور فـ«نظرية خلق الإنسان» المبثوثة في كتاب الله هي المنبع والحق والعقل الراجح.

يذكر جرجي زيدان أن أحد العلماء الأمريكان طلب منه في فترة ما قبل الحرب العالمية

الأولى أن يجمع أجوبة علماء الأزهر وغيرهم عن أسئلة كان قد وجهها إليهم بشأن رأيهم في نظرية «داروين» ومدى إقبالهم عليها.

يحلل عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء هذا الخبر قائلاً: «وجوابي يتلخص في أن علماء الإسلام إنما يأخذون عقيدتهم عن العقل - يوجبون ما أوجبه ويحلون ما أحله ويجيزون ما أجازه. ومن صريح القرآن فيما لا يعارض العقل ولا يصادمه».

قد يخالف القرآن الكريم ما يجزم به العقل البشري المحدود، مما يدفع إلى تأويله ليطابق هذا العقل. فالقرآن شامل وأزلي.

يتحدى الكتاب المعظم آراء داروين في مجال نشوء وارتقاء الإنسان وأصل نوعه. فالله - سبحانه - خلق آدم وزوجته حواء من النوع الإنساني، وآدم أنشأه الخالق تعالى من سلالة من طين ونفخ فيه من روحه وجعله بشراً. وهو قول رباني مقدس لا يحتاج إلى تأويل. علاوة على أن الروح لا يستطيع أي عالم أو تقنية علمية مهما تطورت إيجادها وبعثها عن طريق النفخ؛ إذ أنها من أمر الله.

يقول تعالى في هذا الصدد:

﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[4].

فلا يعرف داروين وأنداده كيف تخلق الروح وكيف تدخل الجسد وتزهق منه، وعلمه بهذا الموضوع قليل ومحدود.

فالقول أن الإنسان ليس أصلاً بنفسه، بل هو جنس أو نوع مشتق من غيره يحتاج أدلة علمية عقلية تستند إلى مظاهر الكون بما فيها السماء والأرض وتغيرات الخلائق.

لذلك فإنه من الأجدر أن يعود داروين إلى النظريات العلمية الرصينة المبثوثة بين طيات «كتب التوحيد» المنزلة وتفاسيرها الملتزمة.

والواضح من خلال تقصّينا لخلق الإنسان حسب ما ورد في كتاب الله العزيز أن

4 - سورة الإسراء، الآية 85.

«نظرية» داروين تحتاج بناءً عقلياً تحليلياً استدلالياً، إذ أن ضعفها في هذا الجانب يجعلها غير قطعية، فهي تحمل الباطل من كل النواحي...

من المسلم به أن العلماء والباحثين يبذلون جهوداً متواصلة لفهم «نظرية خلق الإنسان»، من خلال الكتب المنزلة، ولكننا لا نقبل منهم ما لا يقوم البرهان القاطع على صحته في هذه الكتب المقدسة ولا يطابق العقل.

فليس من المعقول أن نتخلى عن الاعتقاد القوي الذي نتعلمه من القرآن الكريم بشأن خلق الإنسان لنسير مصفقين وراء نظرية وضعية غير ثابتة.

وسيلة الاتصال

بين سليمان والنمل والهدهد

أنجز الإنسان، منذ سالف العصور أصواتاً متنوعة، وما زال يطور استدلالاته العقلية، ويضيف إليها الجديد عن طريق أعضائه النطقية « ARTICULATORY بغية الاتصال بأنداده والتفاهم معهم. لا تمثل اللغة المنطوقة الوسيلة الوحيدة للاتصال والتفاهم بين أفراد المجتمع، بل هنالك عدة طرق أخرى؛ مثل: الإشارات الضوئية المتبادلة بين السفن البحرية، وإشارات (مورس) لنقل الرسائل والأخبار.

نجد بعض المخلوقات الحية (حشرات، طيور) تتخاطب وتتبادل المعلومات فيما بينها عن طريق إفراز بعض المواد الكيميائية، أو إرسال بعض الذبذبات والتموجات الصوتية. فالحشرات والطيور تتبادل رسائل هوائية آنية سريعة، تحكمها شفرة محددة. تكون استجابة المخاطب لها سريعة داخل مكان جغرافي مرسوم الحدود. فماذا نقصد بدراستنا لوسيلة الاتصال بين سيدنا سليمان والنمل والهدهد؟. إننا نسعى إلى رصد الطريقة العلمية الموظفة في هذا الاتصال لأن الدراسة لهذه الظواهر والقضايا (نطقية، هوائية، سمعية) تجعل الإنسان يزداد إيماناً بعظمة الخالق، وحب الاطلاع والمعرفة، ونضج المدارك. تبقى هذه الأعماق مذهلة كثيرة الأسرار، لأن المعرفة الإنسانية ليس لها حدود، فهي تأسر العقول الواعية.

سليمان والنملة:

تملك النملة العديد من المركبات العضوية، مما يساعد التغيرات الحاصلة في جزئياتها على بث الرسائل واستقبالها. فالخلايا الحية الموجودة في جسم النملة هي التي حققت الاتصال مع سليمان ـ عليه السلام ـ عن طريق الجزئيات المذكورة التي تضم زخماً من المعلومات غير المرئية بواسطة القرون التي تستعمل أطرافها على شكل مطرقة، أما بطنها فهو مليء بالجيوب والأكياس والحجرات لخزن مختلف المواد الكيميائية. فالملاقط تقطع وتقص وتلتقط. إنها تمثل شبكة ضخمة من الأنابيب الداخلية، التي تساعدها على بث الرسائل بواسطة الروائح. لا تملك النملة سيالاً عصبياً كهربائياً، ولكنه سيال كيميائي.

لم يتعرض عدة مفسرين ـ حسب ظننا ـ إلى وسيلة الاتصال التي وظفتها النملة للتفاهم مع سليمان ـ عليه السلام ـ لقد ركزوا تفاسيرهم على جوانب المعجزة الربانية المرتكزة على الكلام بين النملة وسيدنا سليمان، وهو أمر مسلم به، ولم يطرحوا نظرية فيزيائية أو كيميائية أو لسانية صوتية لتحليل وسيلة الاتصال بين سليمان والنملة.

تملك جماعات النمل وسيلة للاتصال تختلف عن تلك التي نجدها عند الإنسان. إنها ليست إشارات أو علامات لسانية، تنجزها داخل قراها ووديانها، أو ألفاظ ومعاني تفرزها من صلب خلاياها وأعماق سراديبها المظلمة.

ماذا فعلت النملة عندما عبر سليمان وجنوده وادي النمل؟. لقد أفرزت بعض المواد الكيميائية المتعلقة بهذه المناسبة المعينة (محاورة سليمان عليه السلام)، وذلك بغية التأثير عليه، والتحكم في الموقف (عبور الجنود، جلجلة العتاد الحربي، اللغط المرتفع..). أفرزت النملة وسيلة للاتصال مع سليمان تسمى (مواد الأثر)، التي تنجز في سياق الموقف (Context of Situation)، ببراعة متناهية تروم تحديد اتجاهات النمل التابع، وعلاقاته بسير جنود سليمان، ومكان عبورهم وحركات مرورهم. كما أن النملة قد حققت إنجازها لوسيلة الاتصال مع سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ، من خلال خلقها لـ(مواد

الإنذار) الموجهة لزميلاتها، فهي قد شعرت بخطر وقع أقدام الجنود التي تريد (تحطيم النمل دون شعور)، فحذرتهم آمرة ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ النمل 18.

والنتيجة هي أن نظام الاتصال الذي قام بين سليمان ـ عليه السلام ـ والنملة، قد حدث عن طريق إفراز هذه الأخيرة لبعض المواد الكيميائية الاتصالية المتطايرة. إنها مواد لا تتأثر بظلام القرى والوديان أو (دهاليز) الخلايا الداخلية.

ما نوع النملة التي اتصلت بنبي الله سليمان؟

صادف سيدنا سليمان وجنوده النملة الشغالة، التي تقوم بأعمال مهمة متنوعة، فهي التي تلقي الأوامر على الآخرين وتستقبل المعلومات. إنها قد استعملت (شفرة كيميائية) خاصة للتخاطب مع نبي الله سليمان.

حدث الاتصال بينهما عن طريق تحريك النملة لبعض غددها، الحاملة لنظام متطور، يشمل جسدها بأكمله. إن هذه الغدد هي التي نقلت عملية الاتصال وتبادلت المعلومات مع نبي الله سليمان.

كان سليمان على علم بهذه المواد الكيميائية ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾، النمل 19، أي أنه يعرف (منطق) هذه الحيوانات والحشرات، المتمثل في معرفة وسائل اتصالها. إن النملة الشغالة قد فهمت قصده، فأنجزت اتصالاً تحكمه طريقة محددة تخصها دون غيرها، أي أنها لا تستطيع الاتصال بمواد كيميائية لا تخص نوعها، ولا تتبع خطاً أو (أثراً) ليس من تسطير فصيلتها.

مواد الإنذار:

تحركت النملة الشغالة بهمة وحذر خارج القرية أو الوادي ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ النمل 18، فواجهت نبي الله سليمان بإفرازها مادة كيميائية من نوع خاص، زرعتها في البيئة المحيطة التي انتشر فيها جنود سليمان. إنها مادة تنذر بخطر (التحطيم)

لجميع أفراد النمل التابع، الذي يتحتم عليه الانصياع للأمر (الدخول إلى المساكن). كيف جابهت النملة الشغالة الخوف من (تحطيم جنود سليمان)؟ لقد حركت هرمونات جسمها وأخرجتها فأدخلتها في جسم النمل المحيط بموقع الجنود (وادي النمل). ساعدت هذه الهرمونات رفيقاتها القريبات منها على الصراخ أو البكاء مجتمعة، إذ الإحساس بالتحطيم متبادلاً ومشتركاً بين النمل.

ما الأجهزة العلمية المعملية التي تساعدنا على رصد بعض أجزاء وسيلة الاتصال عند النمل في هذا الموقف المحدد؟ يمكن معرفة بعض جزئيات الاتصال عند النمل بواسطة التحليل الطيفي والكروماتوغرافي.

لقد أثبتت التجارب العلمية صحة رأينا، حيث إن النملة عندما تشعر بالخطر يصيبها الانزعاج من مؤثر خارجي (سليمان وجنوده)، فتخرج المادة الكيميائية المفرزة من إحدى الغدد الموجودة في سمها. هذه الغدة تختلف عن تلك التي تفرز مادة (الأثر).

والواقع أن وسيلة الاتصال بين النملة الشغالة وسيدنا سليمان قد نجمت، أثناء خوفها منه، عن طريق إفراز مواد كيميائية معينة. فما نوع هذه المواد؟ وما هو عملها؟. تعد هذه المواد بسيطة التركيز، وزنها الجزيئي صغير، تضم عدة أنواع منها السترال (Citral) والسترونيلال (Citronellal) والهبتانون Heptanon والدندرولاسين. تثير هذه المواد الكيميائية الرعب والفزع بين أفراد النمل التابع لقائدة الطليعة. يقع إلغاء مفعول هذه المواد باجتناب مسار جنود سليمان. تحمل هذه المواد رائحة زكية بالنسبة لنبي الله سليمان وجنوده، الذين لم تحرك فيهم ساكناً، وهو على علم بذلك.

كيف حدثت عملية الإفراز عندما أرادت النملة الشغالة تحذير رفيقاتها من سليمان وجنوده؟. أفرزت النملة الشغالة مواد الأثر من غدة في الفكين، حيث انتشرت في الهواء المحيط بالعساكر، مكونة كرة من البخار توزعت في الجو بقطر يبلغ حوالي 6 سنتمترات، أثناء فترة زمنية قصيرة لا تتجاوز 13 ث. لا تعمر هذه الكرة البخارية طويلاً، فهي تبدأ تنكمش تدريجياً، حتى تتلاشى نهائياً في فترة لا تتعدى 35 ث. حذرت النملة الشغالة

رفيقاتها من سليمان وجنوده بوسيلة اتصال خاصة لم تتجاوز مدة إرسالها نصف دقيقة. إذن كيف يتعامل النمل مع الزمن؟. إن الزمن نسبي عند النمل، لذلك فإن الاتصال بسيدنا سليمان كان في ثوان قصيرة، تبعاً لحالة الطقس: تتقلص الثواني مع ارتفاع الحرارة، وتتمدد بشكل كبير جداً مع انخفاضها. إن النمل يفقد الوعي في المَبيتِ الشتوي. لذلك فإنه لم يكن بمقدور سيدنا سليمان الاتصال بالنملة في فصل الشتاء، وإنما حدثت العملية في فصل الصيف.

لقد ساعد الزمن النسبي الصيفي النملة على إدراك وقع خطوات جنود سليمان، والأشياء القريبة المحيطة بالمكان. إنها لم تستخدم أثناء اتصالها بنبي الله سليمان مفهوم الحيز والمدة فقط، بغية تحديد الحركة العسكرية والجلبة المحيطة بالموقع، وإنما أضافت إليهما درجة الحرارة المتعلقة بموقع الجنود، وذلك من خلال استعمال ملكة ذكائها البسيطة.

هل وصل تحذير النملة لرفيقاتها من سليمان وجنوده إلى جمع النمل المتواجد على مسافة بعيدة؟ لا يصل تحذير النملة الشغالة جموع النمل المتجمهر على بعد 3 سنتمترات، وذلك أن سرعة انتشار الإنذار تتحرك في مساحة جغرافية محددة جداً.

والحقيقة أن البحث العلمي اللساني الصوتي ما زال لم يحدد طريقة اشتغال مواد الاتصال بين النملة وسيدنا سليمان، فهي غير واضحة العمل ولا تصل مستوى تحديد عناصر الاتصال أو نظرية الأخبار التي نجدها عند رومان جاكبسون في المجال اللساني.

ما مكونات (مواد الإنذار) التي استعملتها النملة الشغالة، أثناء تحذيرها لرفيقاتها من سليمان وجنوده؟.

إنها تتكون من مادتين تمتزجان في خلق كرة البخار المذكورة. المادة الأولى سريعة الانتشار والتطاير في محيط الجنود والنمل التابع، وهي تشكل الجزء الخارجي لكرة الانتشار، حيث يكون تركيزها منخفضاً نسبياً. أما المادة الثانية فهي تمثل الجوهر الحقيقي للإنذار بشأن الموقف ومقامه (Context of Situation). تقع هذه المادة الثانية داخل الكرة البخارية.

تتصل بعض الطيور وتتفاهم مع مستقبليها عن طريق إنجاز بعض الذبذبات والتنوعات الصوتية (الهدهد والحَمَامُ الزاجل مثلاً). لذلك فإن العلم بـ(منطق الطير) هو الذي جعل سيدنا سليمان على إدراك وفهم كبيرين بهذه الذبذبات. فالله سبحانه يحدد على لسان نبي الله معرفة الذبذبات التي يبثها الهدهد ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، النمل 16. لقد علّم جل جلاله آدم الأسماء كلها، وهذا يؤيد العلاقة الوقفية بين الدال والمدلول.

يخلق البعد الاتصالي الناجم عن الذبذبات التي بثها الهدهد إلى سيدنا سليمان رسالة صوتية، ذات مدلول خاص يفهمه سليمان عليه السلام ويفك رموزه لينشرها فيما بعد في محيطه. إنه مدلول يشبه طريقة عمل الألفاظ والمعاني في لغاتنا الطبيعية.

والملاحظ أن وسيلة الاتصال ونقل الأخبار عند هدهد سليمان تشبه كثيراً الطريقة التي يوظفها الحَمَامُ الزاجل وبعض الطيور الأخرى. كيف نقل الهدهد الرسالة الصوتية من بلقيس إلى سليمان؟ قد تم نقل الرسالة في المرة الأولى عن طريق تكيف الجهاز العصبي عند الهدهد مع البيئة المحيطة به، أي تحكم المؤثر الخارجي وتفاعله معه على مسافة قريبة ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ النمل 22. لم يكن الهدهد داعية مباشرة لدين نبي الله سليمان، وإنما كان يبث أوامره إلى مستقبليه، ناقلاً رسائله بأمانة وحرص شديدين. إنه استجاب لمؤثرات محيط بلقيس وسليمان، فأنتج ذبذبات وتموجات صوتية، أرسلها إلى المستقبلين المذكورين، محركاً عضلات معينة ومشغلاً جزءاً محدداً من جسمه.

والحقيقة أن الدراسة العلمية اللسانية ما زالت في بداية الطريق فيما يخص هذا الموضوع، فلم تحدد بعد آثار المواد الكيميائية على فسيولوجية الهدهد وأعضائه الناقلة للأصوات (acoustic) وسلوكه فيما يتعلق بالطريقة التي وظفها في عناصر الاتصال المعتمدة على الذبذبات الناقلة للمعلومات بين بلقيس وسليمان.

كيف اشتغل الجهاز العصبي عند الهدهد لنقل الرسالة الدينية بين بلقيس ونبي الله سليمان؟ يشتغل الجهاز العصبي عند الهدهد بطريقة تشبه شبكة اتصال لاسلكية شبهاً كبيراً.

لقد نقل الهدهد المعلومات بين بلقيس وسليمان عن طريق توظيف غدة خاصة بهذا الغرض، لكنها غير دقيقة المكان. مجمل القول، إنها غدة تملك قدرة فائقة على نقل الرسائل بسرعة هائلة، ولمسافات محددة. إنها شديدة الدقة، ولا يحدث أي انتقال فعلي للمادة المحركة لها. كما أنها لا تستهلك إلا قدراً ضئيلاً من الطاقة.

كيف انطلقت الذبذبات الصوتية من أعضاء جسم الهدهد، أثناء اتصاله بالعالم الخارجي كوسيط بين سليمان وبلقيس؟ انطلقت الذبذبات الصوتية بطريقة مزدوجة، لأنها تتحرك على شكل إشارات كهربائية في بعض مراحل الاتصال الخاصة بالمستقبلين (سليمان وبلقيس)، ثم تتحول إلى إفرازات كيميائية. إذن يملك الهدهد (مواد اتصال) ناقلة للمعلومات، تتحرك من خلية إلى خلية عن طريق نقط الاتصال.

تنوع أخبار النمل:

تتحدث عدة مصادر وموسوعات ودوائر معارف عربية وأجنبية عن النمل، ناقلة الأخبار المتضاربة عنها دون تمحيص. فالمعلومات والأخبار المجسدة داخل هذه الأعمال بعضها وصفي (descriptive) وبعضها الآخر تحليلي (analytic) وبين البعدين بون شاسع، من حيث النتائج والمقاصد.

كيف يعيش النمل؟ إنه يعيش جماعات متكاثفة ومتعاونة، بطريقة أقوام وشعوب بني البشر. يقدم نظاماً ومعارف دقيقة عن الحياة، إذ يمارس سلوكاً جيداً داخل القرى والوديان التي يسكنها. ففي ثوان يسيرة ترى النور سبعمائة مليون نملة، تموت خمسمائة مليون ويعيش الباقي. تصل قامة النمل إلى 1,5 سم، ووزنها من 1:150 ملجم. الرأس المثلث يشق الهواء، والقوائم الطويلة تساعدها على الوقوف استناداً على التراب، أما البراثن فتجعلها تمشي بسرعة وتتعلق بالأسقف. عيونها تسمح بالرؤية على دائرة 180 درجة. يضع النمل بيضه بأمر الملكة، وتبعاً للمخزون المنوي. لا يستطيع فرخ النمل العمل بمفرده، بل يحتاج إلى مساعدة المحيطين به.

كيف تكونت حضارة النمل؟ لقد ظهرت حضارته وثقافته منذ ملايين السنين. كان يدخل في مجابهات مع الأعداء، من خلال تشكيل جماعات مرصوصة. شيدت الأرضة أول بناء ذكي للنمل على سطح هذا الكوكب. يمثل مجتمعها أكبر طرق التنظيم الاجتماعي الذي خلفه الأسلاف المنحدرون من الدبور المتوحش الانطوائي المسمى (تيفيد).

ما أقسام النمل؟ ينقسم النمل إلى قسمين:

1 ـ قسم العمال المتميزين بصغر الرأس

2 ـ قسم الجنود برؤوس ضخمة.

والملاحظة العلمية الثابتة هي أن ذكور النمل تموت بعد تلقيح الإناث.

كيف يبني النمل قراه، وأي المواد يستعملها؟

تظهر الدراسات العلمية اختلاف هندسة البناء داخل القرى والوديان، وتنوع مواد البناء التي يستعملها النمل. هناك جماعات من النمل تبني قرى سفلية، وأخرى تقيمها بالأماكن العالية، مثل الصخور، الجدران، الأخشاب، النباتات. بعضها يستعمل الطين مادة للبناء، وبعضها الآخر يفضل مواد رطبة لزجة.

دورة حياة النمل:

تلد النملة عدة ديدان يقوم قسم العمال بتربيتها. تعيش هذه الديدان في أكياس ثم تخرج إلى العالم لتصبح عمالاً جدداً من الجنسين.

كيف يوظف النمل غريزته؟

يستعمل النمل ذكاء وفطرة متميزين يبرزان الاجتماع والتعاون، ودقة التربية والنظام. والحقيقة أن غرائز النمل تعد استعمارية، فهو يشن الغارات على بعضه فتقع جماعات في الأسر، وتقتل أخرى، أو تصبح رقيقاً، أو تمارس عليها أعمال شاقة.

كيف ينظم النمل طريقة عيشه؟ يعيش النمل على ادخار الأغذية في مساكن (مخازن). كما أنه يحب أكل الحلوى والمواد السائلة والحبوب وبعض القطنيات. فهل طرأت على هذه الأعمال والسلوكيات عند النمل تغيرات منذ عهد سليمان إلى عصرنا الحالي؟ ما دور المنهج التاريخي (diachronic) في دراسة هذه الجوانب؟ ما علاقة النمل الأبيض بطرق تقسيم العمل ووسائل الاتصال عند البشر، من خلال المنهج المقارن (comparative)؟

تبقى الدراسات العلمية التجريبية في هذا المجال نادرة، فهي ما زالت تشق طريقها، محفوفة بالعديد من المعتقدات الدينية والأخبار غير الواردة في الكتب السماوية المنزلة.

تنوع أخبار الهدهد:

يرد ذكر طائر الهدهد في عدة موسوعات دوائر معارف عربية وأجنبية متهافتة أنتجها أفراد فقط، ولم تتكفل بها مؤسسات أو هيئات علمية متخصصة. تذكر هذه المصادر أن الهدهد طائر كثير الخطوط، كثير الألوان وهذا ليس صحيحاً، فالتجربة تبرز أن ألوانه محدودة. كما أنها تذكر أنه يكنى بـ (أبي الأخبار ـ أبي تمامة ـ أبي الربيع ـ أبي روح ـ أبي طيط ـ أبي سجاد ـ أبي عبادة ـ الزقزاق الشامي). وهي أسماء إقليمية محلية لا تفيد تطور البحث العلمي الإسلامي (وعولمة) تراثه، وجعله ذا بعد إبداعي استكشافي، يتنبأ بالجديد فيما يخص أعمال وسلوك هذا الطائر الضائع بين تلافيف أساطير الموسوعات ودوائر المعارف العربية والأجنبية، التي يزعم بعض أصحابها أن طائر الهدهد يرى الماء في باطن الأرض، حيث يظهر له زلالاً كأنه زجاج شفاف. كما أنها تدعي أن سليمان افتقده يوم نقصان الماء. وهي أقوال وتخمينات تحتاج إلى إثبات بدليل علمي يطبق على هذا الطائر داخل المعامل والمختبرات المتخصصة. إن مثل هذه الأفكار السطحية الانطباعية المتضاربة تصيبنا بالتخمة، والانشطار الفكري حول موضوع مسلم به داخل الكتاب المنزل.

ترى عدة موسوعات وداوائر معارف متعددة أن اسم هدهد سليمان (يعفور). كان هذا الأخير يتحاور مع هدهد بلقيس، لكن ما العناصر الصوتية المكونة لهذه المحاورة بين الطائرين، وكيف نقلت المحاورة إلى نبي الله سليمان؟ اعتمدت المصادر المذكورة على دراسة وصفية، وارتياد مجال المعجزة من خلال تفسير سطحي مفكك لا يخلق نظرية لغوية علمية تحليلية، تبني جنساً لغوياً في مجال علم التفسير، كما نجد عند الدميري والراعي، حيث تتضخم المغالاة وتكثر الأخطاء أثناء سرد المعلومات المتعلقة بهذا الطائر.

لقد وقع تأويل قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بالاعتماد على نقصان الماء في محيط سليمان وجنوده، دون الرجوع إلى دراسة للخلايا التي تتكفل داخل جسم الهدهد باستكشاف الماء كما يزعمون. السؤال المطروح هو: كيف تتم مراحل اكتشاف الماء عند الهدهد؟ إننا لا نسلم بهذه القصة دون تجربة علمية تجرى على الطائر. تذكر مصادر أخرى أن طائر الهدهد يخاف ويسكت وينعزل كثيراً، ولكن الجاحظ يحدد لنا بعض سلوكه وأفعاله التي تخالف ما ورد بهذه المصادر، فهو:

1 ـ ذو وفاء حفوظ ودود.

2 ـ يحب أنثاه حباً جماً.

3 ـ يسعى دائماً إلى لَمٍّ شمل العائلة.

4 ـ يضرب عن الطعام إذا غابت أنثاه.

5 ـ يكثر من الصياح أثناء عزلته.

فهل هذه الأفعال والسلوكيات تبرز أنه يخاف ويسكت وينعزل كثيراً، أو أنه لا يملك صوتاً؟ تحتاج الموسوعات ودوائر المعارف العربية والأجنبية التي تعرضت لهذا الموضوع إلى إعادة النظر من قبل هيئات ومؤسسات علمية مكثفة، علاوة على وجوب ارتياد المنهج التحليلي، المعتمد على الملاحظة والتجربة والفرضيات والاستقراء والاستدلال.

إن الرسالة التي تمت بين سليمان والنمل والهدهد قد تمت عن طريق إنجاز (جمل) برقية، تتركب من أملاح وأحماض ذبذبات صوتية. لقد ظهر النمل والهدهد قبل وجود سليمان، وشيوع الرسالات السماوية فوق هذا الكوكب أي قبل عشرات الملايين من السنين. كان يتفاهم (بلغته الخاصة)، ويعرف العدو من الصديق مستعملاً الأسلحة وطرق الوقاية، ويعمر الأوطان بطريقة متفردة.

إذن تتكون وسيلة الاتصال بين سليمان والنمل والهدهد من بعض المواد الكيماوية والتموجات الصوتية، ذات البعد الكيميائي والفيزيائي. إن مفردات لغة الحشرات والطيور يصعب فك شفرتها، فهي تفوق صعوبة فك لغة حجر رشيد، التي حلت لغز لغة الفراعنة، (الهيروغليفية).

كما أن بعضهم قد قدر مفردات هذه اللغة بمليون مركب كيميائي. إنها تحتاج إلى أقراص حاسوب ضخم لتسجيلها.

والواقع أن وسيلة الاتصال بين سليمان ـ عليه السلام ـ والنمل والهدهد قد أنجزت بلغة غير بشرية لم نستطع لحد الآن استيعابها لأنها غير مكتوبة ولا منطوقة ولا مقروءة. ولكنها تتوفر على معجم يفوق معجم لغات البشر، من حيث الكم والنوع. لا تمثل وسيلة الاتصال اللساني بين بني البشر الوسيلة الوحيدة في الكون. لا يمكن الجزم بأن الناس وحدهم يملكون لغات ولهجات وسلوكيات وعادات وقواميس محددة، فهناك الحشرات والطيور (النمل، الهدهد، حمام الزاجل، النحل...)، التي تتوفر على ملايين المفردات. إننا لا نعدُّ عالم النمل والهدهد عالماً أخرساً، أو أن سيدنا سليمان قد استعمل إشارات، الصم ـ البكم، للاتصال مع هذه المخلوقات، بل استعمل وسيلة دقيق﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لقد تشكلت وسيلة الاتصال بين هذه المخلوقات عن طريق نظام دقيق المعجم، حيث نجد: الموجة، الخلية، الجُسيم، الذرة، الكائن الحي، الجُزئ.

كيف يمكن التفاهم مع هذه المخلوقات؟

يصعب علينا التفاهم مع النمل والهدهد، لأن المرجعيات بيننا مختلفة. فنحن لا نستطيع فهم اليابانيين أثناء قيامهم بالانتحار المقدس، كما لا نفهم الرسوم الجدارية التي خلفها الإنسان القديم. وهذا يبين لنا طرق حياته القديمة بمختلف المعتقدات والطقوس. فكيف ندعي القدرة على فهم لغة هذه الحيوانات، دون معجزة أو تحول علمي جذري في مجال الاتصالات؟

خلق الله الكون منظماً بالهيدروجين، فالهليوم، ثم الكربون. وهو تطور للأشياء والمواد فوق كوكب الأرض، الذي يحوي تعقيدات ومتناقضات يتغلب عليها البشر والنمل والهدهد كل مرة. إن الله سبحانه وتعالى استخلفهم في الكون لمراقبة مستوى وعيهم قاطبة. يستعمل الإنسان دماغه الضخم للاتصال، والنمل والهدهد يستعملان آلاف الأجهزة الصغيرة الدقيقة للاتصال أيضاً هل سيتكامل ذكاء الإنسان مع ذكاء النمل والهدهد مستقبلاً، بدل التسابق والتنافر كضفتي نهر تتجهان نحو المصب ولا تتعانقان أبداً؟

إنَّ النمل أكثر عدداً من البشر وهو موجود أينما حللنا وارتحلنا، وهو إنه مقاوم لكل أنواع القنابل والأمراض. لذلك فلسنا سوى حدث عارض. فإذا عاشت كائنات فضائية مستقبلاً فوق هذا الكوكب فإن النمل والهدهد سيمثلان المخلوقات الأكثر تفاهماً معها، لأن السيادة في العالم ستكون لوسائل الاتصال المتطورة، المخترقة للأجواء والموانع الموجودة حالياً في دنيا البشر.

الثنائيات في القرآن الكريم

الليل والنهار نموذجاً

الأطروحات:

هل تشكل ثنائية: الليل / النهار الواردة في كتاب الله العزيز مفهوماً يعالج تاريخياً عدة مناحي..؟ ماذا يحدد لنا هذا المصطلح سيميائياً؟ كيف تحيا بعض المخلوقات بالليل والنهار؟ ما التقسيمات العلمية لليل في التنزيل؟. ما رموز هذه الثنائية من خلال معجم القرآن الكريم.

ثنائية الليل/ النهار في كتاب الله:

يحدد القرآن الكريم الليل بأنه فضاء زمني للاستراحة والاختفاء. كما أنه يشكل مفهوماً تاريخياً لبناء الحوادث وسرد السير وتبادل قضايا السّمر. يعرفنا القرآن في هذا المنحى بعدة جوانب:

أ ـ القضاء على بعض الأمم والقرى ليلاً:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ب ـ الإسراء ببعض الأنبياء والرسل.

---

1 ـ سورة يونس، الآية 24.

ج ـ دعاء بعض الأنبياء لقومهم ليلاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[2].

يمثل الليل مصطلحاً سيميائياً يرمز إلى ظهور بعض الآيات البينة كنظم الكون وتدبيره بالأحكام وتوزيع النجوم والأنوار الساطعة لقمر الظلام الدامس، وانتشار تسابيح المخلوقات بأنغام ونبرات متفاوتة[3]. تتردد كلمة الليل ضمن معجم قرآني خاص، يستند إلى مقابلة ثنائية: الليل / النهار. يختلف الليل عن النهار، إذ أن هذا الأخير يمثل فضاء زمنياً للحركة والعمل، لكن الثنائية بشقيها تشكل مجالاً للعبادة والتأمل في خلق الله سبحانه وبديع صنعه المتجلي في مظاهر الكون.

يذكر الله سبحانه تنوع المخلوقات؛ فمنها من يتحرك بالليل ويسكن بالنهار، والعكس صحيح بالنسبة لمخلوقات أخرى. كما أن بعض الكائنات تتعرض لحوادث مهمة ونهاية حتمية بالليل[4] ترد في كتاب الله العظيم تقسيمات علمية دقيقة:

1 ـ قطع من الليل.

2 ـ زلف من الليل.

3 ـ غسق الليل والنهار.

تتوالى حركة الزمن في الليل والنهار، إذ يتداخلان في اللحظات، عبر القارات والمحيطات والصحاري والبراري المترامية.

تتواتر ثنائية الليل / والنهار في القرآن لتحمل دلالات ورموزاً، تشير إلى:

أ ـ استراحة الليل وعمل النهار.

ب ـ العبادة والقيام في الليل.

---

2 ـ سورة نوح، الآية 5.

3 ـ تتنوع الدوال والمدلولات الربانية في هذا الصدد، حيث تقدم «ثروة معجمية» ودلالات «متفجرة»، تجسد البلورة لحياة اللغة العربية في الكون، على مستوى الحقيقة والمجاز.

4 ـ تتغير ألوان بعض الأسماك أثناء نومها بالليل. يخضع تغير الألوان لـ النوم (طول / قصير، متصل / متقطع).

ج ـ تسبيح المخلوقات.

د ـ استعمال شقي الثنائية كتقويم زمني.

هـ ـ تغير أحوال الكون والإنسان حسب هذه الثنائية.

يختص كل شق من ثنائية الليل / والنهار، التي تتواتر كثيراً في القرآن الكريم، بسمات خاصة. نجد في هذا الصدد:

1 ـ إيمان بعض الناس وجه النهار.

2 ـ وجود سارب بالنهار[5].

3 ـ علمه سبحانه بجراحة النهار[6].

4 ـ آيات النهار مبصرات.

5 ـ يكون النهار للتجلّي والوضوح.

6 ـ جعل النهار نشورا[7].

7 ـ سرمداً إلى يوم القيامة[8].

5 ـ سورة الأنعام، الآية 60.

6 ـ سورة الفرقان، الآية 47.

7 ـ سورة القصص، الآية 72..

8 ـ سورة القصص، الآية 71.

رموز [الخوف والخشية]
في القرآن الكريم

المدار العام للمرادفين:

يمثل الخوف أو الخشية سلوكاً نفسياً، يدفع صاحبه إلى القيام بأفعال متنوعة، لها نتائج اجتماعية وأخلاقية وثقافية متفاوتة.

يحدد الله سبحانه في «معجم القرآن الكريم» عدة رموز للخوف أو الخشية:

1 ـ خوف الإنسان من محيطه (أشخاص، أعمال، مجموعات).

2 ـ خوفه من عذاب الآخرة.

3 ـ خوفه مقام ربه[1].

4 ـ خوف المرأة من بعلها.

يرسم كتاب الله الكريم جميع مظاهر الخوف ورموز تجلياته في الكون والحياة. يتعرض لخوف الأبوين على أطفالهما من الفقر والعار والتشرد. كما يتطرق إلى خوف الأسياد والمالكين من الخدم والموالي. نصادف في هذا الصدد بعض رموز الخوف، المرتكزة على ضياع بعض القيم والمبادئ أو انعدامها مثل:

أ ـ الخوف من انعدام العدل.

1 ـ سورة إبراهيم، الآية 14.

ب ـ الخوف من النسيان أو النقص بالنسبة لشهادة النساء.

ج ـ الخوف من الشقاق والفتن.

تمثل مظاهر الخوف من الله تعالى حصة الأسد في الذكر الحكيم: الخوف من الوعيد، الخوف من العذاب، الخوف من العاقبة، الخوف من البرق، الخوف من الطبيعة، الخوف من يوم التناد[2] الخوف من النار.. قد نجد عدة مرادفات لهذه المظاهر.

يرتبط مفهوم الخوف في الذكر الحكيم بعدة حالات نفسية ونوعية قضايا المجتمع (فقر، ظلم، خراب) وكذلك بجوانب أدبية، مثل: الاستهزاء، اللوم، التحاشي. عالج القرآن الكريم مظاهر الخوف أو الخشية، التي التحمت بأسباب نزول أو ظروف إنتاج محددة.

يبرز لنا كتاب الله الكريم أيضاً أن الخوف يرتبط بأيام مشهودة، حيث ينجم عن ابتزاز أو استغلال لقوة أو سلطان أو حضوة. فالشيطان يخوف أولياءه[3].

يقضي الله سبحانه على الخوف، حيث يعوضه بقوة الإيمان والاتجاه إلى طريق التوحيد عند كل مؤمن قوي. يؤدي غياب هذه الظاهرة النفسية إلى سيادة الأمن والهدوء.

إن مفهوم الخشية يوظف في القرآن الكريم كمرادف لمفهوم الخوف؛ إذ أنهما يعالجان نفس القضايا والموضوعات المحورية. لذلك نجده مقسماً إلى عناصر تكاد تضارع عناصر الخوف.

1 ـ خشية الله سبحانه.

2 ـ خشية قول الآخرين.

3 ـ خشية العقلاء والمتدبرين ربهم.

نجد إذن أن أغلب معاني الخشية، الواردة في القرآن الكريم، تدور في الفلك الدلالي الذي عرضناه بالنسبة لمفهوم الخوف.

---

2 ـ سورة النازعات، الآية 40.

3 ـ سورة غافر، الآية 32.

تختلف درجة الخشية حسب نوعية الناس. يتعرض كتاب الله في هذا الصدد إلى خشية بعض الناس لبعضهم، خشية كساد تجارة معينة، خشية يوم ما، خشية الإملاق..[4] ينهانا الله سبحانه عن خشية الذين ظلموا، ويأمرنا بخشيته أثناء العمل والعبادة، إذ أن عقابه شديد يوم القيامة يستخدم جلت قدرته عدة رموز للخشية نذكر منها:

1 ـ رمز خشية الجبل.

2 ـ رمز خشية الحجارة ـ والله أعلم.

---

4 ـ سورة آل عمران، الآية 75.

يونس والحوت

مقاربة علمية

الجدل العملي:

هل فعلاً أن الحوت يشم رائحة الدم البشري على بعد 40م، وأنه يستطيع احتواء ما يقارب 50 شخصاً في بطنه؟.

ألا يمكن القول بأن التهام يونس ـ عليه السلام ـ قد حدث بنفس الطريقة؟. ماذا قدمت التفاسير الوصفية "DESCRIPTIVE" الشكلانية بالنسبة لقصة سيدنا يونس؟. ما الإضافات العلمية التي تنجزها النظرية الدلالية الذهنية بالنسبة لتفسير القرآن الكريم؟ هل يمكن قبول الإضافات غير الواردة بالقرآن، فيما يخص تفاسير قصة يونس؟.

المقاربة التحليلية "ANALYTIC" لقصة يونس:

بعث الله سبحانه يونس «عليه السلام» إلى أهل «نينوى»، ليبلغهم الأمر الرباني، لكنه لم يجد شيعة بينهم لمساندته، فخشي أن يؤذوه. ابتعد عنهم ولجأ إلى الفلك المشحون التي بدأت تضطرب بين أمواج البحر. اضطر أهله إلى إجراء القرعة، بغية إلقاء أحدهم في الْيَمِّ فوقعت القرعة عليه، حيث كان من المدحضين. أرسل الله حوتاً فالتهمه ومكث في بطنه ما شاء الله.

هذا الحوت يشم رائحة دم البشر على بعد 40 متراً، ضمن المنطقة البحرية التي ألقي فيها يونس «عليه السلام».

كما أنه قد يلتهم ما يقارب 50 شخصاً[1] بالإضافة إلى سيدنا يونس الذي جره قضاء الله إليه.

نبذ يونس بالعراء وهو سقيم. أنبت الله عليه شجرة من يقطين ففرح بها وسعد بظلالها. سلط الله عليها حيواناً قارضاً فأكل جذورها ولفحتها ريح حارة، فشق ذلك على يونس عليه السلام.

كانت هذه هي المقاربة الوصفية "DESCRIPTIVE" لقصة سيدنا يونس، فكيف يمكن تفسيرها علمياً وإقصاء بعض الإضافات غير المعقلنة ولا المبررة؟.

يقدم العديد من المفسرين إضافات متهافتة، لا تعتمد على الاستدلال "DEDUCTION" المتين، بالنسبة لهذه القصة، حيث نجد آراءهم مثل:

1 ـ أن الله سبحانه بعث يونس إلى قوم ليسوا من عشيرته[2] هل يبعث الأنبياء والرسل إلى غير أقوامهم، وبألسنة غير ألسنة عشائرهم؟ كيف يتم الاتصال في هذا المستوى؟

2 ـ أن أمر الله ليونس بالذهاب إلى هؤلاء القوم مجرد إرشاد. فهل يفرق المفسرون دلالياً بين هذه الكلمات: أمر، إرشاد، إرسال، تكليف[3]؟...

نعتقد أن غياب نظرية دلالية لتفسير القرآن يوقفنا على مستوى الوصف والخلط بين المناهج والانساق أثناء التفسير من منظور بنيوي ـ هيكلي.. فلن تخلق نظرية تحليلية ذهنية، ولن تحدد القواعد المحدودة التي تنظم السور والآيات، لأننا لا نعتمد على إبداعنا

---

1 ـ تراجع في هذا الشأن الكتب والموسوعات الخاصة بمجال:
أ ـ جغرافية البحار والمحيطات.
ب ـ الحيوانات البحرية الثدية.

2 ـ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء. القاهرة، مكتبة دار التراث، 1985ف. ص 419 وما بعدها.

3 ـ حينما ندرس هذه الكلمات على مستوى الحقول المعجمية والدلالية نجد العديد من السمات «المميزات والقيم» العامة والخاصة، الأمر الذي يقصي وجود المرادفات المتماثلة كلية.

"CREATION"[4] تفسيرنا للقرآن الكريم بنيوي وصفي / لغوي صرف لا يرقى إلى مستويات دلالية معاصرة:

1 ـ نفسية واجتماعية.

2 ـ سياسية واقتصادية.

3 ـ سيميائية وأيديولوجية.

يضيف بعض المفسرين عدة جوانب سطحية وصفية إلى القصة، دون استيعاب واقتصار وفهم لما ورد بالقرآن، كما عند الألوسي[5].

ترى جماعة من المفسرين أن يونس ـ عليه السلام ـ كان غير مدرب وحديثاً على النبوة. لذلك ذهب غاضباً وابتعد عن أهله. وهذا تفسير سطحي يعتمد على تركيب الجمل ونظمها فقط "SYNTAX"، ولا يرقى إلى الدلالات العميقة "DEEP"، المضمرة.

والحقيقة العلمية ترفض مثل هذا التعليل المتعلق بحداثة العهد بالنبوة، فلا يجوز ذلك، بل يجب استعمال الاستدلال بما لا يتنافى مع البرهان القطعي من عصمة الأنبياء ورقي مقامهم في تبليغ رسالات ربهم، إن الله سبحانه أعلم، حيث يجعل رسالاته لا يجب أن يخطر على البال أن يونس كان غير متمرس بالنبوة وواجباتها وآدابها. فالأنبياء ليسوا مثل سائر الناس، بل هم أفضل منهم جميعاً.

إذن لا يصح أن نصف أي شخص مكلف بذلك إلا في حالة الذم والاستهجان، الذي ينزه عنه سائر الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

إن التعليل المقدم بشأن غضب يونس ـ عليه السلام ـ وهروبه من أمر التبليغ الرباني لأهل نينوى هو من الإسرائيليات.

لقد سقط في هذا الفخ عدة مفسرين لافتقارهم لنظرية دلالية تحليلية علمية.

---

4 ـ يقصد به الاستعمال الفعلي اليومي عند المسلم لكل قواعد ومضامين كتاب الله، من خلال:

1 ـ الإنجازات القرآنية في الواقع المعيش "PERFORMANCES".

2 ـ التداول في الأغراض المتنوعة "PRAGMATIC".

5 ـ عبد الوهاب النجار مرجع مذكور ص 419 ـ 234.

يكثر الخلط والتضارب بين المفسرين حول قوله تعالى في سورة الأنبياء، الآية 86: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾حيث نجد تفسيرين:

التفسير الأول: يذكر أصحابه أن يونس عليه السلام قد غضب على قومه «لعنادهم وتمادي إصرارهم مع طول دعوته إياهم فهجرهم بعد أن بلغهم الرسالة ويئس من إجابتهم لدعوته»[7].

نستنتج من القول السالف ما يأتي:

1 ـ أنه بعث إلى قومه، دون غيرهم.

2 ـ أن دعوته لهم كانت طويلة الأمد، وليست قصيرة.

3 ـ أنه بلغهم الرسالة، ثم هجرهم.

ـ التفسير الثاني: يرى أربابه أن مغاضبته كانت قبل الرسالة وكانت للملك حزقيل... ولم يكن مأموراً من قبل الله سبحانه... يرى الحسن وابن جبير أن معنى «مغاضباً لله» يتعين تأويله في أن اللام للتعليل لترتبط بالتفسير الأول. والله أعلم.

التركيب: اعتمدت مقاربتنا الدلالية[8] على تتبع قصة سيدنا يونس في سورة الأنعام، الآية 86، ويونس الآية 89، والصافات، الآية 139، والأنبياء الآية 86، والقلم الآية 48.

أما بالنسبة للحوت الذي ابتلع سيدنا يونس فإنه من الحيتان القاتلة "ORCINUS ORCA" الثديية البحرية الشرسة المفترسة لكل ما تقتات به من الحيوانات، ذات الدماء الحارة، لكن الله سبحانه حافظ على سيدنا يونس في بطن الحوت سالم الأعضاء والأطراف. ينمو هذا النوع من خنازير البحر "PORPOISES" ليصل طول بعضه تسعة أمتار، حيث يعيش في مناطق دافئة عميقة صادف فيها سيدنا يونس عليه السلام. والله أعلم.

---

6 ـ عبد الوهاب النجار، مرجع مذكور ص 420.

7 ـ المرجع نفسه. ص 422.

8 ـ يصعب تقديم كل الخطوط العريضة للنظرية الدلالية ضمن مقالة واحدة، لذلك نحيل القارئ على الكتب المتخصصة في هذا المجال ليطلع على ما يفيده في تفسير معاصر ورائد لكتاب الله المقدس.

9 ـ ينظر كتاب جغرافية البحار والمحيطات لمحمد علي قنديس. القاهرة ـ دار الكتاب 1993ف، ص582.

البصر
بعيون القلوب والعقول

جدلية الموضوع:

ما أنواع الرؤية التي تعالجها بعض السور والآيات القرآنية المطهرة؟. ما الإنجازات التي يحققها البصر بعيون القلوب والعقول؟. ما هي أهم الموازنات التي يقيمها كتاب الله بين البصر بالعيون العادية وعيون القلوب والعقول؟ ما علاقة الغواية والمروق والتقوى والإيمان بهذين النوعين من البصر؟ ما علاقة أقسام البصر بإدراك مظاهر الكون والخلق والعقيدة؟.

رؤية تاريخية:

اكتشف المفسرون القدماء بعض الإعجازات القرآنية، مما أدى إلى ظهور علوم العربية، مثل: النحو، البلاغة، فقه اللغة، الصرف، علم الكلام، أصول الفقه[1].

إن تطور النظريات والتقنيات العلمية والتحاليل اللسانية الدلالية قد أدى إلى عرض محتويات كتاب الله الكريم على المختبرات والمعامل والآليات الالكترونية، الأمر الذي أظهر تفسيراً مختبرياً جديداً لكتاب الله. إنه تفسير يرتكز على منجزات عدة علوم «دقيقة» رائدة، مستعملاً مناهج عقلية تحليلية استدلالية، حيث يقتبس عدة إنجازات من علم الوراثة والاتصالات والفيزياء والكيمياء والطب والفلك والأحياء والنبات وغيرها.

1 ـ وردت الإشارة وتفصيل هذا عند جمهور من المفسرين، مثل الطبري، ابن كثير، الزمخشري، الرازي، القرطبي...

البصر بعيون القلوب والعقول:

يرتب كتاب الله العظيم في العديد من سوره وآياته المطهرة أنواع الرؤية. إنه يخضعها لتقسيمات علمية ومخططات دقيقة تعتمد على الوظيفة والعلاقة بالأعضاء والمحيط[2].

يقول الله سبحانه في سورة الحج، الآية 46:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾

يركز كتاب الله الحكيم على بصر القلوب المتزن المتأني مقدماً إياه على بصر العيون، التي قد تزيغ فلا تجدي رؤيتها نفعاً. كما أن ضعف القلب وعدم التزامه ودقته وتقواه يخلق نظراً سيئاً منحلاً. فالبصر بعيون القلب يبني عدة إنجازات:

أ ـ السمع والتفكير في الأمور.

ب ـ بُعد النظر والانتفاع بالعبر.

ج ـ اتباع الطريق القويم.

د ـ اجتناب الشطحات والصراعات.

هـ ـ تحاشي الزلات والهفوات.

والملاحظ من خلال الآية المطهرة السابقة أن الرؤية الحقيقية الهادفة لا تتم بالابصار لأنها تكذب أصحابها، في حين أن رؤية العقل لا تغش ولا تخدع من اهتدى بها.

نجد بعض الناس يفقدون بصرهم، لكنهم يملكون بصيرة أو عقولاً راجحة، وهذا فقدان أسهل. فالعقل يدفع الناس إلى الهدى والتقوى والتأمل والتدبر في كل أمور الدنيا والآخرة، بينما بصر العيون قد يقود إلى الغواية والرؤية الزانية.

يؤدي البصر بعيون العقل والقلب المتزن إلى إصلاح العيوب واجتناب المعاصي والذنوب. فهذا النوع من البصر يبني عدة جوانب «خيرية» ويطورها كما أن أنقى سَمْعٍ هو «ما وعى التذكير وقبله»[3].

2 ـ يحتاج التعامل مع المعادلات والمسائل العلمية التي يعرضها القرآن الإلمام بالعلوم المقصودة والتزود بالمعاجم والقواميس والموسوعات المتخصصة لمعرفة مرحلية يسمح بها الرب.

3 ـ عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، طه 2، ص 9 وما بعدها.

يقول الله سبحانه في سورة فصلت، الآية 53:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

فالرؤية بالعيون في الآفاق لها أفق فضائي محدود، فعندما نلقي بصرنا على البحر فإنه يظهر ممتداً أمامنا وما وراءه غيب لا يدركه البصر. لذلك فإن الأبعاد الأخرى للآفاق تدرك بالعقل والقلب المؤمن ـ التقي القوي.

تدعو الآية الربانية السالفة البشر إلى وجوب استعمال البصر بعيون العقل والقلب لا بالعيون العادية، مما يجعل الآفاق تتعدد وتقسم إلى عدة فروع صغيرة.

يخلق الله سبحانه الطفيليات التي قد تفتك بنا في أي لحظة، وهي موزعة في الكون كذرات الغبار. لكننا لا ندركها بالبصر العادي ولا تستطيع حواسنا تحديد مواقعها وأضرارها ونموها، وإنما تحتاج إلى العقل، أي البصيرة العلمية الثاقبة الممحصة لـ(دورة حياتها).

والملاحظ أن البصر بعيون العقل والقلب يبقى عاجزاً أمام حياة الطفيليات والفيروسات الفتاكة في هذا الكون، مما يجعل نشأتها ونموها من «العلم الغيبي» الإلهي، لا تدركه الأبصار العادية إلا في القليل النادر.

تطرح عدة سور وآيات قرآنية أسبقية البصر بالعقل والقلب على البصر العادي، خاصة في المجالات الآتية:

1 ـ تسيير وتنظيم مظاهر الكون والخلق.

2 ـ الطفيليات والفيروسات.

3 ـ الإيمان والتوحيد.

4 ـ الابتكارات والمستجدات المتنوعة.

إن الله سبحانه يميز بين الأفئدة والأبصار والعقول، حيث يضعها في مراتب تحدد خصوصية وظائفها.

يروم الخالق من وراء ذكر البصر بعيون العقل والقلب في عدة سور قرآنية، دفع الناس إلى التأمل والتدبر في الكون والخلق. فالبصر بالقلوب والعقول يخلق عدة فروع وجزيئات تتجلى من خلال آيات الله سبحانه في الآفاق، ورغم ذلك فإننا لا نبصر منها إلا القليل ولا نعلم منها إلا النزر اليسير. يقول سبحانه في سورة الإسراء، الآية 85:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾

فبصر العقول والقلوب البشرية قاصر وعلمه قليل بشأن الروح.

يحتاج العلم المادي الغربي المعاصر إلى عيون العقول والقلوب لأنها تدفع إلى التأني والالتزام وعدم التهور واجتناب الشطحات والتهافت. كما تبني الإيمان القوي والشخصية المتماسكة المقدامة.

إن «اختراق» الأرض والمجرات وإنجاز أقوى العمليات المختبرية والمعملية وارتياد عالم الكمبيوتر والانترنيت يتطلب بصراً عميقاً بعيون العقل والقلب. يقول جلت قدرته في سورة آل عمران، الآية 7:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

يختلف البصر بالقلوب حسب نوعية هذه القلوب، كما يسلك البصر بالعقول نفس الطريق. تبرز الآية السالفة هذه النوعية من خلال:

1 ـ القلوب التي بها زيغ وانحراف تبصر الأمور متشابهة.

2 ـ القلوب الزائغة تبتغي الفتنة والتأويل[4].

3 ـ القلوب الزائغة بصرها ضعيف تؤول الأمور بسطحية.

لكننا نجد جماعة أخرى مختلفة، إذ أنها:

أ ـ تؤول مضمون الكتاب بعلم وعمق.

4 ـ تخضع السور والآيات المقدسة لأسباب نزول محددة وتأويلنا لبعض النقط هو عمل وظيفي تداخلي (PRAGMATIC).

ب ـ تؤمن بمضمونه المنزل.

ج ـ تأخذ للتذكر والعبرة.

د ـ تستعمل عقولها لتبصر بها كل شيء.

تتعدد وظائف البصر بالعقول والقلوب في عدة سور وآيات مطهرة، مما يخلق من القرآن الكريم «نظرية عقلية تحليلية استدلالية»، لكل مظاهر الكون والخلق، بغية الإيمان والتدبر وتوحيد الأحد. يقول الباريء في سورة النساء، الآية 162:

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

إن البصر بعيون القلب والعقل يطرح سؤالاً وجيهاً هو:

ما نتائج هذا النوع من البصر وما منجزاته؟.

يقدم لنا الله سبحانه عدة نتائج ومنجزات لهذا النوع من البصر؛ إذ أن:

أ ـ كثرة الإمعان تؤدي إلى التعمق في العلم.

ب ـ عمق الإيمان والتقوى ينتج القوة.

ج ـ الاعتراف بسلسلة ما أنزل سابقاً وأخيراً يشكل حشداً هادراً من الموحدين.

د ـ تطبيق أركان الإسلام الخمسة يعمم الدين.

هـ ـ توحيد الخالق وتعظيمه يرسخ العقيدة.

و ـ الاعتراف بالبعث يحدد لكل حياة نهاية.

ز ـ الجزاء لكل فعل يؤسس نوع العمل.

5 ـ المقصود به الخيرات والآيات تظهر باستمرار في الكون.

قصة الذبيح عند المفسرين

رؤية تحليلية استدلالية

عتبات المناظرة:

هل استطاع بعض المفسرين المسلمين طرح مستوى تحليلي استدلالي (Deductive) لكتاب الله المعظم، دون استنساخ للرواية بالمأثور في هذا المجال؟. ما المظاهر التحليلية العقلية المعللة التي قدمها ابن الجوزي والقرطبي بصدد قصة إبراهيم عليه السلام؟. هل اعتمد الطبري في تفسيره للقصة المذكورة على الجانب العقلي؟. ما علاقة الفضاء (مكان + زمان) بقصة سيدنا إبراهيم؟. من هو الذبيح بالنسبة للعقيدة اليهودية؟. هل يمكن للمفسر المسلم الركون إلى المعلومات التي يقدمها أهل الكتاب بخصوص قصة الذبيح؟

المفسرون والاستدلال العقلي للقصص:

يتأثر البغاوي في تفسيره لقصة سيدنا إبراهيم بإنجازات الثعلبي في هذا الصدد. يعيد سرد القصة بإضافة عدة تفاصيل ينقلها عن ابن عباس وابن إسحاق. يرى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد (تفكر وتأمل) في الغار (فأتاه رشده)[1]، الأمر الذي جعله يقدم عدة استدلالات بشأن التأمل والرشد.

يقلب ابن الجوزي الطريقة السالفة لأنه يعدُّها غير قوية، وذلك استناداً إلى ابن عباس

---

1 ـ تراجع تفاصيل هذا الرأي في كتاب:

APPROACHES TO THE QURAN. EDITED BY G. R. HAWTING AND ABDUL KADER A. SHAREEF. LONDON AND NEW YORK 1993

وأبي صالح. يعرض قراءة خاصة لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾[2] من خلال النقط الآتية:

1 ـ ممارسة متابعة النجوم.

2 ـ بناء الدحض.

3 ـ اختيار هذه المظاهر بالنسبة للكافرين.

يعيد ابن الجوزي تفسير قوله سبحانه:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [3].

ليقصي بعض الغموض الذي خلفته عدة تفاسير قديمة.

يذكر فخر الدين الرازي أن هناك اعتراضات على بعض المعلومات الواردة في قصة إبراهيم، مما يجعله لا يقبل عدة جوانب، إذ يقول (ذلك محتمل في الجملة)[4].

فالاعتراض عنده مشكل من خلال اعتماده على نظرات علم الكلام وعلاقاته بالتفسير. فهو يرى أن (الإرهاص) يسبق زمن النبوة والرسالة، وهذا ما حدث فعلاً بالنسبة لسيدنا إبراهيم.

يقدم القرطبي بعض التفاسير للآيات التي تتعرض للقصة، فهو يرى أن:

أ ـ المتغير الأول يكمن في الاستدلال الذي قدمه ابن عباس بالنسبة لـ(تكليف) إبراهيم عليه السلام.

ب ـ مقابلة وجهات النظر التي وردت عند الزجاجي.

ج ـ متغير التناغم في الجملة بعد مغادرة إبراهيم الغار يظهر جلياً في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ليبعد الشرك (وليس هذا شركاً إنما نسب الضوء إلى به)[5].

إن التعرض لجل هذه التفاسير والقراءات المتعلقة بنفس القصة يعطي للنص القرآني دلالات متعددة، مما يبرز في نفس الوقت تعدد مظاهر سلطة النص / سلطة المفسر[6].

2 ـ سورة الأنعام، الآية 77.

3 ـ سورة إبراهيم، الآية 39.

4 ـ نقلاً عن APPROACHES TO THE OMRAN, P. 422.

5 ـ IBIDEM. P. 230.

6 ـ صحيفة الدعوة الإسلامية، العدد 703. ص9.

يفضل الطبري (إسحاق) كأضحية بالاعتماد على الجانب العقلاني في العلة والاعتلال، معتمداً على الجملة القرآنية:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [7].

كما أنه يقدم آية أخرى ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [8] ليدعم رأيه السابق حول الأضحية والتكليف والرسالة بالنسبة لإسحاق عليه السلام. تفرض عدة ظروف ومواقع تاريخية وجغرافية (القدس، الكعبة، مكة) أحد الاسمين (إسماعيل، إسحاق) كذبيح، نظراً لورود عدة خطابات سردية تربط الاسم المقصود بهذه الفضاءات المذكورة[9].

يذكر القرطبي أن رأي الطبري بشأن ذبح إسحاق عليه السلام ليس قاطعاً ولا يقدم استدلالاً قوياً، حيث يسخر ناقلاً: (قال الحجاج الله أعلم أيهما الذبيح)[10] وهذا مذهب ثالث...

يضيف ابن كثير معلومات متعددة مستقاة من التوراة، مفادها «أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمره 26، وإسحاق عندما أصبح عمره 99 سنة»[11].

يؤول اليهود الذبيح بإسحاق، لأنه جدهم أما العرب فيركزون على إسماعيل لأنه جدهم[12]. والملاحظ هنا أن عدة أعلام من السلف، في مجال التفسير، يأخذون جَمهرة معلومات عن أهل الكتاب لأنها مسلمات بديهية، ولا يقدمون أية حجة أو تعليل لسبب هذا الأخذ والاقتباس أو التناص (INTERTEXTUALITY).

7 ـ سورة الصافات، الآية 102.

8 ـ سورة الصافات، الآية 112.

9 ـ يحتاج نقل هذه الأسماء من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية دراية عميقة بالأصوات التي تنطق أو لا تنطق وطريق نطقها بالنسبة للِّسانيات ـ المنبع، لأنه وقع تحريف كبير في العديد من الأسماء نتيجة للجهل عند بعض المترجمين.

10 ـ يراجع كتاب: APPROACHES TO THE QURAN حول عدة جوانب من هذا الموضوع.

11 ـ IBIDEM. P. 240.

12 ـ أسكن إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر وابنها إسماعيل قرب البيت المحرم. كانت المنطقة قاحلة لا فلاحة بها. وقع هذا بأمر من الله وتكليف منه لإبراهيم. قدمت قبيلة جرهم من اليمن تبحث عن الماء، فوجدت إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر.. اختلطت بهما، فكانت بداية العرب العاربة والمستعربة بالمنطقة.

يقدم ابن كثير إسناداً ضعيفاً لذبح إسحاق، الأمر الذي يجعل الطبري يرد هذا العمل إلى الإسرائيليات. إذن نحتاج في هذا الصدد إلى منهجية تحليلية استدلالية معللة ومبررة، ترتبط بظروف التنزيل وأسبابه.

نجد أن بعض استدلالات (DEDUCTIONS) المفسرين تنبع من خلال استخراجهم لعدة براهين أثناء القراءة للذكر الحكيم. كما أن طائفة منهم تعتمد على قصة (آزر) والد سيدنا إبراهيم، عند ورودها في (أحاديث بني إسرائيل)، وآخرون يقصون بعض المعدات والأنماط الخطابية[13] المتعلقة بهذه الأحاديث وقيمتها في توضيح الممارسة الدينية، ونجدهم لا يبرزون الفائدة والمنفعة منها، مما يجعلهم ينغمسون في الوصف الشكلي، الذي لا طائل من ورائه في بناء «الدلالات القرآنية»، علماً بأننا نجد عدة مفسرين يفيدون الأمة الإسلامية جيداً بمناهجهم التحليلية وإتقانهم لأحاديث الأنبياء.

13 ـ هي أجناس القول الفكري التي فيها ذهنية وتأمل وحجج حول موضوع محدد.

قصة أهل الكهف
والتفسير العلمي

فرضيات الموضوع:

كيف يتجلى «الطرح الرباني» الخارق «للقصة الدينية» من خلال «سورة الكهف»؟ ما دلالة «القصص العجائبي» في كتاب الله؟ ما العلامات السيميائية التي تقدّمها لنا السورة المذكورة؟ كيف يظهر «المسار التوحيدي» في هذه القصة؟ ما التفسير العلمي الذي يقدمه لنا المحيط بالنسبة لسورة الكهف؟.

القصة الدينية في الذكر الحكيم:

إنها تتميز بتقنيات ورموز خاصة، يقل مضارعها في الكتب السماوية السابقة، حتى ولو تطرقت إلى نفس الموضوعات "THEMES". نصادف «طرحاً ربانيا» لا مثيل له في هذا الجنس الأدبي، ضمن قصة «أصحاب الكهف» عن طريق:

1 ـ طرح شمولي أولي للقضية.

2 ـ عرض «عقدة» القصة وتفسيرها.

3 ـ استخدام تضمينات "CONNOTATIONS" وأنماط من التناص "YTILAUTXETRETNI" الوعظي[1].

4 ـ استشراف الفضاءات «الزمان + المكان».

1 ـ تظهر مستويات التناص في بعض الآيات المتشابهة والمتخالفة، إذ يحدث بينها التداخل والتقاطع. استخدمنا في دراساتنا السابقة مفهوم التجاذب GRAVITATION لقد وظفنا صياغة صورية لبلورة مفهومنا الخاص.

تنطلق «سورة الكهف» بسرد رباني عجائبي.

يتمثل في استخدام «معجم قصصي ديني» يؤسس جملاً مدهشة، كما في الآيات 8 ـ 12 إيواء الفتية إلى الكهف، الضرب على آذانهم، سنين عدداً، بعثناهم، لبثوا أمداً...

ينبع «القصص العجائبي» الخارق في القرآن الكريم من «قدرة» أو سلطة قدسية معجزة. يتغيّا هذا القصص تقديم الخبر اليقين والموعظة واستخلاص العبرة السارية[2].

تضم «سورة الكهف» معجماً سيميائياً "SEMIOTIC" يشير إلى عدة دلالات في حياة الأمم:

أ ـ النوم الطويل في الكهف وعلاقته بالمحيط.

ب ـ البعث من جديد لرؤية الاختلاف في العباد والبلاد.

ج ـ رمز أمد البقاء وعلاقته بالتوحيد.

د ـ دلالة «نسق عدّ الأزمنة» بواسطة الشهور القمرية.

تجسد هذه القصة القرآنية عمق الإيمان عند مجموعة من الشباب، واتجاه بعض الشيوخ إلى الكفر والباطل وعبادة الأوثان، في عهد الملك دقيانوس[3]، فاستخدام العقل وتأمل العالم الخارجي عند بعض الشباب قد جعلهم يتميزون عن الشيوخ الجاهلين، الجاحدين لعظمة الخالق، رغم طول تجربتهم وخبرتهم في الحياة.

تسلك طريقة «القصص القرآني» في «سورة الكهف»، «مساراً توحيدياً»؛ إذ أن الحبكة وعناصر العقدة تروم تجسيد زيادة الهدى، الربط على القلب، الدعوة إلى الله، نشر الرحمة، تهييء مرفق، ولاية الله وإرشاده.

التفسير العلمي:

أوى الفتية إلى غار، يقع في جبل يشرف على الوادي. يتفق العديد من المفسرين

2 ـ يتجلى مفهوم «القصص العجائبي» في كتاب الله، من خلال تجسيده لآيات ربانية إبداعية خارقة، تتجاوز طاقات البشر: خرق قواعد تسلسل الأحداث والأزمنة، إحداث بعث جديد لمخلوقات معينة، لا يمكن مقارنة هذا المفهوم ذو المضامين والرموز الإلهية بالطروحات «الوضعية» التي سطرها فلادمير بروب في هذا المجال.

3 ـ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 3، ص 71 وما بعدها.

والرواة حول هذا التحديد الجغرافي، أمثال ابن عباس، قتادة، الضحاك، عكرمة، مجاهد، العوفي، ابن جريج. إنهم يرسمون معالم المنطقة التي التجأ إليها الفتية. تتصف هذه الأرض بأنها جبلية، تختزن طاقة مائية جوفية هائلة، تتسرب إلى أعماق الوادي، مما يساعد على استمرار الحياة ودَوَامِهَا وبقاء الأجسام على سيرتها الأولى، دون أي تحلل أو تآكل.

إن الحيوانات التي تتعرض «لسبات الشتاء» تتغذى أعضاؤها على المياه المخزنة في المحيط، عن طريق «ذرات» تسافر في الهواء. تخلق هذه العملية العلمية «ملقحات للأجسام»، وهو ما تعرضت إليه أجسام ملوك الفراعنة، التي لم تتحلل أو تتآكل لحد الآن.

قام الفتية من نومهم الطويل في فصل الصيف، حيث تنشط «ذرات الماء وحبيباته» فتسخن وتلقح أعضاء الكائن «الخامل»، الذي يتعرض «لموت نسبي». بعثت هذه «الذرات المائية» الحياة والحركة في أجسام الفتية النائمين، فقاموا بإنجاز بعض الأفعال والأعمال.

تقدم لنا أيضاً «سورة الكهف» المطهرة تفسيراً علمياً بارزاً، من خلال دور الشمس في الحياة وهيئة الأشكال والأجرام السماوية. نجد في القصة بعض الحقائق العلمية الخاصة بهذا الموضوع:

1 ـ مواجهة باب الكهف للشمال: تدخله أشعة الشمس عند طلوعها فتتقلص الظلال إلى جهة اليمين. تقدم هذه العملية مقاسات دقيقة، حسب هندسة المكان والزمن.

2 ـ الغروب: يجعل الشمس تدخل الكهف من ناحية المشرق كما تبرز ذلك الآية (17).

3 ـ الفجوة: تبرز لنا علمياً أن أشعة الشمس كانت تلج من كوة في الجدار، مما يحافظ على صحة وسلامة الحياة في المحيط:

أ ـ عدم الضرر أو إحراق أجسام النائمين.

ب ـ المحافظة على سلامة اللباس، دون تآكل أو رطوبة.

ج ـ حماية وتنقية تربة وهواء الكهف.

إن وجود هذه «الفجوة» في الجدار قد ساعد على صحة المكان ونقائه، فمنظر الفتية يبرز أنهم كانوا أيقاظاً نظراً لعدم انطباق عيونهم. يمثل هذا الأمر حقيقة علمية أخرى

يقدمها لنا كتاب الله، فعدم انطباق العيون النائمة لسنوات طويلة قد جعل الحياة تستمر داخل الأعضاء الأخرى، مما نشط دورتها بشكل بطيء، فلم تتعرض للفناء.

تقدم هذه «القصة الدينية» جانباً فريداً من نوعه في مجال السرد؛ إذ تعتمد على «الارتداد الزمني» الذي ينسج عدة روابط بين أحداث متباعدة الفضاءات.

يؤسس هذا العمل رموزاً خارقة:

1 ـ عدم الريب في القدرة الإلهية.

2 ـ صحة بعث الأرواح بمعية أجسادها.

3 ـ يقين حصول القيامة.

إن توظيف «الارتداد الزمني» في القصص القرآني يؤكد لنا أن العلم والغيب، يكون أمرهما عند الله سبحانه مثل:

أ ـ عدد سنوات البقاء في الكهف.

ب ـ عدد الفتية والكلب.

ج ـ غيب السموات والأرض.

د ـ الفعل والنسيان عند البشر[4].

تحدد «القصة الدينية» من خلال «سورة الكهف» أن عدّ الأزمنة بالشهور القمرية لتمييزها عن الشمسية[5].

يغيب التفسير المنهجي بالنسبة لعدة تفاسير قديمة، حيث نجد كثرة الروايات المتداخلة غير المعللة والسطحية، كما عند ابن كثير:

1 ـ الرقيم: الوادي: «فقال العوفي عن ابن عباس هو واد قريب من إيلة»، وقال سعيد ابن جبير «الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف[6] وهو قول إنشائي لا يستخدم الاستدلالات العلمية.

---

4 ـ تجسد هذا الآيتان 22 ـ 32.

5 ـ يبرز ذلك من خلال الآية 25.

6 ـ ابن كثير مرجع مذكور، ص 75.

2 ـ السرد الأجوف: استعمال تضمينات بها كلام فارغ طويل «روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة همام بن الوليد الدمشقي حدثنا صدقة بن عمر الغساني، حدثنا عباد المنقري سمعت الحسن البصري يقول: اسم كبش إبراهيم ـ عليه السلام ـ جرير، واسم هدهد سليمان ـ عليه السلام ـ عنفز، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير، واسم عجل بني إسرائيل عبدوه يهموت».

إن مثل هذه التضمينات والروايات تحتاج إلى تمحيص واستخدام وجهة النظر الحدسية، فقد تحوي بعض الإسرائيليات أو المعايير المزدوجة.

معجم البحر
في القرآن الكريم

عتبات الموضوع:

كيف يجسد «معجم القرآن الكريم» المظاهر الدلالية بالنسبة لمفهوم «البحر»؟ ما الحوادث والأسرار العجيبة التي يضمها هذا الفضاء؟ كيف يظهر التقابل والترادف المعجميَانِ في كتاب الله بالنسبة للبحر؟ ما الدلالات التي يقدمها لنا مفهوم «اليم» في التنزيل؟.

مفهوم «البحر» في الذكر الحكيم: يرمز هذا المفهوم في «معجم القرآن الكريم» إلى عدة مظاهر متنوعة، منها:

أ ـ الأفق الشاسع.

ب ـ الظلام.

ج ـ تلاطم المحتوى.

د ـ كثرة الكمية.

هـ ـ الخضوع للمدّ والجزر.

يبين لنا كتاب الله الكريم بأن البحر هو فضاء للرحلة عن طريق السفن المتنوعة الصنع والأحجام، فهي تمخر عبابه الخطير. تظهر «بلاغة القرآن» خارقة في هذا الصدد؛ إذ تقدم صوراً بيانية لأمواجه ومداه ومحتواه[1]. يثير هذا الفضاء المترامي العديد من الحوادث.

1 ـ نقصد بها صور اللفظ والمعنى (صور سمعية + صور ذهنية)، تقدم «دعايات وتفجرات دلالية» للصوت العربي المنطوق والموقع المناسب داخل الجملة والفضاء المثير..

فهو يمثل قبراً «متحركا» للسفن والإنسان والمخلوقات العجيبة التي انقرض أغلبها. إنه يضمر أسراراً لا حصر لها. لذلك فهو يؤسس «علماً غيبيا» لأن مكنوناته ما تزال مستغلقة في أغلبها بالنسبة للإنسان والتقنيات العلمية المعاصرة.

يصف الله سبحانه هذا الفضاء المائي الضخم بأنه يشكل مجالاً للعمل وطريقاً للسفر والنزهة. يسيّر جلّت قدرته العمل والمخلوقات في هذا الأفق بتدبيره المحكم. كما يعرّفنا سبحانه أيضاً أنه قد يشكل مجالاً للفساد والفتن والأمراض، أو الخيرات والنعم التي تساهم في النمو والتطور.

تتردد في «معجم القرآن الكريم» عدة كلمات مترادفة أو متقابلة أو واصفة لمفهوم «البحر»، نجد:

1 ـ ظلمات ـ لجيّ[2].

2 ـ طريق ـ سبيل[3].

3 ـ يسيّركم ـ حملناهم ـ سخّر لكم[4].

نجد أيضاً في هذا الصدد عدة أفعال تصف أحداث البحر، في أزمنة معينة، مثل: فرّقنا بكم البحر، أضرب بعصاك البحر، اترك البحرَ رهواً، وإذا البحار سجرت، وإذا البحار فجرت، يمده من بعده سبعة أبحر.

المترادفات: يضم «معجم البحر» الوارد في القرآن، عدة مرادفات، مثل: اليمّ، موج (لجّة / لُجج)، يمخر / مواخر، سفينة ـ (المنشآت ـ الجواري ـ الأعلام)[5].

ترد كلمة «اليم» كمرادف للبحر، لكنها تتميز عنها ببعض السمات والخصائص الدلالية التي تشير إلى أن «اليم» هو عبارة عن فضاء مائي للنفي والنبذ والعقاب.

يحدد البارئ جلت قدرته في هذا المنحى فضاء اليمّ بأنه خاص:

---

2 ـ سورة النور الآية 40، سورة الأنعام الآيات 63، 97.

3 ـ سورة طه الآية 77، سورة الكهف الآية 64.

4 ـ سورة يونس الآية 22، سورة الإسراء الآية 70، سورة الجاثية الآية 11.

5 ـ ترد هذه الكلمات ضمن عدة تشبيهات بلاغية.

1 ـ بقذف شيء معين، بغية التخلص منه[6].

2 ـ بإغراق وطمس معالم معينة.

3 ـ بالسيطرة والإحاطة من كل جانب.

4 ـ بالنسف والقضاء المبرم[7].

5 ـ بالنبذ والاختبار الرباني[8].

يوظف «معجم البحر» الموجود بالقرآن العظيم كلمة «موج» أو ما يرادفها (لجّة، لجّي) كإحدى مكونات البحر في مختلف سياقاته وتأويلاته الرمزية.

ترد هذه الكلمة بصيغة المفرد، لكنها تدخل في بناء عدة صورة فنية بيانية فريدة من نوعها بلاغياً، إذ أنها تخلف عدة إيحاءات ورموز. كما يستعمل معجم البحر في كتاب الله العزيز كلمة «مواخر» بصيغة الجمع، ولا نجد لها فعلاً (يمخر) كقول بعضهم: «يمخر عباب اليم المتلاطم اللجج». تصاحب هذه الكلمة دائماً في تركيبها القرآني كلمات «الفُلك». إنه بناء لساني، نظراً لخصوصيته النحوية والصرفية والبلاغية.

يستخدم هذا المعجم مرادفات أخرى Synonyms مثل سفن، منشآت، جواري، اعلام.. يوظف كتاب الله الكريم كلمة «سفينة» في المفرد، ولها مرادف واحد هو «المنشآت» التي استعملت له تشبيهات مثل: الجواري، الجبال (الأعلام)، والله أعلم.

---

6 ـ سورة طه الآية 39.

7 ـ سورة طه الآية 97.

8 ـ سورة القصص الآية 40.

مسائل في حضرة فقيه الحي

فرضيات المسائل:

كيف كان فقيه الحي يربط بين الأخلاق والعلم؟ ما علاقة السياقات والظروف المعاصرة بالمسائل الدينية التي كان يعالجها فقيه الحي؟ ما الموضوعات[1] والقضايا التي كان المؤمنون يسألون عنها الفقيه؟ ما المذهب الإسلامي الذي يستند إليه الفقيه في أجوبته أو فتاويه؟

محتوى المسائل:

لم أر مضارعاً للفقيه «غواوزا» في كل أحواز مراكش، من حيث الأخلاق والعلم. كان حليماً وضليعاً في آرائه وفتاويه الدينية المالكية[2].

تلهج ساكنة كل الوهاد والبطاح المحيطة بمدينة مراكش الحمراء بذكره والثناء عليه.

كان يهل علينا بوجهه البشوش الصبوح بعد صلاة كل عصر، من شهر رمضان المعظم كلنا نجلس بباحة مسجد «المواسين» ننتظر طلعته البهية بفارغ الصبر ليفقهنا في أمور ديننا

1 ـ نقصد به التعبير النحوي المنطقي: المستند إليه أو القضية.

2 ـ كانت مصادره المالكية من المغرب والأندلس وتونس. نجده يذكر أحياناً: البرزلي، أبو محمد الشبيبي، المتيطي الحافظ، أبو العباس البطرني، أبو الحسن الشاذلي...

ودنيانا، التي تتغير سياقاتها وظروفها. كنت أحرص على اتخاذ مكان دانٍ من منبره المزخرف[3]. يشرع دائماً في صولاته الدينية واجتهاداته القياسية الميدانية بالبسملة والحمدلة. تتقاطر عليه الأسئلة من حشود الحاضرين وبعض زملاء دربي. كانت الأسئلة تدور حول:

أ ـ المواشي.

ب ـ الطلاق.

ج ـ النفقة على الوالدين.

د ـ الهبة والوقف.

هـ ـ إخصاء بعض الحيوانات.

طلع علينا الفقيه «غواوزا» في عصر أحد أيام رمضان الكريم بثياب ناصعة البياض. دخل المسجد بتأنٍ.

اعتلى المنبر بتوأدة. همهم ببعض الأدعية.. بدأت الأسئلة تنهال عليه من جمهور المؤمنين الحاضرين. سأله أحدهم قائلاً: منذ فترة قصيرة كنت قد أقسمت ألا أستخدم المواشي، المتنوعة الروائح في منزلي. قام ابني الأكبر فأدخلها خلسة، دون علمي. فهل يعدُّ قسمي حنثاً.

اعتدل الفقيه «غواوزا» في جلسته ثم تنحنح وأجاب: «لا يعدُّ أيها الأخ في الله قسمك حنثاً لأنك تقدر على إخراجه أو طرده أو إيذائه»[4].

كان الجميع ينصت بشغف وكأن على رأسهم الطير. تحرك أحد الزملاء قليلاً وسأل: «لي أخ يا سيدي غواوزا يتميز من الغيظ كلما لقي زوجه تحدث أقاربه من الشبان فيضربها ضرباً مبرحاً، مبيتاً لطلاقها. فهل يعدُّ عمله هذا أصلاً للطلاق؟».

مسح الفقيه بكل هدوء وثقة لحيته ثم رد قائلاً: «يا حضرة الأستاذ المحترم هذا الفعل لا

---

3 ـ تتبع الهندسة المعمارية وتأثيث المساجد في المغرب لحضارة الأندلس، وتختلف عن المؤثرات التركية الواضحة في البلاد العربية الأخرى.

4 ـ ينظر كتاب (المسائل المختصرة من كتاب البرزلي) الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن الزليطني.

يعد طلاقاً لأنه لم يصرح بالكلمة لفظاً أو يلمح إليها لغوياً».

يتردد صوت الفقيه «غواوزا» بين جنبات مسجد (المواسين) جهورياً، صافي النبرات والنغمات. يسأله أحد المراكشيين الشباب قائلاً: «والدي شيخ ضرير معوز وإخوتي كثيرون. فهل أنفق على كل واحد منهم ليحسن وضعه الاقتصادي؟». ابتسم الفقيه ومرر منديلاً مطرزاً على جبهته وأجاب: «النفقة واجبة يا ولدي على الوالد المحتاج حسب استطاعتك ولا دخل لعدد إخوتك أو تحسين أوضاعهم بالأمر».

كان الجَمْعُ يتزايد حتى غصت باحة المسجد فأصبحت الكتف على الكتف. تقدم أحد القرويين وسأل الفقيه: «عمي يقول دائماً: محصول مزرعتي هذه السنة هو لمسجد «المواسين». فهل تأخير بيع المحصول يغير من الأمر شيئاً؟». أجابه الفقيه وهو يمعن النظر أمامه: لا يغير هذا من الأمر شيئاً. يتم البيع ويدفع المبلغ المقدر للمسجد، ولا إجبار في ذلك. فلا يسقط القول أو يفسخ البيع ولو تأخر».

كنت أستند إلى جدار المسجد، أنصت إلى البعد التحليلي المتحرر لهذا الفقيه الشاب. قال أحد الحاضرين سائلاً: رأيت بعض الأشخاص بأحواز مراكش يخصون بعض الحيوانات، فما قولك في هذا يا سيدي «غواوزا»؟.. نظر إليه والبسمة تعلو محياه الوضاء وأجاب: تجوز ممارسته عند تكاثرها؟ نجد حالياً تجارة واسعة في هذا المجال بين الآدميين وهو حرام لأنه يثير البدع والشوك[5].

غاب الفقيه «غواوزا» عن الأنظار منذ فترة طويلة فأصبحنا نقف مكتوفي الأيدي في زمن العولمة وفوضى المفاهيم. صار بعضنا يجدف بعدة فهم عن جهل وضلال وغياب رجل الدين المتنور الورع، الذي يهدينا إلى سواء السبيل.

والله أعلم.

---

5 ـ المرجع نفسه، ص 176.

سارق السحور

هذه المنازل التي ترسم فضاء حي «الطونية» بمدينة قلعة السراغنة كلها عامرة وجميلة الهندسة والمنظر، إلا ذاك المنزل القصير المبني بالطين الأحمر. إنه جزء من الممتلكات المتعددة للأرملة المعروفة «حادة العسولية». يحمل هذا المسكن رقم 472.

كُتبَ العدد بأرقام هندية لونها أزرق باهت، على لوحة من قصدير. أرضها بيضاء. تسرب إليها البلى والقدم. أبوابه أُغلقت منذ عشرات سنوات خلت. نوافذه مطعمة بلون أخضر غامق، يعلو خشبها وحديدها الصدأ والغبار الكثيف.

انتقلت «حادة العسولية» للإقامة بالدار البيضاء، لكنها ما زالت تتفقد ممتلكاتها بالمنطقة في شهر رمضان كل عام. تتصدق على الفقراء بعد صلاة القيام من كل جمعة. تعشق دائماً سماع أدعية الحاج «رحال الفطواكي» محافظ «الزاوية الكتانية». يتعالى صوته بعد كل «تهجد» ذاكراً: يا عماد من لا عماد له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا سند من لا سند له، ويا كنز من لا كنز له، ويا عز من لا عز له يا كريم العفو، يا حسن التجاوز، يا عون الضعفاء، يا كنز الفقراء، يا عظيم الرجاء، يا منقذ الغرقى، يا منجي الهلكى، يا محسناً، يا مجملاً، يا منعماً، يا مفضلاً. أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء القمر وشعاع الشمس وحفيف الشجر وخرير الماء يا الله: يا الله، يا الله، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، يا رباه، يا الله، صلِ على محمد وآل محمد، وافعل بنا ما أنت أهله، يا من يكفي من كل شيء ولا يكفي منه شيء، اكفني ما أهمني.

لا تشبع «حادة العسولية» من سماع هذا الدعاء. تجزل العطاء للفقيه «رحال الفطواكي». تتمنى تلبية كل طلباته. هذا الدعاء فرّج كربتها ولهفتها ومسح حزنها وأزال بلوتها كل مرة تلجأ إليه.

يحكي الجيران أن المنزل المهجور بحي «الطوانية» يسكنه الجن. بعض الناس يسمعون الحكاية فيصدقونها وبعضهم الآخر يرفضها من الأساس.

جاء «عزوز الونسدي» يسعى من ضواحي المدينة. وفد إليها زمن الجفاف الذي أصاب المنطقة فهلك الزرع والضرع. حصل على عمل بسيط بمطاحن «تساوت» المنتصبة عند أعتاب المدينة. بحث كثيراً خلال شهر رمضان المعظم سنة 1975 عن منزل متواضع يؤجره لأسرته. سأل جل الناس بشأن هذا الموضوع. أعلم سماسرة الإيجار وأصحاب الدكاكين بموضوعه. أشار عليه بعضهم بمقابلة وكيل «حادة العسولية». زاره بمنزله بحي «العرصة» بعد صلاة القيام. تناقشا ملياً سعر الإيجار وإصلاحات المنزل. اتفقا في النهاية. فارقه «عزوز الونسدي» وعاد إلى أهله. الجو كان جميلاً صحواً. طقس المدينة حار كل صيف! دافئ كل شتاء.

تكثر الحركة بالمدينة بعد صلاة العشاء في شهر رمضان. ينشط البيع والشراء بكل الدكاكين والقاعات والأسواق وحوانيت العطارين. المطبخ المغربي يستنزف كل توابل وبهارات الأسواق خلال الشهر الكريم.

توضع بالشوارع الكبرى والساحات العامة حواجز حديدية، تمنع السيارات من الدخول. يتحرك الناس داخل هذه الفضاءات بكل حرية وراحة تامة. ينظم المجلس البلدي المنتخب سهرات رمضانية متنوعة وإقصائيات رياضية كثيرة بين فرق الأحياء. تتعدد الأمداح والأذكار الدينية بالجوامع والزوايا تعدد الطرق الصوفية[1]. تتعالى فنون الإنشاد والسماع الديني في جو يعبق بأنواع البخور والمأكولات المعروفة في الشهر الأبرك.

---

1 ـ من أشهر هذه الطرق الصوفية: العيساوية، الكتانية، التيجانية، القادرية، الشاذلية، الذرقاوية...

يختلف سكان هذه المدينة، التي تشهد توسعاً عمرانياً أخطبوطياً، من خلال الهوايات والإعمار والأعمال، لكنهم يجدون جميعاً متنفساً كافياً في الساحات العمومية والمركّب الرياضي والشوارع الكبرى بعد صلاة القيام[2]. الفسحة والفرجة قائمتان وحاصلتان.

ينقل «عزوز الونسدي» أثاثه إلى منزل «حادة العسولية». يدفع إيجار شهرين مقدمين. تكنس زوجته «زهور» المنزل برمته. تغسل كل الغرف والنوافذ. تقضي العائلة ليلتها بالمنزل مستريحة هانئة. يذهب «عزوز الونسدي» إلى عمله بمطاحن «تساوت» فرحاً، نشيطاً، متفائلاً وكأنه يملك العالم بأسره. يعود بعد صلاة العصر متعباً. يحمل مشتريات كثيرة: بقوليات لإنجاز «الحريرة»، أرغفة متنوعة، حليب، بيض، تمر، نعناع جيد النوع[3]. تتناول العائلة إفطارها بعد سماع «صفارة الإفطار»[4] المنتصبة فوق برج قصر البلدية.

تذهب «زهور» وابنتها «سعاد» وابنها «محمود» لزيارة بعض الجيران. يغادر «عزوز الونسدي» المنزل لصلاة العشاء والقيام، تعود العائلة. يجد الزوج زوجته غاضبة لا يقر لها قرار يسألها:

* ماذا حدث؟. لمَ أنتِ منفعلة بشدة، ولا تتوقفين عن تفتيش كل الغرف؟.

تجيبه بصوت منفعل:

* لقد سُرق طعام السحور.

* لا يصدق الرجل قولها. يرد عليها مستغرباً:

* كيف يقع هذا والباب مغلق بإحكام، وليس للمنزل منافذ أخرى يمكن للسارق أن يتسلل منها؟. يستغرب كل أفراد الأسرة وقوع هذا الحادث. بعد نقاش طويل عديم النتيجة تخلد العائلة إلى الراحة والنوم، منتظرة وقت السحور. فجأة تصيح البنت وتقفز هاربة من سريرها. يستيقظ أخوها «محمود» مذعوراً يسألها:

2 ـ تسمى صلاة التراويح بالمغرب.

3 ـ النعناع أصْنافٌ وأشكال. تطلق عليه نعوت تبعاً للملمس والرائحة أو المنطقة التي يزرع بها.

4 ـ نجد أحياناً مدفع الإفطار! والمؤذن الدائم الحضور.

ـ ما بكِ؟ لماذا تصرخين في هذا الوقت من الليل؟

تجيبه وهي تضع يدها على خدها:

* لقد صفعني أحدهم.

يأتي الأب والأم مسرعين. تعيد على مسامعهما ما حدث.

يستنتج الأب من خلال سرقة طعام السحور وصفع البنت قائلاً:

* هذا المنزل يسكنه الجن. يجب أن أناظرهم.

يسمع صوتاً قوياً دون أن يرى صاحبه:

* هذا المنزل يعد مأوى لنا منذ أزمنة بعيدة. غادروه.

يرد عليه «عزوز الونسدي» بنبرات فيها تحد:

* هل تريد أن تكون فاسقاً. تتعدى الحدود والقيم مثل سلفك إبليس الذي فسق عن أمر ربه؟.

يجيبه الجني الذي لا يظهر شكله ولكن يسمع صوته قوياً:

كنت أعلم أنك ستأتي لمزاحمتي في السكن بمنزل «حادة العسولية». لذلك سعيت إلى محاربتك.

يجابهه «عزو الونسدي» حانقاً:

أنت كذاب. إنك لا تعلم شيئاً. العلم لله وحده. أجدادك لم يعلموا موت سليمان. لماذا لا تظهر؟.

هيا ابرز لي وناظرني من خلال كتاب الله المصون.

لماذا تهز الأشياء وتهز ما يحيط بك؟ كن متزناً، احذر تجاوز سلطان الرب الأعلى. يتحرك الجني في عدة أماكن. تبرز الحركة الشديدة انفعاله وعدم ضبطه لأفعاله. يصرخ:

أنا متزن. أنا صاحب هذا المنزل.

يجيبه «عزوز الونسدي»:

أنت لص. تسرق طعام سحور الفقراء. احصل على طعامك بعرق جبينك. العمل

شرف. لو كان سيدنا سليمان حياً الآن لما استطعت القيام بالسرقة. فالسجن بالقمقم ينتظرك ولو بشهر رمضان.

يسكت الجني برهة ثم يرد بأسلوب مراوغ:

* أريد أن أعيش وأطعم أولادي! إذ لا أجد شيئاً بالخارج خلال شهر رمضان.

يتوق «عزوز الونسدي» إلى إرجاعه عن ضلاله قائلاً:

* هذا العمل الذي قمت به يجعلني أسعى إلى قطع يدك! لأنك سارق. اتق الله، فهو يقول ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

واقرأ قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾

* لا يجيب الجني. يظنه «عزوز الونسدي» قد غادر المكان. يدخل غرفته ليستريح حتى موعد السحور. في اليوم التالي، يقابل «عزوز الونسدي» جاره الحاج «الصبيحي» الذي يسلم عليه ويبادره بالسؤال:

* اليوم، عندما اشتريتَ مني بعض الأطعمة الرمضانية كنت أريد أن أسألكَ عن سر كل هذه الكمية.

يرد عليه «عزوز الونسدي» بسرعة:

* أنا لم أشتر اليوم منك أية أطعمة رمضانية؟.

يبهت «الصبيحي» ولم يعرف ماذا يقول. يسرع «عزوز الونسدي» إلى المنزل. يصل إليه وهو يرغي ويزبد. يصيح بفناء المنزل. يستغرب أفراد العائلة فعله غير المعتاد. يصيح بلسان عربي مرة ثانية:

* هيا اخرج وناظرني بدستور الإسلام. كنت سريعاً في سرقة سحورنا. صفعت بنتاً بريئة. اختلست أطعمة رمضانية من دكان «الصبيحي» وسجلتها في دفتر الديون باسمي. لقد أحرجتني. إنك عفريت من أقوى الجن. لكنك لست شهماً وكادحاً.

* لو كنت فعلاً جنياً ابن أصول اشتغل واكسب قوتك بعرقك. لا تستغل إنسياً فقيراً. سأحاربك وأجلدك بالتلاوة المستمرة لكتاب الله في كل أرجاء منزل «حادة العسولية». سأرتل كل يوم دون هوادة سورة الفاتحة البقرة الآيات: (1، 4، 163، 164، 285، 286) آل عمران الآية 18 الأعراف الآية (54) المؤمنون الآيتان: (115، 118) الصافات (1) إلى (10) الحشر (21) إلى (24) الجن (1) إلى (3) الإخلاص المعوذتين.

فما رأيك؟. إذا كنت جنياً متهوراً لا يخشى سلطان كتاب الله! حاول أن تبقى وسترى عاقبتك.

يصيح الجني:

ـ أرجوك ارحمني! سامحني!

يرد عليه «عزوز الونسدي»:

* هل رحمتَ، أنت عائلتي. سطوتَ على سحورنا. صفعتَ ابنتي. اختلستَ أطعمة رمضانية من الدكان! متقمصاً شخصيتي.

يهتز المكان. ترتج أرجاؤه. يسود بعدها هدوء شامل.

في اليوم التالي، تجد الأسرة أطعمتها الرمضانية قد أعيدت إليها. يصيح عزوز الونسدي:

* اللهم أدم علينا حفظ القرآن ليخيف الضالين من خلقك.

مناظرة عقل باطن

متسيّب في رمضان المعظم

لِمَ تحملق بغلظة يا «كبور الشاوش» في شريط أيام شهر رمضان المقوم لعمرك المتساقط منذ السبعينيات الخوالي؟.

يتناهى إليه رجع هذا الصوت. يجلس فوق حطام الحجارة المتهالكة عند أقدام جامع الكُتْبِيَةِ. كان ينتظر بصبر فيه تحد للجوع وللعطش، صلاة العصر بالجامع، يتناهى إليه رجع الصوت مرة ثانية.

ـ تأمل بتأنٍ. ها هو الشهر المبارك يجوب ذاكرتك المشروخة كل عام بالطول والعرض، مقدماً لوحات زاهية لمدينتك «الحمراء»[1]، تشبه معروضات «اللوفر»[2]، وأنت ما زلت تصارع حصانك الذي يجر هذه العربة المزخرفة التي تطوف بها مدينة مراكش، مترصداً السياح في شهر التوبة.

يسرح «كبور الشاوش» بحصانه وعربته، ناقلاً السياح بين مآثر مدينة مراكش. يوجهه الحصان، وهو يترنح فوق الكرسي. يغالبه النوم. يغفو برهة. يشخر بتقطع والحصان الأحمر المدرب على طرقات المدينة، الراقص فوق بلاطها، «يخيط ويفصل الأحياء والدروب»[3]، ناشداً مرساة في كل رحلة. «كبور الشاوش» ينظر شزراً إلى المأكولات

---

1 ـ تحمل مدينة مراكش هذا النعت نظراً لهيمنة اللون الأحمر على مبانيها.

2 ـ يمثل اللوفر أكبر متحف في فرنسا. يضم لوحات نادرة تنتمي إلى عدة بلدان في المعمور.

3 ـ مثال مغربي يعني التسكع دون عمل أو هدف محدد.

المعروضة، آملاً حضورها على مائدة إفطاره مع زوجته «هشومة». ينبري له عقله الباطن مرة ثالثة ناصحاً ومقرعاً:

- إنني أبغض فيك يا زميلي مراقبتك للناس وتجسسك الدائم على أطراف ذاتك المترهلة، ناظراً إلى جيوبها وتضاريسها بعدم الرضا والقناعة. أنت تتحسر وتطارد الأسى «كجان فالجان»[4]، مازجاً نظراتك إلى عاصمة المرابطين خلال شهر الصيام بحنين دفين إلى مراوغة السياح. اتق الله يا «كبور الشاوش»، اللهم إننا صائمان مع بعض.

يغير «كبور الشاوش» سياطه لينوع وظائفها وموسيقاها تزلفاً للسائحين ومحاولة لاستخراج نقودهم.

يجب شراء الحلويات والتمر والحليب والبيض ليكمل ضروريات مائدة الإفطار كعادة كل المراكشيين.

تعد «هشومة» «الحريرة»[5] والقهوة والحليب، مثل كل المراكشيات، لتقديمها على مائدة الإفطار.

كل يوم يعيد الحصان والعربة و«كبور الشاوش» رسم خريطة المدينة المرابطية بنفس الألوان والمفاتيح.

يجابه «كبور الشاوش» عقله الباطن المتسيب في شهر الإمساك عن الكلام الدنيء البذيء، مذكراً إياه بصور بدوية رمضانية توظف «الفلاش باك»[6] لتلك السويعات النديات الحسان التي قضياها سوية ببقاع «الحوز»[7]. كان ينتظر الساعات قدوم «النفار» ليعلمها بحلول وقت السحور[8]. يمرض أحياناً «النفار» فلا يسمعان صوت «بوقه» النحاسي الأصفر الطويل.

---

4 - بطل رواية البؤساء للكاتب الفرنسي ڤكتور هيغو.

5 - أكلة مشهورة بالمغرب تقدّم على موائد الإفطار. وهي نوع من الحساء المكون من العدس والفول والحمص واللحم.

6 - استرجاع صور الماضي والارتداد إليه.

7 - تسمى ضواحي مدينة مراكش ونواحيها بمنطقة الحوز. كما أن الاسم يطلق على السهول المحيطة بالمدينة.

8 - سحور المراكشيين يتكون غالباً من خبز رقيق يطهى بالتنور ثم يمزج بالزبدة ويصاحبه الشاي الأخضر بالنعناع أو القهوة والحليب.

يأتي «الزمار» ليعوضه، لكنه لا يحتل مناطق نفوذه باستمرار. «للزمار» عمل بمزماره في مناطق محددة «وللنفار» آفاق لا يتجاوزها. الناس في مراكش يعرفون حدود نفوذ الاثنين[9].

يصبح «المونولوج» مجرد همهمة ضائعة المضمون تمتزج بوقع حوافر الحصان وتصطدم بالجدران الحمراء للمدينة. تتعارض باستفزاز مع العطش والجوع لسائق العربة.

يتضرع «كبور الشاوش» بهمس:

ـ اللهم ألهمني الصبر في هذا الشهر المبارك وألجم لساني عن كل قول مؤذ وعمل مشين يصيح بقوة، فيصيح به عقله الباطن يجفل المسكين[10].

ـ أنت أيها العقل الباطن المتسيب تزمع استفزازي، مستعملاً سياسة «الأبار تايد»[11] لتوقع بيني وبين شريط ذكرياتي في شهر رمضان بمراكش. أنت توقظ مواجع ذاتي وهمومها. إنني لا آمن جانبك، فأنت تناصبني العداء. تزعم أنني أتنصل من ذكراتي. أنا أحب رمضان بذكرياته وطقوسه المراكشية، حبي لتراب هذا الوطن.

أحب باحة جامع «الفناء»[12] العامرة بكل من هب ودب. أحب «حريرة» هشومة بالفول والعدس والحمص. أحب «ثريد» السحور بالسمن المخزن والشاي بالنعناع. فهل تراني أتنكر لهوية رمضاني المراكشي يا صاح؟.

يخاطبه العقل الباطن برجع صوتي ينجز قهقهة مديدة.

ـ أنت حربائي يا كبور ومراوغ لذكرياتك الرمضانية مستعملاً التورية[13]. تشتغل مع السياح بابتسامة صفراء تشبه ابتسامات سماسرة سوق «باب دكالة»[14].

9 ـ يبقى صوت المؤذن هو السردي الصامد في هذه الأوقات، علاوة على وجود «صفارة الإنذار» أو «مدفع الإفطار» المتسلل من عهد محمد علي بمصر. يقوم بعض سكان «أحواز» مراكش للسحور على صوت الناي التي يعزفها أحد المتطوعين من أهل القرية.

10 ـ حوار نفسي داخلي يخاطب كوامن الذات.

11 ـ سياسة تجسد التمييز العنصري.

12 ـ هي ساحة عامة عامرة آناء الليل وأطراف النهار. تجد فيها ما تشهيه النفوس وتلذه العيون.

13 ـ الإخفاء وإظهار عكس المبطن.

14 ـ منطقة كبريات الأسواق الرمضانية بمراكش.

يوقف «كبور الشاوش» الحصان في صف العربات المضارعة المتوقفة جانب رصيف «عرصة البيلك».

يستعد لأداء صلاة العصر. ينظر قبالة صومعة الكتبية. يتقاطر الناس من كل الجوانب. الكل يأمل سماع الدرس الديني الرمضاني المعتاد يلقيه الفقيه «الرحالي».

يظن العقل الباطن لـ«كبور الشاوش» أن صاحبه يبحث عن مضان شارد. يقهقه. لا يعيره «كبور الشاوش» اهتماماً. يتكاثر الصائمون الجدد من الشباب. يصومون أول رمضان في حياتهم بمراكش. يلتزمون بالصلاة في كل الأوقات. يسجل دخولهم عالم الصائمين بوضع «الحناء» المراكشية القرمزية اللون على راحة اليد اليمنى إيذاناً بالبلوغ.

يخال «كبور الشاوش» أن أعضاءه تصدر أصواتاً متصدعة. يوهمه عقله الباطن أنها لجمهور السائرين جنبه بساحات المدينة. يسير بممرات جامع الكتبية مسبحاً ومترنماً ببعض الأذكار والأدعية للبوصيري والشيخ الناصري[15]، المعروفة في شهر رمضان:

يا من إلى رحمته المفر ... ومن إليه يلجأ المضطر
يا قريب العفو يا مولاه ... يا مغيث كل من دعاه
بك استغثنا يا مغيث الضعفا ... فحسبنا يا ربي أنت وكفى
فلا أجل من عظيم قدرتك ... ولا أعز من عزيز سطوتك
لعز ملكك الملوك تخضع ... تخفض رغم من تشاء وترفع
والأمر كله إليك رده ... وبيدك حله وعقده
وقد رفعنا أمرنا إليك ... وقد شكونا ضعفنا عليك
فارحمنا يا من لا يزال عالماً ... بضعفنا ولا يزال رحيماً
انظر إلى ما مسنا من الورى ... فحالنا من بينهم كما ترى
قد قل جمعنا وقل وفدنا ... وانحط ما بين الجموع قدرنا

15 ـ خلف المرحوم الشيخ أحمد بناصر أرجوزة منظمة يرددها المغاربة في المناسبات الدينية. تعد الزاوية الدينية بمنطقة «تامغروت» المرجع الأساسي لأفكار الفقيه المذكور. كما أنها تضم العديد من المخطوطات النادرة.

واستضعفونا شوكة وشدة ... واستنقصونا عُدة وعِدة

فنحن يا من ملكه لا يسلب ... لذنا بجاهك الذي لا يغلب

أنت العناية التي لا نرتجي ... حماية من غير بابها تجي

أنت الذي نسعى بباب فضله ... أكرم من أغني بفيض نيله

أنت الذي تهدي إذا ضللنا ... أنت الذي تعفو إذا زللنا

تتردد ترانيم «كبور الشاوش» بين جنبات الجامع مع كل يوم. يحس بحلاوة تقوى الإيمان وعظمة الصيام. كل الشعائر الدينية الممارسة هداية وتوفيق من الرب سبحانه. ما أكثر النفوس الحائرة الشاردة التي تعانق نور الإيمان وحلاوة الصيام!. هدايتك يا رب لأبناء مدينتي وأمتي!

نقل إلينا «العمراوي» هذه المناظرة الرمضانية، حيث نبش في «أرشيف» الكاتب والحاكي، دون إعلام أو استئذان أو إخبار «كبور الشاوش» بما آلت إليه قصته مع عقله الباطن في شهر رمضان، أو يمنحه حرية الرأي.

يظهر أنه يحكي بتسلط يرتبط بالأساطير الإغريقية مثلما في الأوديسا والإلياذة.

هذا فراق بيننا وبينه.

أسس التفسير العصري
للقرآن الكريم

أوليات:

ما الصور التي يقدّمها لنا كتاب الله العظيم عن حياة العرب قبل الإسلام؟ ما نوع العلاقات التي يقيمها دراوزا في تفسيره بين طبيعة الوحي وتكوين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟ كيف يعالج هذا المفسر قوانين النص المقدس؟ لماذا يستشهد ببعض الأحاديث دون غيرها؟ ما هي براهينه بالنسبة لموضوع «جمع القرآن»؟ ما الجوانب المنهجية التي اعتمد عليها في تفسيره؟ ما دور الأصول والمعاني في تفسير كتاب الله؟[1]

كيف عالج موضوعات: الملائكة والجن، وظواهر الطبيعة، والقصص القرآني؟

القرآن الكريم والواقع:

إن كتاب الله قد عكس الحياة الإسلامية والعربية. كما أنه تحدث عن الأمم السالفة، وتعرض لسيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحلل وجوه الخلق في الكون.

لقد جسّد العلاقة بين الرسالة الربانية والبشر وطرق العبادة والجزاء في الآخرة. كما أنه قدم أيضاً صوراً حقيقية لحياة عرب ما قبل الإسلام من خلال:

أ ـ ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية.

1 ـ ينظر في هذا الصدد كتاب: APPROACHES TO THE QURAN وهو عمل علمي ضخم، كتب باللغة الإنجليزية، ينظم قضايا تحتاج إلى مناقشة وإعادة نظر.

ب ـ حياتهم الثقافية والعقلية.

ج ـ دياناتهم ومعتقداتهم.

د ـ عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والعرقية.

يرى «دراوزا» أن طبيعة الوحي تناسب طريقة تكوين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنها معجزة يصعب فهمها عن طريق العقلية البشرية.

يسعى المؤلف إلى تفسير الحياة الخاصة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتجربته مع الوحي. يستعين في ذلك ببعض الآيات الكريمة. يذكر بعد ذلك جمال الصور الفنية[2] التي تطبع القرآن والوحي عن طريق «لغة الرسالة». ينتقل دراوزا بعد ذلك إلى مناقشة الآيات التي تصف عملية الوحي ودراسة قوانين النص القرآني التي يعدُّها أساسية في التفسير. يستشهد بعدة أحاديث وقع تناسيها، نظراً لبعض التشيع والطائفية.

تصب هذه الأحاديث في موضوع تجربة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الوحي. يوظف المفسر في هذا الصدد مصطلحات فيزيائية. لكنه يذكر حديثاً غريباً مفاده أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يشغله كثيراً التفكير في رؤية الملائكة بصور إنسانية لتكلمه ويكلمها[3] . يفسر بعد ذلك الإدراك العقلي للملائكة عند سيد الورى.

يتعرض دراوزا في الفصل الثاني من كتابه إلى مسألة جمع القرآن مركزاً على ثلاثة جوانب:

1 ـ توفي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يكن القرآن قد جمع في كتاب «إن النبي عليه السلام توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء، وإن جمعه وترتيبه إنما تم بعد وفاته»[4].

2 ـ إحصاء اختلافات الصحابة في ترتيب وإضافة أو «حذف» بعض الآيات «وجود

---

2 ـ قامت الباحثة عهود العيكلي، في مقالاتها التي نشرت بجريدة الدعوة الإسلامية بمعالجة عدة جوانب من هذه المسألة.

3 ـ لا يصعد هذا الحديث عند مراقبة السياق اللغوي "CONTEXT" والمقام التداولي ـ القصدي -PRAGMATIC/INTEN "TION" لأقوال وأفعال النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ.

4 ـ "APPROACHES TO THE QURAN P.278".

اختلاف في ترتيب مصاحف بعض الصحابة وكلمات زائدة كتبت في بعض المصاحف ولم تكتب في المصحف المتداول، وآيات كانت تقرأ ولم تكتب[5].

3 ـ دوّن القرآن الكريم، ثم وقع جُمع آياته وسوره في حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «إن القرآن كان يدوّن وترتب آياته وسوره في حياة النبي عليه السلام وبأمره»[6].

يذكر «دراوزا» أن الجانبين (1 + 2) متناقضان ولا يجتمعان.

فالأطروحات الدينية والسياسية لم تساعد على البث في الأمر ساعتئذ. كما يرى المفسر أن الجانب الثالث هو الأكثر قبولاً لأنه متوازن ومتناغم مع الطرح الإسلامي الاتفاقي والظروف المحيطة به.

يقدم دراوزا جانباً رابعاً يتوصل إليه عن طريق بحثه وتقصّيه الخاص «لقد جمع النبيﷺ القرآن ورتبه بنفسه»[7]، مبرزاً حقيقة المعجزة الربانية الخاصة بالإسلام.

وهو ما ينفي إهمال جمع وترتيب «معجزة ربانية» إلى ما بعد وفاة صاحبها.

يخلص «دراوزا» إلى أن جمع القرآن وترتيبه، تبعاً للآيات والسور الموجودة في المصاحف المتداولة حالياً، هو من إنجاز النبيﷺ، أما عمل الصحابة فقد تجلى عندما:

أ ـ جمع أبو بكر ما بين اللوحين وكتبه على ورق.

ب ـ ثبّت عثمان الخط ووحد قراءاته.

ج ـ لم يتأكد أن أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب قد شاركوا في ترتيب تاريخي للقرآن الكريم.

يربط «دراوزا» جمع القرآن بفترة نسخه وتدوينه لأن العمليتين عاصرتا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما أن «المصحف العثماني» برسمه المتميز الذي نتداوله اليوم، قد أضاف، ما لم يدرج في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يقع النسخ أو التبديل بعد ذلك. إن الله ـ سبحانه ـ ينزل على أنبيائه أحسنه ليبلغوه.

5 ـ المصدر نفسه، ص 279.

6 ـ المصدر نفسه، ص 282.

7 ـ المصدر نفسه، ص 183.

تظهر منهجية تفسير دراوزا وطريقة فهمه للقرآن العظيم في الفصل الرابع. نتعرض لذلك باختصار:

1 ـ القرآن والسيرة النبوية: يرى دراوزا أن هناك علاقة محددة بين القرآن وسيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

فالكتاب الكريم يبرز عدة مراحل من نمو وتطور الرسالة. يساعد هذا قارئ القرآن على امتلاك معرفة خلفية تربط بين الأشياء والعصور. تحدد العديد من السور والآيات موقف النبي إزاء بعض القضايا.

فرق المشركين، أهل مكة، اليهود، منافقي المدينة.

تساعد هذه الظروف والأحداث المحيطة المتتبع على فهم التطورات، وترسم الآفاق المقصودة. فالقرآن العظيم والسيرة النبوية الشريفة يبرزان بعض قوانين التغير والتطور في الطبيعة. وهو أمر يفسر بعض ما يحدث في عصر «العولمة»[8].

2 ـ القرآن والوسط: تظهر العلاقة دقيقة جداً بين الوسط النبوي والرسالة السماوية، وكذلك بين أسباب النزول ووسط فترة ما قبل الإسلام. تؤدي هذه العلاقات إلى فهم موضوعات القرآن الكريم ومقاصده، مثل:

أ ـ التأكيد على رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعظمتها.

ب ـ توجيه القرآن الخطاب إلى عرب ما قبل الإسلام «معتقدات، عادات، أخلاقيات»...

يقدّم دراوزا عدة أمثلة على ذلك، من خلال بعض السور والآيات، مبرزاً المغزى والخلاصة لكل آية وسورة.

كما أنه يحدد دور النبي في تغيير وتطهير المجتمع من أهل الشرك والطغيان... يتعرض أيضاً لبعض عادات الجاهلية التي ظل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقاوم لإزالتها حتى وفاته. ناقش بعضها الذي يرتبط بمناسك الحج: الطواف بالكعبة، السعي بين الصفا

---

8 ـ يقدّم القرآن الكريم نظريات علمية ومعادلات رياضية تحتاج إلى تفسير. كما أن بعض السور تحمل نظريات أخرى عميقة تتجاذب فيما بينها "GRAVITATION" باتساق وتماسك كبيرين، يتجاوزان «العلوم البشرية» الوضعية. يشكل القرآن الكريم الجامع لعلوم المستقبل بامتياز.

والمروة، تقبيل الحجر الأسود. أبقى سيد الورى على بعض العادات والسلوكيات التي من شأنها توحيد العرب وجعلهم متضامنين.

تعرض دراوزا في تفسيره كذلك للنسبة المئوية التي تمثلها بعض السور المدنية والمكية داخل كتاب الله المطهر.

3 ـ لغة الذكر الحكيم: يضم القرآن العظيم لغة عربية، تكونها عدة مستويات لسانية:

أ ـ المعجم.

ب ـ الاستعمالات اللهجية.

ج ـ الأسلوب المتنوع.

د ـ التركيب.

تنبع هذه المستويات من الوسط النبوي والعربي عامة، فهي جد مألوفة عند النبهاء من العرب في عهد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبله. والحقيقة أن القرآن ينوع من لغته ليفهمه الجميع، تبعاً للمقامات والمقاصد المحددة.

لقد عالج لغة العرب ولهجة قريش «أهل مكة» التي تبرز عدة تطورات نظراً لتنوع معاملات أصحابها. كما أنه يوظف لهجات عربية أخرى، لا تضم لغة القرآن غموضاً أو تعقيدات أو أساليب صعبة الفهم كان البدو في الحجاز وأهل مكة الذين يعارضون الرسالة المحمدية يفهمون القرآن ويعترفون بطلاوته وحلاوته».

ومع ذلك فهو يحتوي عبارات ربانية خارقة، يصعب تقليدها وتوظيفها في الواقع العربي لأنها غير مألوفة. لقد غيّر الذكر الحكيم لغة العرب وطورها من جميع المستويات اللسانية[9].

4 ـ الأسس الموضوعية لمعاني القرآن: تصنف مضامين القرآن إلى قسمين متميزين:

1 ـ أسس جوهرية تتعلق بالأصول.

2 ـ المعاني «الوسائل».

9 ـ هذه المستويات هي: المستوى الصوتي «تجريدي + وظيفي» المستوى الصرفي، المستوى التركيبي، المستوى المعجمي، المستوى البلاغي، المستوى الدلالي، المستوى التداولي.

يبرز الشكل جوهر العملية «الوحي + الرسالة»، فهدف القرآن المطهر وجوهره هو: إطلاع الناس على مضمون الشريعة وفهم قانونها المسير.

نجد عدة سور وآيات تتحدث عن الملائكة والجن من منظور عقلي يجب إدراكه. كما أنها تتعرض لمعجزات الأنبياء السابقين، ومعتقدات المجتمعات والأمم التي عاشت قبل الإسلام.

إن التمييز بين هذه الأسس «الأصول + الوسائل» ضروري جداً بالنسبة لقارئ كتاب الله، كما أن عليه أيضاً الاهتمام بشكل مركز.

يقسم دراوزا القرآن الكريم إلى عدة أقسام، تأخذ بعين الاعتبار:

أ ـ الأسلوب المتميز بصوره الفنية.

ب ـ الجانب الروحي.

ج ـ خصوصية النص المقدس وقوانينه، المستويات اللسانية، السياق، المقام.

تتمحور هذه الأقسام، التي تبني صلب تفسير دراوزا لكتاب الله، حول ثلاث نقط هي:

1 ـ الآيات المحكمة.

2 ـ الآيات المتشابهة.

3 ـ الآيات الناسخة.

5 ـ القصص القرآني: يقدم كتاب الله المقدس أنماطاً متنوعة من السرد والمحكى، تتعلق بالأنبياء والرسل وبعض أولياء الله الصالحين.

كما أنه يعرض طرقاً لسانية جديدة لتقديم أخبار الأمم القديمة، يعرض دراوزاً لبعض الملاحظات في هذا الشأن:

أ ـ معرفة أهل مكة بهذه الأنماط من السرد والمحكى لأنهم كانوا يستأنسون بالتوراة وبعض الكتب الدينية الآخرى.

ب ـ تقديم القصص القرآني ليس لأجل الإخبار والتدوين، وإنما لاستخلاص العبر والقوانين وتدعيم رسالة النبي محمدﷺ.

ج ـ وجود رسالة جديدة، تحتاج سرداً متميزاً يتعرض إلى تفاصيل المحيط الذي تتحرك فيه.

إن المقارنة بين طريقة السرد في القرآن الكريم والتوراة وبعض الكتب الدينية القديمة تبرز تفرد «نمط السرد القرآني».

6 ـ الملائكة والجن في القرآن: لم تكن الطريق التي ذكرت بها الملائكة والجن مألوفة عند القبائل العربية. يذكر كتاب الله أنها مخلوقات غير مرئية، فالملائكة رسل الله إلى البشر، أما الجن فهم منبع الخير والشر، منهم الشياطين، بعضهم مؤمن وبعضهم كافر. تقدم الملائكة الخير والرحمة. يرى دراوزا أن ذكر الملائكة والجن في القرآن هو لتدعيم رسالة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يجب على القارئ أن يجادل خلقها وطبيعتها.

7 ـ القوانين الداخلية لظواهر الطبيعة: تبرز قوانين الطبيعة الواردة في الذكر الحكيم قوة الإله الخالق وعظمه نظامه وتسييره البديع للكون. فرسالة النبي ﷺ ليست لإبراز عظمة الله فقط، وإنما أيضاً لتطهير عقيدة التوحيد ووحدانية الله وربوبيته. يقدم القرآن العظيم نظرية متكاملة عن الخلق في الطبيعة. كما أنه يعرض قوانين واضحة عن ذلك.

تفسير القرآن الكريم
والقراءات المتعددة

منطق المناظرة:

هل استطاعت التفاسير القديمة الكشف عن جل أسرار «الدلالة القرآنية»؟ هل كانت وصفية DESCRIPTIVE أم تحليلية ANALYTIC؟ هل تمكنت من خلق نظرية عقلية استدلالية، أم أنها كانت مجرد تصنيفات TAXONOMY لمنهج بنيوي استقرائي بسيط؟. ألا يمكن بناء «نظرية دلالية» لتفسير القرآن الكريم، بغية الكشف عن بعض الجوانب التي ما زالت مستغلقة في الذكر الحكيم[1]؟. هل أفاد تعدد القراءات في تطوير كتاب الله؟

البنى المتعددة في التفسير: يقارن الطبري بين النص القرآني والبنى والمختارات السردية وعلم الكلام، حيث يذكر بعضاً من التمايز التعبيري القائم بين أربع بنى غير مترابطة، هي:

1 ـ بنى السرد القرآني المقدس.
2 ـ بنى السرد في الحديث النبوي الشريف.
3 ـ بنى السرد في المذاهب والفرق الكلامية.
4 ـ بنى السرد الشعبي.

---

1 ـ نقصد بـ«النظرية الدلالية القرآنية» طرحاً نظرياً وممارسة علمية تتجاوز المظاهر اللسانية الخالصة، إذ أن اقتصار النظرية المذكورة على هذه المظاهر فقط سيجعلها أضعف مستوى تحليلي في اللسانيات (المعاصرة وأكثره انغلاقاً وترقيعاً. فالبنيوية رفضت دراسة المعنى لأنه يخرج عن الدراسة اللغوية الشكلية للنص. إننا نحبذ هذا الخروج ونؤثره نستخلص من كتاب الله: دلالة نفسية، دلالة اجتماعية، دلالة فكرية، دلالة سياسية، دلالة اقتصادية، دلالة سلالية.. إلخ.

كما يرى أيضاً أن البنى التاريخية قد ظهرت قبل وجود الحديث النبوي الشريف وعلم الكلام.

يذكر قطرب أن التقديم والتأخير يحددان المعنى المراد في قول إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ (2).

يجادل سيدنا إبراهيم القضية التي تضمها هذه الآية بأدلة منطقية تبرز المعتقدات الخاطئة لأبيه وقومه، فيقدم (تعريضاً) على شكل استدلال قانوني.

كما يبسط حقائق شاملة بأسلوب بلاغي دقيق.

تتنوع القراءات والتفاسير لهذه القضية، كما عند ابن سميقاع الذي يتعرض لقوله سبحانه (بل فعله) (ربما فعله). أما الكسائي فيتوقف عند (بل فعله)، فيرى أنها (هو فعله: أي هو الذي فعله) لأن كبيرهم واحد منهم... هناك فعل (قالوا)، الذي يطرح سؤالاً بلاغياً يناقش من حيث المعنى؛ وهو: لماذا سيكذبون كبيرهم وهم يؤمنون به؟(3).

إن الموازنة بين قطرب (350 سنة سابقة) والطبري تبرز حقيقة تنوع القضية السردية الكلامية في علم التفسير بشأن قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ والحقيقة أن أجوبة قطرب تكشف عن ممارسات لتخصصات قديمة ارتبطت بعلوم القرآن وتفسيره. لكن الطبري قيد تفسير الحديث النبوي في هذا الموضوع بسياق متفرد.

يقدم وصف جميع البنى حقيقة عامة تحدد علاقة النص القرآني الكريم بالتخصصات الأخرى (كلام، نحو، بلاغة، معجم..). كما أنه يبرز إنجازاً بنيوياً محدد العلاقات والوظائف المتمثل في «سلطة النص المقدس»، من خلال استعمال أقسام الكلم.

تظهر قراءة قطرب في إبراز «سلطة النص الكريم» بناءً على عدة جوانب لسانية (تركيب، بلاغة / أسلوبية، سرد، علم الكلام..)، مما يؤدي إلى تحديد الجنس الأدبي المسيطر على التفسير.

2 ـ سورة الأنبياء، الآية 63.

3 ـ نقصد بالقراءة في هذه المقالة الطريقة الخاصة لتفسير القرآن، حيث تشتغل من خلال وجهة نظر محددة.

فسَّر الطبري عدة جوانب لسانية ووضعها، إذ كانت غامضة أو هامشية عند المفسِّرين السابقين.

لقد بلور تخصصات مهمة في مجال علوم القرآن عاشت في القديم متداخلة مع بعضها؛ مثل:

1 ـ تحديده لمدرسة التفسير بكل تقاليدها ومساراتها منذ عصر قطرب.

2 ـ إبرازه خصوصية الجنس اللغوي والتقنية المسيطرة عند المفسرين السالفين.

3 ـ ضبطه المعايير والقياسات التفسيرية عندهم. يأتي ابن كثير ليشق مساراً جديداً في مجال التفسير من خلال عمله الدؤوب على:

أ ـ تغيير دلالات وأبعاد التفسير.

ب ـ إبراز مساهمات جديدة تضاف إلى تقاليد المفسرين.

ج ـ توضيح التميز والسمو الذي حققه بعض الأعلام في هذا الميدان.

تبرز الموازنة بين الطبري، من خلال قوله (كما أريناه البصيرة)، والزمخشري بكلامه (مثله ذلك التعريف والتبصير؛ (أي) نعرف إبراهيم ونبصره[4]، طريقة وأسلوب كل منهما على انفراد، أثناء التفسير... إن الجنس اللغوي المستعمل هنا يتطلب زمناً ماضياً، والقرآن يستخدم المضارع (نريه). أثار الطبري هذه القضية وحللها الزمخشري بإيجاد «مضارع تاريخي»: نرى هو حكاية حال ماضية. نصادف في هذا الصدد بعض القضايا النحوية القليلة، التي لم تحظ بالاهتمام الواسع ضمن تقاليد التفسير القرآني، ما عدا في بعض اهتمامات الرازي.

إن تأويل (كذلك) في تقاليد تفسير القرآن تبرز تميز خصوصية الطبري عن الزمخشري الذي يترك بصماته الخاصة في القول (مثله ما أريناه قبح عبادة الأصنام)[5]. يذهب

---

4 ـ يراجع كتاب:

APPROACHES TO THE QURAN ED. G.R. HAWTING AND ABDUL KADER A. SHAREEF, ROUTALEDGE LONDON AND NEW YORK, 1993 .

بشأن موضوع «الجنس اللغوي في تفسير الطبري وابن كثير».

5 ـ المرجع نفسه، ص 136.

الرازي مدى بعيداً في التفسير الرمزي لهذه الجملة، حيث يصل إلى نهايتها من خلال تسطير التنوع الثقافي العقلي. كما أنه يبرز عظمة الله سبحانه وعدم ظهوره للأرواح البشرية واحتجابه؛ مع العلم أنه من خلال بديع صنعه.

يحدد الرازي (كذلك) بأنها تشير إلى (بمثل هذه الطريقة)، مستدلاً بـ(وكان قوله كذلك منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية). يرى الزمخشري أن السرد قد قام في الماضي (على سبيل الحكاية لأن الماضي يهتم بذلك)، لكنه يضيف أن (ذلك لمعرفة جلال الله وقدسيته. فهو الذي لا تدركه الأبصار. له الملك والملكوت)[6].

يطرح قطرب والرازي طريقة لحل بعض قضايا النص القرآني، من خلال تقصي اشتغال المفسرين رغم اختلاف مدارسهم وتعدد القوانين والمستويات اللسانية عندهم.

يتعرض الرازي لقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيؤولها بشكل فيزيائي وثقافي وعقلي، محيلاً على فعل الماضي (قالوا)، ذاكراً ابن عباس كشاهد شكلي فقط. يرى القاضي عبد الجبار أن الله سبحانه يقدم لنا الدليل العقلي على وجوده وعظمته عن طريق هذه القصة على مستوى ثنائية:

المحدث / الممكن، المحتاج / الصانع، أي إبراز احتياج وافتقار البشر إليه جلَّت قدرته.

يفسر الرازي ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [7]: بأن (اليقين) يدل على العلم، مقيماً الدليل على ذلك بعدة أمثلة. فالكلمة المذكورة يقصد بها الإشراق واللمعان.

إن القراءات المتعددة والاشتغالات المختلفة بالنص القرآني تجعله يذهب عدة مذاهب دلالية. يرى العديد من المفسرين المسلمين القدامى أن كتاب الله سبحانه يسعى إلى إبراز المعرفة والتوحيد بناءً على نموذج الأنوار التي تتجلى في شروق الشمس، مجسدة معرفة وتوحيداً ربانيين.

يذكر الرازي أن هذه التفاسير ليست مهمة كلها، إذ يقول (أما التفريع والتفصيل فذلك

6 ـ المرجع نفسه، ص 142.

7 ـ إنها الآية 23 من سورة الشعراء التي يستهلها سبحانه بقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

إنما يليق بعلم الجدل)[8]. لقد وردت هذه المبادئ في القرآن المطهر عن طريق الرمز (على سبيل الرمز)، لكنها تحتاج نظرية تحليلية عقلية في علم الدلالة والسميائيات.

لا شك أن «الرسالة الاتصالية» COMMUNICATION في علم الكلام تتمايز بين المذاهب الأربعة المعروفة[9]، يبرز الرازي رقي الوعي وصلاته في التفسير بالنسبة للمذهب الأشعري. إن قراءته تمثل تفسيراً رمزياً قوياً، كما أنها تركز في النص المقدس على الاكتشاف النحوي المعجمي المبتكر على مستوى السرد[10]. يخلق هذا الاشتغال فضاء جديداً بالنسبة لعلم الكلام يميز هذا الخط الرازي عن القرطبي من خلال الفلسفة الصوفية المنحدرة من ابن سينا. إنه يقدم عدة براهين واستدلالات، متخذاً الغزالي وابن سينا كنموذجين، علاوة على هذا فإنه يذكر أعلاماً آخرين؛ مثل:

الواحدي، الزمخشري، عبد الجبار، وبعض القدماء مثل: ابن عباس، الأمر الذي دفعه إلى استعمال بعض الصيغ: «قالوا، العلماء اختاروا، المفسرون هم الذين...».

يظهر مما سلف أن القراءات التي قامت حول كتاب الله الكريم والاشتغالات التي انصبت عليه متعددة المعاني والأهداف والمشارب والتوجهات. فالرازي يستعمل بعض الصيغ «المجهولة» لتوضيح اختياراته، أكثر من قطرب. إنه يقترح ثمانية جوانب لمعالجة كلمة (آزر):

1 ـ كلمة (آزر) تتعلق ببنية سردية قديمة.

2 ـ الكلمة هي اسم علم.

3 ـ إنها لقب.

4 ـ صفة أو نعت لشخص.

5 ـ اسم لعابد الأوثان والأصنام.

6 ـ تحيل إلى عم إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

7 ـ اسم له علاقة معجمية بأسماء أخرى.

8 ـ اسم لأب إبراهيم ـ عليه السلام ـ.

---

8 ـ ABDUL KADER A. SHAREEF. OP. CIT.

9 ـ هي: المذهب المالكي، المذهب الأشعري، المذهب الحنبلي، المذهب الحنفي.

10 ـ هو ما يعبر عنه بـ NARRATIVE .

الحقيقة اللغوية
في القرآن الكريم

وجع الأسئلة:

هل يتقصى الباحث المسلم في القرآن حقائق أدبية أم لغوية؟ ما علاقة الحقائق التي ينشدها البحث الإسلامي الحديث بالتي سطّرها الأسلاف في مصنّفاتهم[1]؟ كيف يوفق اللغويون في دنيا الإسلام الحالية بين بحثهم عن الحقيقة وإشكاليات وتناقضات الواقع الذي يعيشونه في بلدانهم المزركشة بشتى الاختلافات؟

هل يسلك البحث الإسلامي في القرآن طريقاً ممنهجاً، موضوعياً وحيادياً؟.

الباحث المسلم والحقيقة:

إن البحث الموضوعي عن الحقيقة يجعل النظرية العلمية التي يبنيها الباحث المسلم مرتبطة بواقعه الحي المتداول وبموجوداته «الوضعية»، ولكن هذه السمة العلمية تقل ممارستها في حياة العديد من الباحثين المسلمين المعاصرين.

نجد كثيراً من التباين والتعارض في المفاهيم والفروع الشرعية بين مجموعة من الباحثين المسلمين المعاصرين. تتفشى في بحوثهم المتمايزة عدة مظاهر، مثل:

1 ـ الانفعالية.

1 ـ نقصد بها مصنفات التفسير والنحو والبلاغة المستشهدة بالقرآن.

2 ـ الخرافية والأسطورية[2].

3 ـ الأنانية وطغيان الذاتية.

تعرض الممارسات الإجرائية التي يمكن أن تقود البحث الإسلامي صوب التطور وغيره التزام:

1 ـ العقلانية.

2 ـ الواقعية.

3 ـ المنهجية والتنظيم.

يتخبط البحث الإسلامي المعاصر في أزمة حضارية خانقة لن يتأتى الخروج منها وتجاوزها إلى مستوى الخلق والتجريب إلا عن طريق وضع حل جذري للإشكاليات الآتية:

1 ـ الدين والدولة في الإسلام المعاصر.

2 ـ الباحث المسلم والسلطة.

3 ـ اللغة العربية والتراث الإسلامي.

كما يشترط البحث الإسلامي المعاصر عن الحقيقة الابتعاد عن النزعات المادية[3] والتحزبات والطائفية. فالبحث عن الحقيقة العلمية في ديار الإسلام يفرض إنجاز نظرية فكرية يحكمها قانون معرفي دقيق.

نصادف حالياً جماعة من الباحثين المسلمين يزيغون عن الحقيقة العلمية المرتكزة على الشريعة الإسلامية ولغتها العربية المجيدة، فلا ينجزون قانوناً معرفياً له صياغة صورية إسلامية أصيلة، وإنما يبنون تصوراتهم على أفكار ونظريات غربية مسيحية مزيفة[4].

2 ـ مركز البحوث العربية / الجمعية العربية لعلم الاجتماع. محور العولمة، مكتبة مدبولي. ط1، 1999 ف، ص 18.

3 ـ درس حسين مروة: هذه النزعات المادية بإسقاطات ومغالاة كبيرة.

4 ـ نجد هشام شرابي يكاد ينفي الدور الحضاري للغة العربية، متأثراً بالأطروحات المادية المهيمنة حالياً على الجامعات الأمريكية.

البحث عن الحقيقة اللغوية:

انبثقت العديد من العلوم الرصينة من ديانات وضعية (البوذية، الكونفوشيوسية) ومنزلة (اليهودية، المسيحية، الإسلام). حددت هذه العلوم طرق إنشاد وقراءة النصوص الدينية وأنماط معالجتها (صوتياً، صرفياً، تركيبياً، دلالياً...)[5].

والملاحظ أن البحث عن الحقيقة اللغوية المتسم بالموضوعية والمتجرد من الأهواء والميول الإقليمية[6] يفضي بأربابه إلى استعمال الشروط العلمية القويمة مثل:

1 ـ الملاحظة.

2 ـ الافتراض.

3ـ التجريب.

4 ـ الاستقراء.

5 ـ الاستنباط.

يؤدي تطبيق هذه الشروط العلمية إلى التخلي عن الميول أو تجاهلها ونبذ العناد والتشيع الطائفي والمذهبي.

يجب على النظريات العلمية التي تبحث عن الحقيقة اللغوية النابعة من القرآن الكريم أن تضع الظواهر اللغوية العربية على قدم المساواة مع الظواهر اللغوية المضارعة المماثلة في الكتب السماوية الأخرى والنظريات اللسانية، دون نقص تحليلي أو انطباعات طبقية، وذلك بغية الكشف عن النسق العلمي الكوني الذي يضمه خاتم الكتب المنزلة. فالقرآن المعظم يجسد حقائق وقوانين تتحكم في الظواهر اللسانية العلمية التي لم تكشف مناهجنا الوصفية بعد أسرارها الدفينة. كما في قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

5 ـ عولجت النصوص الدينية من منظور: التاريخ، السلالة، المقارنة، فقه اللغة.

6 ـ غابت سمة الموضوعية عن بعض البحوث اللغوية في العصر الأموي والعباسي لأن الدولتين استخدمتا النص الديني (قرآن + حديث) لأغراض ونعرات وضعية.

، وقوله سبحانه في نفس السورة الآية 22:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾

فهل هذه النملة تنتمي إلى نوع النمل الشغّال؟ هل أفرزت مادة معينة كوسيلة الاتصال (القول) بسليمان؟ هل قول الهدهد وصل إلى سليمان على شكل ذبذبات وموجات صوتية؟. يثير تقصّي الحقيقة اللغوية في القرآن عدة أسئلة مثل: ما السرد والمحكي في قصة يوسف وأهل الكهف؟ ما البعد الصوتي - الوظيفي والدلالي - السياقي في بعض السور (ألم، ألر، ن، كهيعص..)[7].

إن كل النظريات اللغوية تؤسس وتنجز للوصول إلى الحقيقة العلمية. لذلك فإن الحقيقة اللغوية القابعة في القرآن الكريم أفرغها الباحث المسلم في قوانين عامة تحكم الكليات اللغوية العامة.

لا بد أن يسعى اللساني المسلم المعاصر إلى استخراج نتائج عامة تنبع من طبيعة ظواهر اللغة العربية التي يجسدها القرآن بصورة كلية شمولية[8].

يؤدي البحث العلمي عن الحقيقة اللغوية العربية المرصوصة في كتاب الله العزيز إلى تحديد بعض الظواهر اللغوية المشتركة وإقصاء الظواهر الشاذة[9].

لقد بحث الأسلاف عن الحقيقة العلمية المبثوثة في الذّكر الحكيم من المنظور اللغوي، بشكل متسق داخلياً مع العناصر البانية للنص القرآني ومنسجم خارجياً مع سياقاته وأسباب نزوله أو ظروف إنتاجه.

لم يقصد سيبويه في (الكتاب) إنجاز مجرد تصنيف للظواهر اللغوية العربية وتبويب يبرز حالاتها الإعرابية، وإنما كان يرمي إلى البحث عن البعد الموضوعي - الواقعي الذي يحكم الحقيقة اللغوية المتداولة عند المتكلم العربي، الذي يتخذ القرآن المعظم كوسيلة

---

7 - تحتاج الدراسة اللسانية للقرآن إلى أعمال مجامع وهيئات متخصصة وإمكانيات كبيرة، تثير إشكاليات وتنجز أعمالاً أكثر تطوراً وإبداعاً.

8 - انظر في هذا الصدد أعمال ناحوم تشومسكي مؤسس النحو التوليدي.

9 - لا نجد نظرية لسانية خاصة تبني وتحلل (نحو الشذوذ اللغوي في القرآن).

اتصال في حياته الدينية. يخلق هذا البحث الإسلامي المرتكز على القرآن نظرية لغوية ذهنية ذات بعد «تفسيري» قوي.

لقد ارتبط الفهم والإدراك وأنماط التأويل بوجهة نظر النحاة والمفسّرين، من خلال شروط الإنتاج العلمي الذي كان رائجاً ساعتئذ. فلكل عصر شروطه وظروفه الإنتاجية العلمية. لذلك تحتاج العديد من التحاليل والتفاسير إلى مناهج علمية حديثة.

لم يربط العديد من الباحثين اللغويين الحقيقة العلمية الواردة في القرآن بظروف التغير والتطور والبعد الإبداعي للغة.

فلم ينتجوا نظرية لسانية رصينة، وإنما مجرد تصنيفات هيكلية. إننا نعلم جيداً أن الباحث المسلم في المجال اللغوي يربط إبداعه بفترة معينة ونشاطه محدود بالمرحلة، الأمر الذي يجعل الإبداع اللغوي يتطور ويرتقي باستمرار، نظراً لتغير العصور.

إن هدف الباحث اللغوي المسلم هو الكشف عن القوانين الضابطة للواقع القرآني الملاحظ. لا نجد الباحثين المسلمين المعاصرين يعتنون جيداً بهذه الرؤية التحليلية التي كان يمتلكها الأسلاف، من خلال عرضها على مناهج علمية تحليلية جديدة. استعمل بعض الباحثين والمفسرين المسلمين القدامى ذكاءهم «وخيالهم» الخصب في تحليل بعض السور والآيات ـ المعجزة، مما أدى إلى شدة استفحال «ظاهرة العامل» في النحو العربي. إن هذا العمل لا يعني غياب الملاحظة العلمية الدقيقة أو التفكير الموضوعي السليم عن البناء النظري عند بعض الباحثين المسلمين، أثناء اشتغالهم بالقرآن.

والملاحظ أن الحقيقة اللغوية التي سطّرها الباحثون المسلمون المشتغلون في المجال القرآني قد لامست بعداً عاماً مجرداً، يتمثل في تحديد بعض القواعد الإعرابية (الزمخشري، الطبري، ابن كثير، القرطبي..)، التي تشكل ما يشبه القانون الرياضي في الذكر الحكيم. وهو قانون قرآني صرف يعبّر عن العلاقات الأساسية القائمة بين الظواهر اللغوية التي يضمها الكتاب المطهر.

يحتاج الباحث المسلم عن الحقيقة اللغوية القابعة في القرآن إلى بناء نظرية إسلامية

ذهنية، ذات قوة تفسيرية تحليلية، تتجاوز التصنيفات والوصفية التفكيكية. يقوم الباحث في هذا الصدد بتحليل الموضوعات والظواهر اللغوية القرآنية، بحيث يقسمها إلى عناصر أولية تقصي الاستطرادات، بغية تبسيطها وجعلها ملائمة للطرح العلمي الموضوعي.

يحلل الباحث اللساني المسلم ظواهر اللغة الكلية المجسدة في القرآن بواسطة النظرية الذهنية التي يبينها، فلا تبقى هذه الظواهر ـ المعجزة ـ كما يستعملها المسلمون في شعائرهم. فهي تتحول إلى سلسلة من العناصر اللغوية المفككة، مغيرة الواقع الإسلامي المتماسك، أثناء الاتصال اللغوي.

يدفع البحث عن الحقيقة اللغوية القرآنية إلى بناء نظرية لسانية إسلامية تنهج مساراً تحليلياً، وليس وصفياً يستقرئ ويفكك ويصنف فقط، ولا يستنبط و«يبدع» بقوة. وهذا العمل يؤدي إلى الفهم الدقيق واستخلاص القانون اللغوي القرآني الشامل.

يتطلب البحث عن الحقيقة اللغوية المضمرة في القرآن إنجاز لغة واصفة تجعل هذه الحقيقة متداولة بين كل المسلمين في بقاع المعمورة، وليس اختلاق مفاهيم تحليلية تختلف من قطر إسلامي إلى آخر. فإنجاز لغة واصفة لتفسير معاصر للقرآن الكريم يؤدي إلى الفهم والاقتناع وتبني التفسير. أما غياب هذه اللغة والمفاهيم الموحدة البسيطة في بعض البحوث الإسلامية، فإنه ينتج استطرادات وخلطاً مفهومياً يحجب الحقيقة اللغوية ويطمسها.

لقد كان البحث عن الحقيقة اللغوية في الشريعة الإسلامية (قرآن، سنّة، إجماع) موجهاً لنظام اللغة العربية بشكل شبه موضوعي أخفى قسطاً كبيراً من الذات الباحثة المبدعة عند الخليل، سيبويه، أبي علي الفارسي، ابن جني، الفرّاء، الكسائي، ابن مالك.. فكانت اللغة الواصفة تصب في موضوع الظواهر اللغوية العربية المطروقة بشكل وسط.. والله أعلم.

القرآن الكريم يتحدى اللسانيات

الإطار النظري للقضية:

يطرح القرآن إعجازاً لسانياً متميزاً لم يعالج ـ حسب ظننا ـ بطريقة علمية متخصصة معمقة(1). يتعلق الأمر بقضية الترادف القرآني من منظور علم الدلالة المعاصر(2).

يعتمد «المعجم القرآني»(3) على كلمات ربّانية، أنزلت بلسان عربي مبين. إنها تمثل مداخل معجمية(4) تتلاحم مع عدة فئات أخرى مرادفة لها. يتأسس «ترادف للكلمات القرآنية» بناء على أسباب نزول وظروف متنوعة، يجعلها غير متناهية من حيث مداخلها ومعانيها. يمكن التمييز في هذا المجال اللساني، المتعلق بموضوع تعدد المعاني وإشكالياته في الذكر الحكيم، بين فرعين أساسين:

---

1 ـ طرحت هذه القضية اللسانية قديماً من خلال موضوع «الوجوه والنظائر». تجد السيوطي يمنحها في كتابه (المزهر) مفهوم «التوارد». اهتمت الدراسات في هذا الصدد بكتاب الله كثيراً، ولم تعالج الحديث النبوي الشريف إلا قليلاً، وتجاهلت الشعر العربي والأغاني والحكايات الشعبية وتراث الأمة الإسلامية الزاخر.

2 ـ ألا يمكن دراسة بعض القضايا النحوية القديمة، عن طريق قواعد تحويلية، على أنها قضايا ترادف لساني معاصر؟ نجد:

أ ـ المبني للمعلوم / المبني للمجهول: فعل خَلَقَ = خُلِقَ، من حيث المعنى، رغم اختلاف الحركات.

ب ـ قضية التأسيم: قَدِم عندنا فانشرح صدري = قدومه عندنا شرح صدري.

ج ـ أن والفعل: يؤلمني أن تضرب الولد = يؤلمني ضربك للولد.

3 ـ يستعمل هذا المفهوم هنا من منظور علمي، يرتكز على تحديد التطور التاريخي (ETYMOLOGY) للكلمة القرآنية، باعتبارها الوحدة الأساسية للدراسة في هذا التخصص. كما أنه يتعرض إلى معالجة سياقاتها المتنوعة المتداولة. إن مفهوم «المعجم» في العربية يعني علمياً «تقنية صناعة المعاجم وترتيبها فقط».

4 ـ يجسد «مدخل الكلمة القرآنية» جذرها وصيغها الصرفية السياقية التبادلية وزياداتها واشتقاقاتها من خلال محتوى الكتاب المنزل.

1 ـ كلمات معجمية قرآنية تقوم على المشترك اللفظي (HOMONYM)[5].

2 ـ كلمات معجمية قرآنية ترتبط بتعدد المعنى (POLYSEMY).

يدرس الفرع الأول كل كلمة قرآنية، ذات مدخل واحد، يقابله مرادف واحد أيضاً[6]. تقصي هذه الكلمات المقدسة كل غموض أو التباس بالنسبة للنص المنزّل،أما الفرع الثاني فيتعرض إلى الكلمة القرآنية ـ المدخل بالاعتماد على شكلها الإملائي. يرتكز تحديد الكلمة المقدسة هنا على مجموعة من الكلمات الأخرى المرادفة (SYNONYMS) لها، من حيث السمات الدلالية المشتركة.

المتن القرآني المدروس:

إن الجمل القرآنية التي نتخذها نموذجاً لدراسة الترادف القرآني، قد وردت في:

1 ـ سورة البقرة، الآية 271: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ .

2 ـ سورة آل عمران، الآية 195: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ .

3 ـ سورة النساء، الآية 31: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ .

4 ـ سورة المائدة، الآية 12: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ .

5 ـ سورة الأنفال، الآية 29: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ .

6 ـ سورة العنكبوت، الآية 7: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ .

7 ـ سورة محمد، الآية 2: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ .

9 ـ سورة التحريم، الآية 8: ﴿أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ .

الممارسة الدلالية:

يسم كتاب الله في هذه الآيات المطهرة عدة علاقات دلالية، تؤسسها مجموعة من البنى اللسانية، التي تحتوي على كلمات تمثل مشتركاً لفظياً. إن صيغ هذه البنى المتطابقة

5 ـ إنها تمثل جناساً أو تطابقاً صوتياً، رغم اختلاف التهجية في بعض الأحيان: حَالِمٌ، حَلِيمٌ...

6 ـ وهي الكلمات، ذات المعنى الواحد.

صوتياً وصرفياً وتركيبياً تخلق «مرادفات قرآنية» واضحة. كما أننا نلاحظ ترادفاً آخر يرتبط بنوع الاسلوب البلاغي وجهة الفعل وزمنه بالنسبة لكل آية. إن كل مؤمن يقرأ كتاب الله بإمعان يلاحظ أيضاً هذا الترادف، من حيث الجناس الصوتي والتطابق التركيبي. نجد في جمل المتن القرآني المدروس عدة عناصر متكافئة، رغم بروز بعض التغيرات الصرفية في كل بناء لساني رباني وارد في الآيات المذكورة.

تظهر هنا قاعدة لسانية مطردة تحدد موضوع الترادف من حيث اللفظ والتركيب، لكنها تحمل في طياتها بعداً تحويلياً عميقاً، مما يجعلها تتجاوز وتتحدى النموذج التركيبي البنيوي[7]. فهذا النموذج لا يميز بين الآية 2، في سورة محمد﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ والآية 195 في سورة آل عمران:﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، من حيث الأسلوب والمنتج.

إن دراسة قضية الترادف الموجودة بين هذه الجمل القرآنية تحدد لنا العلاقة بين الجمل الظاهرة والمقدرة لمعرفة مختلف وجوه الالتقاء والاختلاف بينها، على مستوى التحويلات (TRANSFORMATIONS).

تمثل الجمل القرآنية المدروسة فئات لسانية متعادلة صوتياً وصرفياً وتركيبياً، وهذا يؤدي أيضاً إلى مماثلات دلالية واسعة[8].

إن آليات ترادف الجمل القرآنية المدروسة تنبع في الأصل من جمل مضمرة، عميقة الدلالة هي التي تحدد معنى النص المقدس.

تطرح الجمل القرآنية المترادفة صوتياً وصرفياً وتركيبياً ومعجمياً عدة قضايا تتعلق بالسرد والمحكي:

1 ـ وجود سارد علوي لحدث «تكفير السيئات».

2 ـ الذات الربانية الخالقة هي الفاعلة للأحداث.

3 ـ وجود ذاتٍ إلهية مقدسة حاكية للحدث.

---

7 ـ يظهر هذا في البنى القرآنية المقدرة (DEEP, STRUCTURES).

8 ـ درس زليج هايس فئات التعادل المترادفة في الخطاب الإشهاري، ودرسناها في عمل نقدي عند الشاعر الليبي حسن السوسي، من خلال ديوانه (المواسم) وعند صادق النيهوم في قصة (القرود).

4 ـ امتزاج الذات الربانية القائلة بالفاعل، على شكل خطاب سردي منقول حرّ[9].

5 ـ استعمال الذات الربانية الساردة أو الفاعلة لضمير الغائب «ويكفُرُ، ويكفُرْ، كفَرَ، ويكفُرَ..»..

والله أعلم.

9 ـ هو ما يعبّر عنه بالإنجليزية (REPORTED SPEECH).

عتبات النص القرآني:
إشكالات النص الداخلي والخارجي

الفرضيات:

ما نوع المعرفة العلمية التي تقدمها المفاهيم اللسانية الحديثة، مثل عتبات النص، النص الداخلي، النص الخارجي عندما نطبقا على القرآن الكريم؟

ما موقف المفسرين من بعض السور والآيات القرآنية التي تتعرض لقصص الأنبياء الواردة بالكتب السماوية السابقة؟ ما علاقة نوع التفسير بعقيدة المفسر بالنسبة لموضوع القصص؟ هل نستطيع استخلاص عناصر ومكونات عتبات النص القرآني والنص الداخلي والخارجي من خلال الجنس اللساني الذي جسده المفسرون أثناء تعرضهم لكتاب الله؟ ما وجاهة عملهم من المنظور التاريخي؟ هل قدم المفسرون معرفة ممنهجة أثناء تعرضهم لمواضيع الكتب السماوية، الواردة في القرآن الكريم؟ هل كانت هناك مقولات لسانية متخصصة تحكم تلك المعرفة؟

* عتبات النص القرآني:

تبنى من خلال عدة عمليات لسانية تهدف إلى:

أ ـ تحريك النص الديني وتفعيله.

ب ـ تحويله من مستوى إلى مستوى[1].

---

1 ـ إن الوقوف المتبصر عند عتبات النص القرآني يبرز مستواه الصوتي والصرفي والتركيبي والمعجمي والدلالي.

تشكل عتبات النص القرآني المقدس (حمالة / نقالة) للخطاب الديني الإسلامي. إنها تشيد على مساحة لسانية تتكون من أقسام الكلم العربي الفصيح، التي تربط بينها علاقات ووظائف محددة. تتكون اللبنات الأساسية لعتبات النص القرآني من عدة عمليات لسانية صغرى يكون دورها أقل من دور عمليات السياق والتناص والمعنى... تعانق العمليات اللسانية الأخرى عمليات عتبات النص المطهر، لأنها المدخل والمنطلق الذي يشكِّل «مضخة» لكل عملية لسانية لاحقة تحرك النص.

تضم العتبات العامة للنص المنزل عتبات فرعية جانبية تتكون من عدة خطوات وتحويلات وبصمات لسانية متدرجة، مما ينسج سدى الإطار العام للعتبات بأكملها. وهكذا فإن عتبات النص القرآني الكريم تمثل مدخلاً إلى النص وأرضاً للانطلاق إلى أعماق مستويات اللسانيات المنسقة. كما أنها تحدد جوانبه وما يحيط به.

تمنح عتبات النص القرآني العمليات الأخرى اللاحقة الجيدة التنسيق جواز عبور أصيل، ينقلها من مستوى لساني إلى آخر، خالقة رباطاً وشيجاً بينها.

يبرز تحديد عتبات النص القرآني المقدس أن الخطاب الديني الإسلامي ينبع من مجال لساني منفتح، تلتحم به عدة عناصر، ذات دينامية محددة... تشكل هذه العتبات المصدر والمنبع لكل البنى اللسانية التي تكوِّن «عالم النص القرآني المطهر».

قد تكون عتبات النص:

1 ـ ظاهرة المعالم.

2 ـ مُقَدَّرة "DEEP".

3 ـ متعارضة بها مفارقات وغموض.

يساعدنا تحديد مفهوم عتبات النص القرآني على معرفة مدخل ونقطة انطلاق الخطاب الديني الإسلامي، والمساحة التي يتحرك فيها وكذلك المنبهات والمؤثرات العقائدية المتحكمة فيه. كما أنه يقودنا أيضاً إلى تحديد أجوبة دقيقة لعدة قضايا ومواضيع يطرحها النص.

تبنى عتبات النص على جانبين:

1 ـ جانب يتعلق بالسماع والقراءات الصوتية.

2 ـ جانب يرتبط بالاختلاف اللساني النفسي(2).

يحدث الاختلاف أو التمايز اللساني النفسي بين قيمتين لمنبه موجود في العالم الخارجي الإسلامي.

والواقع أن العتبات تتكون من وحدات أولية صغرى تنقلنا إلى داخل البناء اللساني الكلي للمستويات المكونة للنص. تتغير عوامل وطرق الإنشاء حسب طبيعة النصوص وقصدياتها "INTENTIONS".

قد يقع اختراق عتبات النص النص فجأة، مما يخلف تنوعاً لسانياً داخل السلسلة اللسانية الموجهة للنسق..

إشكالات النص الداخلي والخارجي: نقصد بمفهوم النص الداخلي كل البنى التركيبية القرآنية الجوهرية النابعة من بنى أخرى مقدرة (عميقة).

يولّد مفهوم النص القرآني الداخلي المطهر من خلال كل مرحلة من مراحل الدائرة التحويلية التركيبية التي تتلون داخل السور والآيات، يحدد النص الداخلي كل المقاطع الصوتية القرآنية المتميزة الأحكام في مجال القراءات، وكذلك كل الوحدات الصرفية والكلمات والأقوال العربية القرآنية المتفردة، أي كل وحدات المستويات اللسانية (صوت، صرف، تركيب، دلالة) التي لا نفرزها عند «عتبات النصوص» المبثوثة في الكتب المقدسة السابقة أو في «عالم النص» المسير لموضوع «قصص الأنبياء» في تلك الكتب.

يبني مفهوم النص الداخلي خطاباً قرآنياً عربياً تكتنفه أجواء إسلامية. إنه مفهوم يدفع إلى تأجيل عمل النص الخارجي، حيث يضعه في منطقة «حياد لساني».

نطلق مفهوم النص الخارجي على سياق المماثلة "ASSIMILATION" الذي توظف فيه

2 ـ "DICTIONNAIRE LE PETIT ROBERT" P.1644.

قصص الأنبياء وبعض المواضيع المذكورة في الكتب السماوية وفي القرآن المعظم.

تؤسس هذا المفهوم للساني مجموعة من العوامل الخارجيية التي يختلف أغلبها عن خصوصية التصوير الإسلامي في الأسلوب القرآني ولا تقدم الفصل في بناه التركيبية العربية المتميزة.

يبرز النص الخارجي أن العوامل المتعلقة بقصص الأنبياء، التي وردت في الكتب السماوية، تساعد جزئياً ومرحلياً على إنتاج بعض البنى التركيبية للقرآن الكريم، وتنوع استعمالاته داخل مختلف السور والآيات، مما يمنح سياقه الفرعي نوعاً من المثاقفة.

يبلور مفهوم النص الخارجي بصورة دقيقة في التنزيل من خلال موضوع «قصص الأنبياء» التي ذكرت في الكتب المنزلة، ثم وظفها القرآن المعظم تبعاً لطرقه اللسانية ومقاصده الدلالية الإسلامية الخاصة. يحدد النص الخارجي في هذه القصص عاملين:

1 ـ شخصية الفاعل فيها.

2 ـ المقام (مقتضى الحال) الذي ترتبط به.

يجمع جل المفسرين المسلمين الموضوعيين على أن الكتب المنزلة غير المعرّفة متشابهة بالنسبة لدلالات وأبعاد التوحيد. كما أن بعض نصوصها ترافق المظهر الخارجي لنصوص خاتم الكتب السماوية.. إنها تقدم حقائق ربانية يجب التسليم بها. لكننا نجد جماعة أخرى من هؤلاء المفسرين تفضل الاعتماد على النص القرآني حينما تصادف تداخلاً لسانياً "INTERFERENCE" قد أدرج بين ثنايا النصوص الداخلية لهذه الكتب المنزلة.

لقد مارس المفسرون مقاربات تحليلية متفرقة استطرادية بالنسبة لموضوع قصص الأنبياء التي ورد ذكرها في الكتب المنزلة، وأعاد صياغتها القرآن الكريم بطريقته الإسلامية المتفردة. والملاحظ أن بعض المفسرين قد خلقوا حقلاً معرفياً يرتبط بمواضيع الكتب المقدسة المذكورة في القرآن الكريم. وهو حقل يضم تفسيراً يقوم على تصورات وإشارات معينة، قلما تبني نسقاً عقلياً يحدد مجال التفسير الإسلامي باعتباره جنساً أدبياً.

لم يقص عدة مفسرين قضية عتبات النص القرآني وإشكالات النص الداخلي والخارجي أثناء تعرضهم لقصص الأنبياء الواردة في خاتم الكتب السماوية. أما في عصرنا الحالي، فقد تعددت المناهج التحليلية التي يملك كل منها منظوراً متميزاً أو تصوراً محدداً حول الموضوع المذكور. يدفعنا العمل الأكاديمي إلى الارتكاز على رؤية منهجية معينة تحدد مشروعية العمل اللساني الذي نقوم به، إذ يعكس ويستثمر اهتمامات خاصة تروم بناء الحقيقة.

لا تفصل بعض الدراسات الأكاديمية الحديثة الخاصة بالقرآن الكريم النص المنزل عن شروطه العقلية الثقافية وأسباب نزوله.

يحتاج تفسير المسلمين للكتب المنزلة، التي وردت بعضها مواضيعها في القرآن، إلى تحديد عدة جوانب مثل:

1 ـ طريقة استعمال القرآن للآليات والمعدات التي تحكم هذه الكتب.

2 ـ طريقة توظيف الذكر الحكيم لقصص الأنبياء الواردة في الكتب السماوية.

3 ـ طريقة استخدام الجدل الأدبي.

4 ـ طريقة جمع كتاب الله للفضاء الأدبي داخل وحدة منسقة.

يقدم القرآن الكريم نظرة مركزة وهادفة عن الكتب المنزلة:

صحف إبراهيم، توراة موسى، زبور داوود، إنجيل عيسى.

يقول تعالى في هذا الصدد:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (3).

إن كل مسارات وآفاق الكتب المنزلة وخصوصياتها قد وقع تحديدها بواسطة التصوير القرآني الخاص، أي توظيف مستويات لسانية لا تحمل أي تناصّ مع الكتب السماوية في هذا الموضوع.

3 ـ سورة الحديد: الآيتان 26 ـ 27.

سلطة النص القرآني
سلطة المفسِّر

عبد الحميد الكاتب نموذجاً

الجدلية:

متى ظهرت ثنائية «سلطة النص القرآني / سلطة المفسر» في الفكر العربي الإسلامي؟. ما علاقة هذين المفهومين بعصر بني أمية؟. كيف تعامل عبد الحميد الكاتب مع هذه الثنائية؟. ما علاقة «سلطة النص القرآني وسلطة المفسر» بالظواهر التركيبية القرآنية: ظاهرة الاتصال والانفصال، ظاهرة الاستبدال والتعويض، ظاهرة الاختزال؟. ما مميزات أسلوب عبد الحميد الكاتب من خلال اعتماده على هذه الثنائية؟

الطرح اللساني:

ظهرت عدة إنتاجات أدبية عربية تتعلق بموضوع «سلطة النص القرآني» عند الكاتب اليمني بشر ابن أبي كبر البلاوي، الذي راجت رسائلة في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري. كما شهد عصر بني أمية استعمال المفهوم المذكور[1] عند جماعة متعددة، يمثلون فرسان النثر العربي.

1 ـ يحدد اللسانيون المحدثون ثنائية «سلطة النص / سلطة المؤلف» من خلال توظيفها داخل جماعة لسانية واضحة المعالم الاجتماعية والثقافية. يكون هناك اتفاق بين شقي الثنائية، إذ يحدد أن: ما يجب قوله وما لا يجب قوله إنها تتكون من: 1) المؤسسات والأكاديميات. 2) الكتاب والمؤلفين. 3) الاستعمال الجيد للغة. 4) البعد المعياري. 5) الوقائع التاريخية. 6) الجذر والاشتقاق. 7) بعض الصيغ المنطقية واللسانية.

يمثل عبد الحميد بن يحيى الكاتب زعيم هؤلاء الفرسان، حيث قام بتحديد مفهوم «سلطة النص القرآني» من خلال:

1 ـ طبيعة استعمال القول القرآني المقدس.

2 ـ سياقه ورتبة وروده.

3 ـ أسباب وروده وتنسيقه.

تتعدد إنتاجات وأعمال عبد الحميد الكاتب حول ثنائية: «سلطة النص القرآني / سلطة المفسر».. تتجلى الإحاطة بمفهوم «سلطة النص القرآني» عنده في:

1 ـ المعرفة بكتاب الله الحكيم.

2 ـ المعرفة بالفرائض.

3 ـ المعرفة باللغة العربية «شعرها ونثرها وتاريخها...».

4 ـ قبول النصيحة: «فمن تلزمه النصيحة يلزمه العمل».

فما هي فوائد المعرفة اللسانية المتعلقة «بسلطة المفسر»؟

تعد الفوائد التي نجنيها من وراء هذه المعرفة عميمة؛ مثل:

1 ـ حدوث لذة كبيرة أثناء القراءة، نابعة من «سلطة المفسر».

2 ـ فحص آداب النص الكريم.

3 ـ ترديده برأي صائب، يلتزم بخط معين في علم التفسير.

4 ـ توظيف اللفظي الخاص أثناء التفسير.

5 ـ إبراز الجانب العقلي في الكتاب المنزل.

6 ـ تأمل المفسّر للمتشابه في القرآن.

7 ـ منح النص القرآني وضوحاً وجلاء بواسطة منهج التفسير.

8 ـ إقصاء السفاسف والتأويلات الجانبية.

9 ـ مقاربة للواقع الإسلامي، وتحديد معالم الخلاص عن طريق القرآن.

كيف حدد عبد الحميد الكاتب «سلطة النص القرآني»؟. تتجلى من خلال البنى اللغوية التي يستعملها كتاب الله على مستوى:

1 ـ التركيب اللغوي القرآني.

2 ـ الأسلوب الوقفي.

3 ـ التقنيات الإبداعية الربانية.

تبرز «سلطة النص القرآني» من خلال بعض الآليات اللسانية التركيبية، الموظِفة لبعض الروابط والأسماء والأدوات والحروف العربية؛ مثل (و ـ لـ ـ لا ـ ف ـ الذي..)، حيث يعلل الكاتب الاستعمالات النحوية الثابتة للأقسام السابقة داخل الجمل القرآنية.

يحلل قوله تعالى ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[2]. مبرزاً أن «سلطة النص القرآني» تمنعه من تغيير اسم الموصول (الذي) من مكانه التركيبي، لوجود الرابط الجملي بالآية الكريمة من خلال أجزائها الكلية، مما يحدث تتابعاً لفظياً طبيعياً، ثم يذكر قوله سبحانه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾[3]، فيوضح أن التركيب اللساني الرباني هنا لا يسمح بتقديم اسم معرف ومحدد، حيث نجد تناظراً لقوله جلت قدرته ﴿وسنة ماضية﴾. كما أنه يبرز أن «سلطة النص القرآني» تقلص آفاق ومجال التعويضات والاستبدالات في مثل (إظهاره) التي تعوض بـ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾[4].

يدرس هنا بطريقة جيدة ظاهرة «الاتصال» أو «الانفصال» بين الجمل القرآنية المطهرة..

تتجلى أغلب معاني القرآن الكريم من خلال طريقة تركيبه اللساني، ومواقع العناصر المكونة داخل الجمل.

تظهر «سلطة المفسر» عند عبد الحميد الكاتب عن طريق استعماله لبعض الاستبدالات التركيبية. بين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وجملة (وجعل أمته)، وذلك لأسباب تركيبية. يذكر جزءاً

---

2 ـ سورة الملك، الآية: 1.

3 ـ سورة الفتح، الآية: 23.

4 ـ سورة الصف، الآية: 8.

من آية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [5]، فيرى أن ضمير الخطاب يترابط مع ضمير الغياب، لاشتراط التركيب القويم في القرآن ذلك.

إن «سلطة المفسر» عند عبد الحميد الكاتب تقوم على تقنية لسانية محددة، تستعمل عدة تحويلات واستبدالات تركيبية، ذات معدات رصينة تلقي الضوء على عدة معان ظلت غامضة في تفسير القدماء. تتغير الضمائر التي لها تردد ملائم دقيق، ولا يجوز استعمال أي استبدال عشوائي لأن ذلك يثير الغموض..

يستبدل عبد الحميد الكاتب بعض العبارات القرآنية القصيرة، مثل: (وإليه يرغب) بـ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [6]، فينقل الاستعمال من ضمير الغياب إلى ضمير الخطاب لضرورات تركيبية (ربك = هو).

تتحدد (سلطة المفسر) عند عبد الحميد الكاتب من خلال توظيفه «لظاهرة الاتصال بين الجمل القرآنية»، حيث يستبدل المفرد بالجمع والعكس صحيح، مثل كلمة (سرابل = سربل)، (القارعة = القوارع)، وذلك لأسباب تركيبية خالصة. يؤدي الاستبدال التركيبي الذي تخلقه «سلطة المفسر» إلى تنويع وتمديد «سلطة النص القرآني»، بحيث تصبح القراءات اللاحقة للنص الكريم واضحة وبسيطة.

نجد أن استبدالات الفعل من حيث العدد (عزز، نصر، اتبع) تعانق أفعالاً مماثلة في الجمع (عززوا، نصروا، اتبعوا).

كما أن المفسر يقوم باستبدال بعض الأسماء بالأفعال والعكس صحيح؛ مثل (الرسل،الأنبياء / يرسل الأنبياء).

تتوغل «سلطة النص القرآني» داخل البنى التركيبية، ساعية إلى الإحاطة «بسلطة النص القرآني» لتحريكها، بغية الفهم الدقيق السليم. نجده يغير مواقع ورتب النكرة والمعرفة (الرضوان، النعيم، المقيم) بإنجازات (رضوان، نعيم، مقيم).

تظهر «سلطة النص القرآني» على المستوى التركيبي جلية واضحة، من خلال مقاربة

---

5 ـ سورة آل عمران، الآية: 109.

6 ـ سورة الشرح، الآية 8.

الترابط بين الجمل في بعض السور والآيات، وهي عملية ألسنية تبرز التردد والتأثير المتبادل بين البنى التركيبية في كتاب الله العزيز.

نجد الفعل الماضي الناقص في قوله تعالى ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[7] يتغير إلى مفعول به (سعياً مشكوراً).

يقع أحياناً كثيرة تغيير عدة جمل قرآنية من أسلوب الأمر إلى أسلوب الخبر ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [8].

إن طريقة معالجة عبد الحميد الكاتب لمفهوم «سلطة النص» تبرز استقلالية مقاربته التحليلية ومنهجيته في تفسير القرآن.

إنها تبني «سلطة المفسر» المتميزة عن طريق:

1 ـ فرض تغييرات معينة.

2 ـ الاحتفاظ ببنى محددة.

3 ـ إضافة عناصر أخرى.

4 ـ وصل / فصل جمل معينة.

فهل تبني «سلطة المفسر» المتميزة عند عبد الحميد الكاتب أسلوباً خاصاً؟. إنها تخلق أسلوباً متميزاً في مجال التفسير، لكنه ينتصب فوق أرض لزجة ملغومة، فأسلوبه متنوع ومتغير يصعب منحه وحدة مفاهيمية ألسنية شاملة متراصة.

إنه ينوع تقنياته الأسلوبية في كل جملة وفقرة ونص، لكنه يظهر شيئاً من التوازي والمزاوجة بين القرآن الكريم والنثر في أسلوبه الخاص، حيث تتجلى خصوصية التصوير وقوته. كما أنه يوظف أحياناً في أسلوبه بعض عبارات اللغة الشفهية. نجد أيضاً التأثير الموسيقي وصور الأسلوب القرآني في إنتاجه النثري (مرادفات، صفات ونعوت، التضاد، المقابلات، ترتيب الجمل، تركيب المتواليات...). لا تنفصم التقنيات الأسلوبية عن التقنيات التركيبية، فهي البناء والاقتضاء...

7 ـ سورة الإنسان، الآية 21.

8 ـ سورة الأحزاب، الآية 41.

ما تأثير «سلطة النص القرآني» المتمثلة في التصوير على تقنية الوصف الموجودة في أسلوب عبد الحميد؟. يستعمل هذا المفسر عدة تعابير قرآنية، فيقسمها حسب الدال الخاص به لكي يخلق موازاة ومزاوجة بين الجانبين. إنه يسلك الطريق اللساني الآتي:

1 ـ تقطيع عبارتين محددتين.

2 ـ الاعتماد على المرادفات فيهما.

3 ـ إضافة رابط في الوسط للوصل بينهما.

وهكذا فإن قوله تعالى ﴿دَارُ ٱلْقَـرَارِ﴾ [9] يصبح (دار الخفض)، فالمنزل هو القرار. يستعمل المفسر أحياناً قانوناً معقداً لبناء أسلوب وصفي موسع، يشيع وضوحاً داخل البنية الأيديولوجية، تضاف إلى متانة وتقنية هذا الأسلوب الخاص، المعتمد في مناسبات عديدة على قصر الجمل والأقوال، تبعاً لمقتضيات المقام[10].

كان الاتصال اللساني يقتضي في عصر بني أمية تفسير بعض الآيات القرآنية من خلال تقنية لغوية بنيوية تقوم على التفكيك والاستقراء، علاوة على الاعتماد على بعض العناصر الموجودة في مجال نظرية الخطاب والقول، إذ يختزل المسافة بين الجمل والمتخاطبين[11]: حيث يشارك المتكلم أو لا يشارك في القول وكذلك المخاطب من خلال ضمائر تدل عليهما.

يستعمل المفسر مقاطع قولية متوازية.

تتنوع «سلطة المفسر» عند عبد الحميد الكاتب، فينجز العديد من المقاطع المتوازية (من صلواته ورحمته).. كما أنه يختزل جملاً قرآنية أخرى متصلة؛ مثل (المنير برهانه = نوراً)، (الثابتة كلماته = بالقول الثابت)، (الشافية آياته = آياته شفاء).

هذا بعض من تقنية الاختزال التي وجهت «سلطة المفسر» عند عبد الحميد الكاتب، أثناء تفسيره لكتاب الله، فميزت أسلوبه النثري. فهو يضم جانبين:

---

9 ـ سورة غافر، الآية 38.

10 ـ هو ما يقصد به في اللسانيات الوظيفية: سياق الموقف CONTEXT OF SITUATION.

11 ـ JEAN DUBOIS DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE P.161 - ED. 1973 - LIBRAIRIE LAROUSSE - PARIS

1 ـ الاعتماد على «الكونية» العربية الإسلامية.

2 ـ الارتكاز على الترجمة القرآنية والاقتباس.

يرتبط الجانب الأول بخلق كلمات تشكل جملاً مفردة، خاضعة للجمل الأساسية القرآنية، ولها مفاتيح تفسر بصورة غير مباشرة أسلوب عبد الحميد من خلال «سلطة المفسر». لذلك يبرز في الجانب السابق أن (الاسترجاع) خاضع لقوله تعالى:
﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾، وكذلك إخضاع قول الكاتب للذكر الرباني (لا حول ولا قوة إلا بالله)، فيذكر (الحول) ويضيفه إلى (القوة).. والله أعلم.

مظاهر اللسان الكوني

في القرآن الكريم

الأطروحات:

كيف يعالج كتاب الله المطهر مظاهر اللسان الكوني؟ ما علاقة السمات الكونية المشكلة للسان العربي المنسق للقرآن الكريم بالكتب السماوية الأخرى المنزلة؟ هل يمكن مقاربة مظاهر اللسان المعجز بالاعتماد على الإنجازات اللسانية الوضعية؟

ـ مظاهر اللسان الكوني:

تشكل مظاهر اللسان العربي المنظم للقرآن الكريم «مقولات نحوية مقدسة» خالصة، تجسد تمثيلاً لسانياً يخلقه الفاعل الديني المحرك للنص المنزل. يقوم هذا الفاعل بتوظيف أفعال اللسان العربي لتمثيل أحداث وأنشطة ترتبط بمدة وأزمنة مقننة، مما يجعله يضبط طرق جريان واشتغال الأحداث داخل النص المعظم، أو طرق انتهائها وتمامها (إبراز المظهر التطوري، الناتج الاستهلالي..).

مع العلم أن أزمنة اللسان العربي الموظف في الكتاب المطهر، من خلال جهة الفعل في القول المقدس وأفعال «الوجود والملكية» أو الأفعال الناقصة، تعالج طابعاً لسانياً متميزاً يعشش داخل الحدث المرتبط «بالزمن الديني». يملك الفعل العربي المنسق لأقوال القرآن الكريم أحياناً مميزات خاصة تتجاوز تمثيل الفاعل الديني.. المتكلم للحدث. يكون الخالق

سبحانه هو المصدر المبدع للفعل العربي الموظف بالذكر الحكيم[1].

إنه المصدر المركزي للحدث وليس عباده وخلقه المشاركين بصورة ثانوية في إنتاج الخطاب الديني القرآني (أنبياء ورسلاً، عباداً صالحين، أمماً وأقواماً مؤمنين / كافرين، أهل الأنبياء، الملوك والحكام..).

كما أن المظاهر القولية تعالج جهة الفعل في الذكر الحكيم، متقصية كل ما يجسد أحياناً بصورة ضمنية مضمرة. تتجلى هذه الجوانب المذكورة من خلال قوله تعالى في سورة يوسف الآيات 84 ـ 88:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۞ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾

تحدد دراسة الجهة في الأفعال العربية المنظمة لنصوص القرآن الكريم وجود فروق شكلية بين هذه الأفعال التي تضمها سورة يوسف. تتجلى الفروق في الطريقة التي يعبّر بها كل فعل عربي داخل هذه السورة المطهرة عن الحدث اللساني من خلال: الفترة الزمنية للفعل، تطوره، انتهاؤه، بدايته..، كما تبرز ذلك الأفعال: «تولى، قال، ابيضت، قالوا، تفتأ، تذكر، تكون، أشكو، أعلم، تعلمون، اذهبوا، تحسسوا، تيأسوا، ييأس، دخلوا، مسنا، جئنا، أوف، تصدق، يجزيء». يقوم الفاعل الديني «بالعملية القولية» في هذا النص القرآني المقدس، مبرزاً جهة الفعل من حيث الزمن والتطور والانتهاء.

إن معالجة كتاب الله الكريم للسمات الكونية للسان توضح وجود تماثل بين اللسان العربي الخالق للمعجزة في التنزيل والألسنة المختلفة الأخرى التي تنظم الكتب السماوية.

---

1 ـ يبدع الله سبحانه الجمل القرآنية العميقة غير النهائية وأصوليتها، ولا يعلم ذلك إلا العلاّم العليم جلّت قدرته.

تظهر لنا الدراسة العلمية الحديثة بمقارباتها الدقيقة أن بعض السمات الكامنة في القرآن الكريم تبني مجال «اللسانيات النفسية» لأنها تحدد علاقة اللسان بالفكر الإنساني، كما يذكر الحكيم سبحانه في سورة المائدة الآية 78:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾

هناك سمات كونية قرآنية أخرى تبني «اللسانيات السلالية» لأنها تبرز علاقة اللسان بالثقافة كقوله تعالى في سورة الروم الآية 21:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾

إنَّ تقضِي مظاهر اللسان الكوني في القرآن الكريم يبرز وجود معالجتين يتفرد بهما التنزيل المحكم:

1 ـ وجود لسان واصف كوني قرآني يصف ويحلل أدق المفاهيم في الشعائر والمعتقدات والديانات السابقة.

2 ـ تحديد اللسان العربي المبين للأنساق والمجالات والطرق اللسانية الرائجة في الديانات الأخرى.

تعالج سمات اللسان الكوني في القرآن من خلال وجود ظاهرة «التَّمَفصل المزدوج»[2]. الشائع في كل الألسنة المختلفة المهيمنة على الكتب المقدسة. تشترك كل الألسنة الوقفية[3] المنزلة في وجود هذه الظاهرة المتمثلة في تفصل غير دال يحدث داخل السلسلة الكلامية الربانية (مستوى أصوات الكتب السماوية). علاوة على هذا فإنه يقع ترتيب الأصوات الوقفية داخل وحدات لسانية تنتمي إلى درجة عليا، أي الوحدات الصرفية المعجمية التي تمثل المستوى الأول الدال.

والملاحظ أن معالجة القرآن الكريم لمظاهر اللسان الكوني تتضح من خلال مجال علم

2 ـ هي فرضية لسانية روجها أندري مارتيني داخل المدرسة الوظيفية: توظف اللغة حسب مستويين: مستوى ـ الوحدات الدالة (وحدات صرفية ـ معجمية) ومستوى الوحدات غير الدالة (الوحدات المميزة صوتياً).

3 ـ هناك رأيان لسانيان بشأن علاقة الدال بالمدلول (اللفظ والمعنى) الرأي الأول يقر أن العلاقة طبيعية (محاكاة) والثاني يعتبر العلاقة بينهما وقفية: وذلك من خلال قوله تعالى﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ بالاضافة إلى العلاقة الاعتباطية في المجال اللساني.

وظائف الأصوات (علم القراءات) وذلك بصورة لافتة للنظر، إذ نجد في كل ألسنة الكتب السماوية الأخرى مجموعة معروفة من الأصوات. فالسمات الثنائية الضرورية تنتج أشكالاً وألفاظاً يوظفها كل لسان عن طريق المقابلات الصوتية الوظيفية المحددة. إنها ثنائيات صوتية يستغلها كل لسان بطريقة معينة:

مجهورة / مهموسة، رقيقة / غليظة، بغنة / دون غنة، أو انغلاقية مهموسة تأتي بعدها أصوات تسحب سحباً. وبعضها يوظف هذه الأصوات المذكورة بعد أصوات مجهورة[4]. تتضح علاقة اللسان الكوني في القرآن باللسانيات المنظمة للكتب السماوية من المنظور الصوتي الوظيفي المعتمد على الثنائيات بصورة جلية، مع العلم أن اللسان الكوني القرآني موجود باللسانيات الأخرى الموظفة في الكتب المنزلة السابقة، لكن هناك تقديم وتأخير وتغيير في النسق (أصوات، تركيب، صرف، معجم، دلالة، تداول).

إن مقارنة علمية وضعية لمظاهر اللسان المعجز في القرآن المعظم تفضي بنا إلى تسطير بعض الأنماط:

1 ـ السمات الكونية للجوهر: وهي سمات مشتركة بين كل الكتب السماوية وألسنتها المختلفة، لأنها تسعى إلى تنظيم جوهر اللسان كالمقولات التركيبية (الفعل والإسم مثلاً) التي نصادفها في الكتب المنزلة في مواقع وترتيبات محددة.

2 ـ السمات الكونية للشكل: وتتمثل في شتى الأنواع الادماج، المبرزة لجوهر اللسان: نعت الأشياء بأسمائها، وذلك بالعودة إلى النشاط الإنساني الذي تحدده هذه الأسماء بالكتب السماوية الأخرى. كما أن المقاربة العلمية الحديثة للسان العربي المبين المنظم للقرآن الكريم تبرز لنا أن هذا اللسان يملك سمات كونية من خلال مستويات التحليل اللساني ذات الأنماط الأربعة:

1 ـ سمات مستوى الأصوات.

2 ـ سمات مستوى التراكيب

4 ـ جون ديبوا (وآخرون) قاموس اللسانيات: مادة (السمات الكونية) ص 504.

3 ـ سمات مستوى الدلالة (الدال والمدلول).

4 ـ سمات مستوى الرمز.

توضح المقاربة العلمية الأعضاء النطقية عند المرتل والمجود بتقنية وأحكام وقواعد صوتية وظيفية محددة.

ترسم لنا مظاهر اللسان الكوني الموجودة في القرآن المعظم أن كتاب الله يضم وظيفة رمزية ترتكز على المراكز المتخصصة في دماغ المسلم المرتل والمفسر. يستعمل كل المسلمين المنتشرين في العالم هذا النسق الذي يوظف الأصوات العربية بشكل دقيق ورمزي، ﴿ألر، ألم ، طه، كهيعص، حم، ن..﴾.

تعرض المقاربة العلمية الحديثة أن مظاهر اللسان الكوني في القرآن تتجلى في مستوى الرمز قوية صارخة، إذ أن بعض الكلمات القرآنية تحمل رموزاً أو دلالات صوتية (ذو النون، مجمع البحرين، حاضرة البحر، السفينة، الزكاة، الصلاة، الجنة، الأنهار..) تمنحنا تصوراً دقيقاً عن نطق الأمم والقرى لبعض الأصوات التي بها قسط من الأنفية[5].. علاوة على هذا فإن قصص الأنبياء والأمم والقرى الواردة في القرآن الكريم تبرز مدى خصوصية استعمال الاستعارة والمجاز بالنسبة لبعض الكلمات المعجمية وتطورها الدلالي عبر تاريخ الأديان السماوية «هابيل / قابيل، جنة، قرية، زرع / حرث، أنهار / بحر، أصنام / أزلام، أرباب، سماوات / أراض، أقطار، إسلام، أعراب، الفلك / السفينة، الماء، السد، ديار / منازل، سبعة / سبعون، تسعة / تسع عشرة.. تسع وتسعون، تعبدون / تؤمنون، مؤمنون / كافرون، صيام، سحت، رفث..

تقودنا معالجة اللسان الكوني المنظم لخاتم الكتب السماوية إلى الإقرار بوجود جوانب لسانيات قرآنية كلية تساعد الفاعل الديني المتكلم على توليد جمل عميقة (مقدرة)، انطلاقاً من البنية السطحية للنص المقدس المتنامي.

لقد قام قطاع تحليل الخطاب بتصحيح مسار الرؤية التركيبية (النحوية) لمظاهر اللسان

5 ـ المرجع نفسه، ص 332، مادة (أنفي).

الكوني، مما جعل قضايا النظرية القولية تعدل عدة مظاهر. يدرج القرآن الكريم «نظرية قولية إسلامية» متسقة العناصر والمكونات، دقيقة العلاقات والوظائف (نموذج القصص القرآني).

تبرز السمات الكونية للسان العربي المبين المنسق للذكر الحكيم أن النص القرآني رباني موجه للناس كافة، فهو فكر وإيمان وهداية عامة يقدمها خطاب متجانس ومتسق وقواعد تنتمي إلى كل ديانات التوحيد.

ان هذه القواعد منطقية توليدية تبرز وجود أقسام الكلم وعناصر القول الكوني حسب مواقع وتوزيعات معينة.

تساعدنا المقاربة اللسانية للخطاب القرآني المقدس على تحديد طاقاته اللغوية الشاملة المتعلقة بالغايات الإنسانية لهذه الرسالة الكونية الموجهة من أجل الاتصال والتفاهم والتعارف والتوحيد[6]. يبرز علم التجويد (القراءات) أنَّ اللسان العربي المنظم لكتاب الله هو نسق من الأصوات العربية التي تحرك الأعضاء النطقية عند المرتل والمجود بتقنية وأحكام وقواعد صوتية وظيفية محددة.

ترسم لنا مظاهر اللسان الكوني الموجودة في القرآن المعظم أن كتاب الله يضم وظيفة رمزية ترتكز على المراكز المتخصصة في دماغ المسلم المرتل والمفسر. يستعمل كل المسلمين المنتشرين في العالم هذا النسق الذي يوظف الأصوات العربية بشكل دقيق ورمزي «ألر، ألم، طه، كهيعص، حم، ن...»

تعرض المقاربة العلمية الحديثة اللسان العربي المعجز في الذكر الحكيم على عدة تحليلات تنسج علاقة كثيرة علاقة الفاعل الديني باللسان العربي، مما يرسم مجال «اللسانيات النفسية الإسلامية» وعلاقات اللسان العربي بالمجتمع الإسلامي قاطبة وهذا بدوره يبني مجال «اللسانيات الاجتماعية الإسلامية». كما أن المقاربة عينها تحدد أيضاً علاقة الوظيفة الرمزية القرآنية بالنسق اللغوي العربي، مما يبني اللغة العربية كنسق من أقسام الكلم القائمة على القواعد الاتفاقية (القياسية المطردة).. والله أعلم...

6 ـ لقد بدأنا ننشر جوانب هذا المشروع المتواضع بصحيفة الدعوة الإسلامية ابتداءً من العدد 667.

«علم المعجم»
في ضوء النظريات اللسانية المعاصرة

1 ـ المعجم والدلالة (الحقل الدلالي) (CHAMP SEMANTIQUE):

لا يمكن تحليل مضمون الوحدات المعجمية، إلا عن طريق السمات الخلافية، التي ترتكز كما هو معروف على علم وظائف الصوت: (PHONOLOGIE).

لقد ركز «لوي هلمسليف» في تَنَبُّؤَاتِهِ بمجيء دلالة بنيوية، على اقتناعه بأن البنيات وأشكال التعبير والمضمون، تقيم فيما بينها مقابلات جد عميقة. يقصد بالحقل الدلالي: (القوة العضوية المؤثرة في موضوع معين، المقترنة بتغير حالته، وتعدد المعاني للكلمات ضمن الحقل الدلالي بصورة مستمرة، وذلك لأن هذا الحقل يرمي إلى «نقل المعلومات»). يمكن الحصول على عدة حقول دلالية في نفس المستوى، فإذا أخذنا عدة نماذج للتواتر تكاد تكون متشابهة، فإننا سننجز ترتيباً دلالياً لهذه الحقول، وذلك بأن ننطلق من الحقل الأكثر تخصصاً لننتهي بالأقل تخصصاً ودقة. يمكن كذلك إنجاز ترتيب في حدود حقل دلالي واحد، انطلاقاً من المميزات المبنية بدقة، وهكذا نصل في هذا الحقل إلى استخراج التداخل والإدماج بين الكلمات.

2 ـ المعجم وعلم الاحصاء (اللسانيات الكمية) (LA LINGUISTIQUE QUANTITATIVE):

أ ـ اللفظة كوحدة معجمية:

يشكل الإحصاء المعجمي مجالاً خاصاً في اللسانيات الكمية. يمكن أن تجمع تحت

هذا الاسم كل العمليات التي تؤخذ كوحدات أولية (الكلمات)، وذلك بتمييزها عن تلك التي تُفْرِز الأصوات أو الوقائع الصرفية ـ التركيبية. إن القطاعات اللسانية الأخرى تصنف «الكلمات» حسب المقولات النحوية أو حسب الطول، ولكن الإحصاء المعجمي يفضل استعمال مفهوم «اللفظة»: Le VOCABLE.

فإذا كان الكلام العادي لا يعرف هذا المصطلح المدرسي، فإنه يقبل الخلط الذي يقع عندما تستعمل «الكلمة» حسب مفهومين أساسين ومختلفين، وهو لا يعطيها نفس المعنى الذي تحمله في: (تتكون هذه الجملة من أربع كلمات) أو (اقرأ النص كلمة كلمة) وفي: (مهنة السلاح ومهنة الرخام ليست نفس الكلمات) أو (قال كلمة قبيحة، وقال كلمته). يعرف الإحصاء المعجمي «اللفظة: VOCABLE، بأنهما الوحدة المعجمية، بينما «الكلمة LE MOT» هي وحدة نصية: فنحن نقرأ كلمات في النص، ولكننا نجد ألفاظاً في القاموس.

ب ـ خصوصيات الإحصاء المعجمي:

قد يتبادر سؤال مهم إلى الأذهان هو: لماذا يملك المعجم هذه الطريقة المعقدة التي تختلف عن العناصر الأخرى للكلام؟

إنَّ هناك عدة أسباب تجعل المعجم يتبنى هذه الطريقة المعقدة، من بينها:

1 ـ أَنَّ المعجم يتكون من مجموعة من الوحدات غير المنتهية، التي لا تعطينا انطاعاً بأنها ستنتهي.

2 ـ أَنَّ المعجم يتغير من متكلم لآخر، أكثر من النظام التركيبي ونظام وظائف الأصوات. كما أنه يتغير عند نفس المتكلم ما بين فترة وأخرى، ومن حالة لغوية إلى أخرى.

إننا إذا طالعنا مثلاً جريدة مغربية: (العلم، البيان، الاتحاد الاشتراكي) مرة في شهر سبتمبر، وأخرى في شهر مارس، فإننا نجد نفس التواتر والترديد للوحدات ووظائف الصوت وللنماذج التصريفية والتركيبية. لكننا لن نجد دائماً في هذه الجرائد المغربية الثلاث نفس القائمة «للألفاظ» خلال الشهرين المذكورين، وذلك لأن التواتر والتكرار سيكون ذا بعد دلالي جديد ومهم.

3 ـ أَنَّ الاستعمال المحتمل «للفظة» يتغير حسب الظروف والمواقف.

3 ـ المعجم ونظرية التواصل والأخبار: (LA THEORIE DE COMMUNICATION ET D'information)

ترتكز نظرية التواصل والأخبار على مفاهيم دقيقة مثل: القانون، الارسالية، القناة، الصداع ، الخبر، «الحشو الكلامي» LA REDONDANCE.

إن العناصر اللسانية المرسلة طبقاً لقانون معين، بواسطة قنال يستعمله الباث لتبليغ الإرسالية للمتلقي، تخضع لإطار عام يتواطؤ عليه المتواصلان. هذا الإطار يسمى بالقاموس، الذي ينتمي «لعلم المعجم التواصلي والإخباري». تعد نظرية التواصل أكبر ممول للسانيات المعاصرة. نلاحظ حالياً اتجاهاً جديداً هو: الخطاب الذي أصبح يعدُّ وحده الحقيقة اللسانية الكاملة. إن الخطاب الفردي يفترض تبادل المعلومات، فلا يمكن وجود باث بدون مُتَلَقٍ للخطاب، ما عدا إذا كان الباث سكيراً عربيداً، أو مصاباً بخلل عقلي، أما فيما يخص الخطاب غير الخارجي وغير الملقى، أي ما نسميه بالكلام الداخلي، فإنه ليس سوى استبدالاً مضمراً ومُلَمَّحاً للخطاب المفصل الخارجي.

غالباً ما يقصد في هذا الصدد بالحوار: الخطاب الداخلي.

حينما نتواصل مع مخاطب جديد، فإن كل واحد منا يحاول أن يجد لنفسه مفردات مشتركة، وذلك ربما ليستميل المخاطب، أو ربما ليفهمه. وقد يفعل ذلك ليتنصل منه ومن مخاطبته. نجد أن اللسانيين المعاصرين يستعملون كثيراً من معدات التواصل في المعجم. فالسياق التواصلي يعمل حسب شخص يوجد القوانين وآخر يفك رموزها: فالذي يفك رموز القوانين يتلقى إرسالية، ويعرف قانونها الضابط حيث تكون جديدة بالنسبة إليه، لكنه يؤولها بواسطة القانون الذي يعرف ضوابطه. ساعد علم النفس اللسانيين كثيراً على فهم هذه العملية.

4 ـ المعجم والنحو التوليدي: LE LEXIQUE ET LA GRAMMAIRE GENERATIVE

يرى كاتز وفودور أن القاموس في تصورهما هو: (مكون للنظرية الدلالية، وهناك

مكون آخر هو مجموعة من قواعد الإسقاط: REGLES DE PROJECTION) التي تسمح بتأويل الجمل دلالياً حسب «قاعدة القاموس». تبرز أهمية هذا الرأي في علم المعجم واضحة لأنه يعدُّ «الكلمة» كعنصر لساني ناتج عن إدماج شكلي ودلالي مزدوج وهو كذلك رأي يعيد للكلمة وحدتها الوظيفية، لكن الفائدة من هذا جد محدودة. تعدُّ اللسانيات التوليدية المكون المعجمي كمعطى ولا تهتم نهائياً ببنية المعجم ككقانون، ولكن فقط بتشكلاته «كإدماج أو تداخل مركبي: COMBINAISON Syntagmatique وتحلله كما هو. فالمظهر النحوي قد قادها إلى إهمال ما لا يمكن أن يكتب عن طريق القواعد الشكلية (قواعد إعادة الكتابة). يرى تشومسكي أن مشكل التصنيف المتقاطع داخل المعجم، يشبه بصورة شكلية مشكل التصنيف لوظائف الصوت. يلاحظ كذلك أن التحليل الدلالي «للمواضيع المعجمية» يأخذ طابع نظرية القيم الخلافية، التي تعطي تصنيفاً متقاطعاً ونموذجياً لمدخل المعجم. تتضح مكانة المكون المعجمي في النحو التوليدي من خلال الرسم التالي:

المكون القاعدي (يحدد البنية العميقة)

المكون المقولي

المعجم

قواعد إعادة الكتابة

تحديد خصائص التركيب + الدلالة + وظائف الصوت - (وحدة معجمية)

المؤشر التركيبي

5 ـ المعجم واللسانيات التطبيقية: LINGUISTIQUE APPLIQUEE

لقد شهدت الدلالة التي تدخل في إطار المعجمية تطورات منهجية مهمة اتصلت بطرق إنجاز القواميس، وفحصها بصورة نقدية جديدة. لقد درست هذه الآراء في إطار تاريخ الفكر اللساني وعلم الاجتماع اللساني والدلالة وأخيراً السيميائيات.

إن اللسانيات التطبيقية قد جددت التعاريف الخاصة بالوحدة المعجمية، بعلم المعجم الكمي وبالمعجمية التوثيقية: LEXICOGRAPHIE DOCUMENTATIVE.

أ ــ علم المعجم والترجمة:

يطرح المكون المعجمي إشكالية كبيرة بالنسبة لجميع المترجمين، وذلك لانعدام المقاييس للترجمة المعجمية. تتجلى هذه المشكلة بحدة في ترجمة المذاهب الفكرية والشعرية لحضارة بعيدة المشارب عن الحضارة العربية: إن المترجم العربي يلاقي صعوبة كبيرة في اختيار المعجم الملائم في العربية عند ترجمته لقصيدة شعرية أجنبية، فهو يحاول مراعاة البحور والأوزان والقوافي العربية، وغالباً ما يخفق في هذا الصدد. علاوة على هذا، فهو لا يجد المفردة المقابلة في العربية لبعض الارتباطات والعلاقات الشعرية في اللغات الأجنبية.

ب ــ تعليم المعجم:

لقد خلق المكون المعجمي Composante LEXICALE العديد من الصعوبات في إطار تدريس اللغات، وذلك ناتج عن الشذوذ والطابع المفتوح، وغير المحدد لهذا المكون. هناك عدة اعتبارات تدرج في هذا المضمار:

1 ـ لقيت الثنائية السوسورية بين أنماط العلاقات اللسانية واللغات «المعجمية»، نجاحاً باهراً في الميدان الدلالي، وهي ثنائية توتر الطابع الاعتباطي للكلمات.

2 ـ لعبت أسلوبية شارل بالي دوراً مهماً، من خلال القيم المذكورة RAPPEL التي تذكرنا «بالوسط الاجتماعي».

3 ـ يولي الذين يدرسون اللغات الأجنبية، أهمية قصوى للثورة اللغوية التي تنجم عن الترادف.

4 ـ شاعت نظرية الحقل الترابطي CHAMP CORRELATIF، فحققت نجاحاً باهراً في ميدان تدريس المعجم في قطاع اللسانيات التطبيقية.

5 ـ يعد الحقل المعجمي من بين جميع قطاعات علم المعجم التي حققت نتائج مهمة. نجد عدة مجالات مختلفة في هذا الصدد، مثل المدرسة الهمبولدية الجديدة». نضيف لهذه الاعتبارات التي تربط علم المعجم البنيوي بتدريس المعجم والمفردات اللغوية، اتجاه دراسة تواتر الكلمات وحسابها. نلاحظ أن الدلالة وعلم المعجم البنيوي ما زالا في البداية. كما أن عليهما أن يتدخلا في التعليم العقلي للنسق المعجمي لأن هذا الأخير يرتبط بالعالم غير اللساني بصورة مباشرة.

خلاصة وتقييم عام:

لقد استأثرت «الكلمة» باهتمامات الفكر اللساني على مر العصور، هذا الفكر الذي انعكس على «العلامة اللغوية». شكل علم المعجم أهم جهاز لساني للدلالة، التي بقيت ضمنية ردحاً من الزمن. فما مكانة الأعمال المعجمية ووحداتها ضمن القطاعات اللسانية المعاصرة؟ هل يعدُّ الحقل المعجمي دراسة مستقلة وقطاعاً تجريبياً؟ ثم ما هي طبيعة التقنيات التي يستعملها أعصرية هي أم تقليدية؟

إن موضوع المعجم حسب ما سلف الذكر ما زال عائماً وغامضاً، وكذلك المنهج والهدف منه فَهُمَا غير واضحين ومتذبذبين.

توجد حالياً عدة قطاعات معجمية مثل الدلالة، علم النفس، علم الاجتماع، علم الاناسة تنتمي كلها للمعجم، حيث تطبق عليه جميع أفكارها، لكنها لا تكفي لإعطاء مشروعية تامة للمعجم (هذه المشروعية التي ستمكنه أن يصبح قطاعاً لسانياً مستقلاً) لعدم وجود تعريف دقيق وموحد «للكلمة» كعلامة لغوية مستقلة. فالكلمة لا تملك قانوناً معجمياً ثابتاً ومستقلاً.

لقد أصبح علم الإناسة المعجمية L'ANTHROPOLOGIE LEXICALE يعرف رواجاً كبيراً في الوقت الحالي بأمريكا.

إن علم المعجم الذي يمكن الاعتراف به حالياً، هو الذي يحدد موضوعه بصورة

نهائية، ويستعمل مناهج خاصة به، رغم عدم وضوح آفاق المعجم أو الدراسة المعجمية بصفة عامة.

نلاحظ، تجلي ووضوح الأمور الآتية:

1 ـ وجود «لسانيات معجمية: LINGUISTIQUE LEXICALE».

2 ـ وجود علم معجم، يكاد يكون متميزاً عن القطاعات اللسانية الأخرى، وخاصاً بميدان معين.

3 ـ وجود حلقة سحرية تعرف بـ«الحقل المعجمي: Champ Lexical».

4 ـ وجود دراسة خاصة بالمفردات والألفاظ اللغوية.

5 ـ وجود معجمية خاصة: LEXICOGRAPHIE PARTICULIERE.

«حول مشكل علم المعجم في اللسانيات»

تعاريف المعجم:

هناك ثلاثة طرق أساسية معروفة جداً في الغرب اللاتيني، يعرف المعجم في ضوئها، وذلك تبعاً للمتطلبات المنهجية التي تساعد على كشف القضايا المعجمية.

1 ـ يؤخذ المعجم كمجموعة من «المورفيمات» أو «المونيمات»[1] ضمن لغة معينة. هذا التعريف تبناه العديد من اللسانيين الوظيفيين والتوزيعيين. أما فيما يخص اللسانيات التوليدية، فإن هذا التصور هو قضية بسيطة ومحاولة فرعية مرفوضة لأنها تصطدم بعائقين:

أ ـ فكيفما كانت القواعد الصرفية ـ التركية، فإن تطبيقها على «معجم» ما، ينتج مجموعة من العلاقات اللغوية القصوى الحرة، التي تتجاوز ما يمكن ملاحظته من خلال عمل اللغة المدروسة. وهكذا نحصل على نظام لغوي متين جداً يطابق مخطط «هلمسليف». يتجاوز الوصف على الأقل مستوى ادماجيا يهتم بربط الانتقال من «المورفيم» إلى وحدات التواصل: (قاعدة هلمسليف).

ب ـ إن التقابل بين الاستبدالات المفتوحة المعلقة، غير المحددة أو التي سبق أن حددت: Les PARADIGMES يعطي للمعجم طابعاً هجيناً. وهكذا فإن «المورفيمات» النحوية

---

1 ـ المورفيمات هي الوحدات الصرفية بكل تغيراتها النحوية والمعجمية على مستوى الكلمة الدالة. أما المونيمات فهي عند أ. مارتيني الوحدات الدالة (مستقلة، وظيفية، خاضعة).

يمكن وحدها أن تختار وتنتقي بصورة اتفاقية عن طريق مجموعة مغلقة من القيم الوظيفية. ورغم كل العراقيل المذكورة، فإن هذا التعريف هو المفضل في اللسانيات المعاصرة.

2 ـ يمكن أن يعدَّ المعجم كمجموعة من «الكلمات»؛ أي أنه يحتوي على أغلب «المورفيمات الحرة» المدروسة كإدماج للمركب (الجملة). إن هذا التعريف للمعجم يكون خاضعاً لمفهوم «أقسام الكلام» التي توضع موضع تساؤل من طرف الدلالة ذات المنحى المنطقي. لذلك تهدد الوحدة الأساسية (المعجم) من طرف الثنائية التالية: كلمات نحوية / كلمات معجمية.

تجدر الإشارة هنا بصورة ذرائعية (تداولية) إلى أن هذا التعريف للمعجم مهم: إنه تعريف قواميس اللغة، التي بدأت تناقش بمعالجة بعض «المورفيمات المرتبطة: الزيادة والإلحاق»[2]. هذا التعريف غالباً لا يقبله «حدس المتكلم» إلا بصعوبة، وإن كان أقل اصطناعاً وأدق علمية من التعريف الأول.

3 ـ تعطى الأسبقية عند قلة قليلة من اللسانيين للاعتبارات الوظيفية الداخلية، حيث نكون منقادين إلى تعريف المعجم كمجموعة غير محددة، لكنها منتهية العناصر وذات وحدات «أو مداخل معجمية» متقابلة مع العناصر التي تحقق مباشرة وظائف «نحوية».

يمثل المعجم ضمن الممارسة الفعلية اللغة مجموعةً من الكلمات ذات الوظيفة غير «النحوية، أسماء، أفعال، نعوت، صفات».

نرى أننا واجهنا تعريفاً واسعاً ومترامياً، يقابل مجموعة «المورفيمات» والعديد من التحديدات المرتكزة على بعض المفاهيم المحددة بصورة رديئة وعائمة كتحديد: «الكلمة»، «الوحدة الخاصة»، «IDIOME» و«الوظيفة النحوية» التي تقابل «الوظيفة المعجمية».

إن الجانب المعجمي في الكلمة هو ذو طبيعة سيميائية، وإذا كان التركيب يدرس الشكل: (شكل التعبير وشكل المضمون)، فإن على علم المعجم أن يدرس الشكل في علاقاته مع جوهر المضمون. إن هذه المفاهيم النابعة من أعمال هلمسيلف

2 ـ هي المعروفة بـ (سألتمونيها).

«الكلوسيماتيكية»، هي الوحيدة القادرة في الوقت الراهن على تحديد موضوع علم المعجم، هذا الموضوع الذي لا يمكن أن يشكل إلا عن طريق هذه العلاقات، التي لها جانب وصفي وتحليلي دقيق.

والملاحظ أن «المورفيمات» و«الكلمات النحوية»، تحدد دلالياً عن طريق وظيفتها التي تعكس البنية الداخلية «المثولية» للغة.

إن على علم المعجم أن يتخذ موقفاً متميزاً عن التيارات والقطاعات اللسانية الأخرى، حتى لا يكون عالة عليها من خلال التعلق ببعض قضاياها وأهدافها. لذلك فهو مدفوع إلى التحكم، واستعمال منهج ينبع من موقفه الخاص (لكي ينتقد التيارات الأخرى في ميادينها).

إننا حينما نأخذ موضوع المعجم كمعطى لساني، حيث نسعى إلى دراسة النشاط اللغوي، والاجتماعي والثقافي، فإن ذلك يشكل بداية علم المعجم، لكن لا يمكن اعتباره قطاعاً لسانياً صرفاً، إلا حينما يأخذ بعين الاعتبار الانتظامات الدلالية الجاهزة مسبقاً من خلال «المنهج» الخاص مِمَّا يسطر ويجسد حدودها الحقيقية.

ورغم أن علم المعجم يعزو تحديد مجاله إلى انتظام موضوعه، فهو مع ذلك ليس علماً ذا معطى دقيق، أو نظرية معرفية تامة. كما أنه ليس مكرساً ليكون علماً للشذوذ، وعدم الانتظام والخصوصية اللغوية، عن طريق إدراج البعد التاريخي.

إن تعدد النظريات والمناهج في المجالات العلمية كاللسانيات ومنطق اللغات الطبيعية، لخير شاهد على التقدم المنهجي المهم، الذي تفوقت به هذه المجالات العلمية، بصورة خارقة على العلوم الإنسانية الأخرى. تفرض هذه الحالة على علم المعجم إذن توسيع موضوع اللسانيات، لكنه يفقد عند ذلك ترابط المناهج وتلاحمها، ولا يستطيع أي نموذج معجمي تبرير هذا، ولو من داخل تعريفه الخاص.

لكن الوصف المعجمي الذي يرتبط بصورة ضيقة بعلم المعجم الوصفي قد حقق نوعاً من الترابط والالتحام، عن طريق الالتجاء الجزئي والمضاد إلى النماذج اللسانية.

علم المعجم التعاقبي:

1 ـ التطبيق المعجمي:

إن الدراسة أو الوصف المعجمي يمكن أن يكتسي عدة مظاهر:

أ ـ دراسة «الحقول» المبنية بدقة والمأخوذة من متن مغلق، أو من مجموعة مفتوحة من الخطاب.

ب ـ دراسة تعاقبية واجتماعية تاريخية للعلاقات المعجمية المأخوذة ضمن علاقات تصورية مفصلة: (الاهتمام بالمصطلح، أو استعمالات كلامية: المستوى السوسيوثقافي، أنواع الخطاب، أو نماذج التواصل).

ج ـ دراسة تزامنية تهتم ببلورة الأنظمة الصغرى المبنية بواسطة اللغة: (الجانب الصرفي ـ الدلالي) أو بواسطة الميدان المرجعي: (تحديد علاقات التشابه، درجات ترتيب الكلمات).

إن التطبيقات المعجمية تسعى إلى تحليل عناصر المعجم «المستعمل والمنجز» من خلال خطاب معين. كما أنها تحاول إبراز اختلاط وامتزاج الإشكاليات المعجمية عندما يتعلق الأمر بموضوع تجريبي. لن نتعرض لوصف العلاقات التركيبية (البسيطة في هذه الأمثلة على مستوى المركب الاسمي «م س»)، لكن على مستوى البنيات السطحية، وذلك قصد استخراج العلاقات التبادلية والدلالية. إن دراستنا للمعجم الخاص (عند شاعر، كاتب، مؤلف مسرحي..) تقابل مضموناً ذا معنى محدد مسبقاً، وتطبق على حقيقة لغوية معروفة، لكنها تظهر فقط كدراسة للمتغيرات الأسلوبية الشخصية، ولا تطرح قضايا كبيرة بالنسبة لعالم الدلالة.

سأختار هنا نصاً أدبياً «لنرفال» كتب بين 1836 و1855، ويتعلق الأمر في هذا التطبيق اللساني المعجمي بإبراز الوحدات المعجمية التي استعملها «نرفال» لتجسيد أسلوب الأعمال الفنية التي يتعرض لها.

يقول واصفاً كاتدرائية مدينة ستراسبورغ: «إن البابين الجانبيين يعدان من روائع

النحت والهندسة المعمارية فأحدهما موريسكي والآخر بيزنطي، وكل واحد منهما أكثر روعة من واجهة البناء لأن هيبته تظهر في مجموعة أكثر مما تظهر أصالته في جزئياته». إن هذا النموذج المعجمي يطرح عدة قضايا لسانية ترتبط بالمعنى. فبالنسبة للقارئ العادي «هناك نسبتان» محيرتان متعلقتان بكاتدرائية قوطية: (موريسكي، بيزنطي).

إن الرجوع إلى قاموس معاصر شيئاً ما لهذا النص لا يفيدنا كثيراً «فليتري LETTRE لا يتعرض للكلمتين، أما بشيريل: BESCHERELLE، فيسود شرحه شيء من البلبلة والتشويش: (إن الأسلوب الموريسكي هو مرحلة وسطى بين الأسلوب البيزنطي والأسلوب القوطي..) ويقول عن البيزنطي: (الفن البيزنطي: تقليد أو معارضة رديئة للفن الإغريقي، الذي لم يكن له حتى الوقت الكافي ليتكون، فانمحى قبل أن يملك طابعاً خاصاً به...)

إن دراسة معجمية تحليلية للكلمتين: (موريسكي، بيزنطي) تعطي تفسيراً مؤقتاً لهذا السر المستغلق: فالموريسكي يمكن أن يفسر بِـ«القوطي» والبيزنطي بِـ«الروماني».

يحلُّ هذا التفسير شذوذاً دلالياً، ويجعل الجملة واضحة: يتعلق الأمر الحال بالترجمة، لكنه لا يأخذ بعين الاعتبار الوقائع اللسانية والأسلوبية الأساسية: فهل استعمل «نرفال» هذه النسب لأنه لم يكن في متناوله غيرها، أو أنه على العكس كان يحاول معرفة أثر الأسلوب؟ هل في هذه الحالة كما في غيرها يمكن القول إن المفردات عادية، شخصية أو شاذة؟. لا يحل التفسير في النهاية المشكلة الدلالية: فهل ترجمة هذه النسب متجانسة فيما بينها بصورة مطلقة؟ فإذا كان ذلك بالنفي، فما قيمتها اللغوية؟

2 ـ التحليل الدلالي:

يؤدي ارتباطنا بالدلالة؛ أي بمضمون الإرسالية، بمعزل عن بنيتها الشكلية وبإقصاء لمشاكل المضمون غير التصوري (التي عولجت أحياناً بحماس شديد وأحياناً أخرى بشكل تخيلي، عن طريق انتقاد اللاشعور)، إلى جَعْلِ العمل التحليلي معقداً وشاقاً جداً.

وفي انتظار التمكن من بلورة «نحو دلالي» للنص المدروس، فإن التحليل الدلالي للوحدات المعجمية سيبقى هو الأهم: فهو من جهة سيسعى لتوضيح قسم صغير من مضمون النص المدروس، ومن جهة أخرى فإنه سيشارك في تعزيز بعض الاعتبارات المنهجية. ومع ذلك فالتحليل هنا جزئي فقط.

إن اختيار عينة الدراسة هو الذي سيحدد بصورة نهائية موضوع البحث ولا يحصل تجانس أقسام العينة المدروسة إلا نادراً، ولو تعلق الأمر بعينة صغيرة واحدة لأن الاستعمالات تبقى دائماً متنوعة ومتنامية: (مؤلف روماني، أو فصل، أو قصيدة تضم غالباً عناصر مختلفة وضعيفة، آثاراً للتحرير الداخلي، إضافات حذف ـ تصحيح ـ تغييرات... الخ).

لذلك فإنه ليس هناك فرق منهجي بين دراسة نص واحد، ومجموعة من النصوص لنفس الكاتب.

نقوم دائماً عند الدراسة الدلالية لنص معين بالارتباط بنظامٍ مرجعي يتصل بالحقل المفهومي للباحث لأنه يمثل الوظيفة الفعلية لمعرفته الحقيقية بالكلام الذي يستعمله، وذلك لأن الدلالات التي ندرسها هي خاصة جداً إذا لم يتعلق الأمر بنص معاصر ينتمي إلى نظام مخالف، تصورياً ولسانياً.

يمكن أن نفهم بصورة حدسية أن «موريسكي» لم يعد صالحاً لتمييز أسلوب فني معماري (ما عدا في إسبانيا الموريسكية)، وأن «بيزنطي» لم يعد يستعمل بخصوص بناية ألزاسية. لذلك يمكن القول بوجود نظامين[1].

1 ـ النظام الذي يدرسه المعجم بالدلالات الجاهزة المسبقة غير المعروفة أو اليقينية.

2 ـ ونظامنا نحن، الذي من خلاله ندرس النص انطلاقاً من مرجعيتنا. وبذلك نقارن بين مجموعتين من العناصر المعجمية: المجموعة التي تميز الأسلوب الفني المعماري، والمجموعة التي يفترض أنها معروفة لأنها مجموعة معجمية من لغتنا الحالية «اللغة الواصفة: الوظيفة الماوراء لغوية».

1 ـ إن الأمثلة الواردة في هذا النموذج التطبيقي، ليست ترجمة حرفية للأمثلة التي استدل بها الآن راي في كتابه: "le lexique image et forme"، وإنما هي أمثلة مصاغة حسب خصوصية «المكونات الأساسية للغة العربية»، ونظام «قواعد إعادة كتابتها».

يفترض موضوع دراستنا وجود الأمور التالية:

1 ـ وجود مجموعة من الحقائق:

تُجَسَّدُ بواسطة اللغة في بعض الأسماء، المتميزة عن الأسماء الأخرى، عن طريق مجموعة من الخاصيات السميائية (تطابق المميزات التصورية: «عمل إنساني + إحساس بالجمال». يمكن القول أن الأمر يتعلق «بتكونات» أو بعناصر التكون تزيين، لوحات... الخ).

ثم وجود مجموعة من الأسماء المجردة، تملك كل المميزات السيميائية في هندسة معمارية، رسم.. الخ أو سمات «الأسلوب الفني».

2 ـ يفترض هذا التحليل التطبيق بواسطة الوظيفة الدلالية المحددة للغة:

نعت، صفة مركب.. ضمن مضمون تصوري لجوهر الكلمة.

نموذج معجمي تطبيقي(1)

الأسماء	المحددات	الأسماء	المحددات
قصر	في الضاحية	المنازل	الجديدة
ساحة	النصر	زقاق	الأمير
زقاق	العلويين	حي	الإنارة
وسط	البيضاء	حقل	الجولان
قطع	الشطرنج	أزقة	هادئة
مدينة	اسفي	حدائق	كثيفة
نوافذ	سوداء	قصر	الأمويين
مقبرة	الكبار	نافورة	مشيدة حسب الذوق القديم
قوس	النجم	ألوان سفلى	خاصة بشجرة الدرّ

نلاحظ منذ أول وهلة أن هناك تردد حول المضمون السيميائي لبعض الأسماء: «وسط» مثلاً فهو متعدد المعاني. «وحديقة». يمكن الآن تقابل مفهوم «عمل إنساني» لكن المعيار الذي يوظف هذه الأسماء الموصوفة، يجعل طبيعة التحديد تساعد على إبعاد كل صعوبة: وسط + البيضاء تقابل «قسم، حيز مكاني» ودلالته هي غريبة عن موضوع دراستنا، «حدائق + كثيفة» تقابل: مجموعة نباتية في مكان معين، رغم أن «كثيفة» لا تحدد من طبيعة الحال إلا عنصر المضمون «نباتية» وفي «حدائق» تقصي السّمة والمميز السيميائي «عمل إنساني» من المركب اللغوي. إن المركبات اللغوية الأخرى التي يمكن أن تهم موضوع هذا العمل، يجب أن تفحص: فلن تأخذ إلا إذا كانت المحددات تستجيب للمضمون الدلالي «خاصية فنية».

لقد ارتكز انتقاء الأسماء الأولى على معايير دلالية أساسية: «عمل إنساني»، لا تترك للذاتية إلا القليل. لذلك فإن انتقاء المحددات يفترض تحليلاً دلالياً معقداً، يرجع بصورة ضمنية إلى شكل خارجي دلالي، يصعب تحليله عن طريق مميزات خلافية أساسية: «إحساس بالجمال»، «نموذجية فنية»، (استخلاص واعتراض بالخصائص الموضوعية الملائمة في الموضوع الفني). إنه تجمع مبني بدقة حسب خصائص معينة قصد تكوين واستعمال «النموذجية والتصنيفية». تُقْصَى من الانتقاءات التي أخذت بالاهتمام في البداية، التحديدات الطبوغرافية: «ساحة النصر»، «زقاق العلويين»، فهي تنتقي موضوعاً واحداً من مجموع «الأزقة» والساحات، وتقصى التحديدات غير المرئية «أزقة هادئة»، وبقية الأسماء تدرس في إطار «نموذدية وتصنيفية جمالية: Typologie esthetique. الارتباط بالسياق يحدد جميع الصفات والنعوت المرتبطة بها، وكذلك نوع الهندسة المعمارية المجسدة في «قصر في الضاحية»، «نوافذ سوداء»، علاوة على «الطابع الفني»، الذي يمكن أن يحدد موضوعاً فنياً: «لوحات معارك الخوارج». يمكن للمركب أن يحدد مجموعة «اللوحات» المتغيرة بواسطة السمات المعروفة جيداً، وهي سمات تتعلق «بالفاعل». كما نرى ذلك من خلال الوحدات المعجمية المتقاربة، أو المتباعدة ضمن

نصوص متخصصة: (لوحات المعارك، لوحة من نوع خاص، صورة شخصية، طبيعة صحراوية..).

بعد هذه الدراسة الأولية، يرقى التحليل المعجمي إلى مستوى دراسة: الصفات النعوت (أي العناصر المكونة لجمل المتن المدروس بواسطة «قواعد إعادة الكتابة: (Les regles de reecritures).

بعدها يتعرض التحليل المعجمي: للدراسة الصرفية أي ما يطرأ على الكلمات من تغير خلال تصريفها ضمن المتن.

إن هذا النموذج التطبيقي على المعجم الغربي يطرح عدة تساؤلات من الجانب العربي: أفلا يمكن دراسة معجم الهندسة المعمارية للفن الإسلامي في القرون الوسطى مثلاً؟ أي بمعنى آخر ألا يمكن دراسة الأسلوب الفني المعماري الإسلامي حسب المعطيات المعجمية؟

هل من دراسة معجمية للأبراج، والقلاع والحصون الصحراوية العربية، دراسة لسانية تبرز أسلوبها وجمالها المعماري؟

إن دراسة معجمية من هذا القبيل، قد تبرز المعجم العمراني كما في مقدمة ابن خلدون، أو تجلو مستغلقات المعجم الديني كما في الملل والنحل للشهرستاني.

قراءات
في علم المعجم الغربي

تقديم:

لقد قطع الغربي اللاتيني أشواطاً بعيدة في التحليل العلمي الدقيق للخطاب، عن طريق الوحدات اللسانية المنفصلة والمستقلة، التي سعى من ورائها إلى محاولة تجسيد تمثيل قار «للإنجاز والكلام اللغوي». نجد أن الغرب يولي أهمية قصوى في العصر الحالي للتحاليل الصوتية (وظائف الصوت) والتركيبية. كان النظر في الكلام واللغات المتنوعة، يرتكز قبل القرن 19 على علم المعجم، فعدَّ النحو على إثر هذا، كتشكيل للعناصر المنعزلة: (أي الكلمات).

عرف الغرب نشاطاً فعلياً، في الدراسة المعجمية منذ القديم، هذا النشاط الذي كان يتخذ من الوحدة المعجمية موضوعاً له. كان يهتم كذلك بالفهرسة المنظمة للعلامات اللغوية حسب نظام متفق عليه. كما أنه كان يضيف معلومات جديدة لهذه العلامات اللغوية، وهذا هو مجال «المعجمية، أو تقنية صنع القواميس اللغوية». أعطت الحضارات الغربية، مكانة كبيرة لدراسة العناصر المعجمية، ولعلاقاتها داخل الخطاب الذي تكونه. ومع تطور اللسانيات، تغيرت معالم علم المعجم في الغرب منذ القرن 19، شأنه في ذلك شأن العديد من قطاعات الفكر اللساني المعاصر. اختفى الاتجاه القديم الذي كان يدرس

«الكلمة» كعلامة لغوية أساسية، حيث صارت هذه «الكلمة» تدرس من خلال طبيعتها الصوتية والصرفية، تبعاً لأشكالها المتعددة. نجد أن قضية اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، قد ارتبطت كذلك بالمعجم وحددت بواسطة تعليل قوي ومتين (من داخل اللسانيات).

1 ــ الوحدة المعجمية:

يعدُّ الغرب الأشكال والعناصر المكونة للمعجم كلمات معجمية، تدخل في تكوين اللغات القديمة والكلام اليومي. نجد أن «ف. د. سوسير» قد تحدث عن «الكلمة البسيطة والمركبة». كما أنه فصل القول في «الوحدات المركبية»، بينما تحدث «ل. بلومفليد» عن «الكلمات والمورفيمات المعجمية»، ورفض الاهتمام بالمعنى بصورة مستقلة. والملاحظ أن الدراسات المعجمية بالغرب قد اعتمدت في تحديد وتعريف مفهوم «الكلمة» على الكلمات المفصولة بواسطة بياض، تركته الآلة الكاتبة، لكن هذا التحديد لا يطابق دائماً الحقيقة الوظيفية للكلمة لأن فارق البياض والفراغ، يختلف من كلمة لأخرى، وهكذا يختل التحديد الذي يعطيه الغربيون «للكلمة» لأنه ليس كلياً ولا شاملاً.

إن «الكلمة» كوحدة معجمية أساسية، قد خلقت في اللسانيات الغربية المعاصرة عدة مواقف متناقضة. والوحدة اللسانية التي من هذا القبيل، تقترن تقريباً بحالتها داخل اللغة اليومية، وداخل العلوم الإنسانية الأخرى. يمكن أن تظهر كذلك داخل كل تطبيق حقيقي للسانيات الوصفية، وذلك على شكل خط يشطر المستويين الاثنين للبنيات: (المستوى الصرفي: بنية معجمية تحتية، والمستوى التركيبي: بنية معجمية فوقية). نرى أنه لا يوجد هناك تعريف مرض وشامل لمفهوم «الكلمة»، الذي يمكن أن يكون مقبولاً من طرف الجميع. وانطلاقاً من هذا المعطى، يرفض بعض اللسانيين في الغرب منح «الكلمة» أية قيمة لسانية باعتبارها وحدة معجمية أساسية. إنهم يعزلونها عن وظيفتها اللسانية لأنهم يرون أنها من اختراع الهواة، وليس من عمل الراسخين في اللسانيات.

من أهم التحديدات والتعاريف الغربية «للكلمة» تلك التي تضعها في إطار علم وظائف الأصوات. لكن يبقى هناك سؤال، يفرض نفسه دائماً بحدة وهو: ماهي الحدود اللسانية للكلمة كوحدة معجمية؟

يرى «شارل بالي» أن هناك جوابين على هذا السؤال:

أ ـ أن الحدود «للكلمة» كوحدة معجمية، تنجم عن الوهم الذي تخلفه كتابة الكلمات وإملاؤها.

ب ـ تتضح هذه الحدود كذلك عن طريق دراسة تاريخ الكلمة وتطورها. لكن كما ذكرنا آنفاً، فإن الوحدة الكتابية لا تشكل دائماً «وحدة فكرية» يمكنها أن تكون «كلمة» ذات تمثيل منفصل.

إن هذا الخلط في تحديد «الكلمة» كوحدة معجمية يدفعنا للقول أن بعض الكلمات قد لا تشكل وحدة معجمية. نرى أن صعوبة تحديدها كوحدة معجمية، تطرح قضية حدود «أحداث ووقائع التعبير»: فما دام التحديد الدقيق «للكلمة» غير موجود، فإن قضية «أحداث التعبير» ستبقى مطروحة لأننا «نعبر» عن أفكارنا «بالكلمات».

تأتي صعوبة التحديد «للكلمة» انطلاقاً من الجوانب الثلاثة التالية:

1 ـ قد تعطينا «الكلمة المكتوبة» وحدة فكرية، أي عنصراً نفسياً لسانياً. نجد العديد من أسماء الأشياء في هذا الصدد: (طاولة، طريق، بيت...) وعدة تجريدات لسانية مثل: (فضيلة، كراهية، شجاعة). ثم صفات ونعوت: (جميل، خبيث)، أو أفعال تشير للحدث أو الحالة: (سار، عاش) وهي تقابل وحدات فكرية بمعنى أوبآخر، يكون هو معناها العام والمسيطر.

2 ـ قد تكون «الكلمة» فئة معينة، من وجهة نظر كتابية، فتضم وحدتين فكريتين.

3 ـ إن الوحدة النفسية اللسانية، قد تتجاوز حدود «الوحدة الكتابية» لتشمل عدة كلمات. ليست «الكلمة» بهذا المعنى إلا جزءاً من الوحدة الحقيقية، التي يمكن أن تشكل عبارة مركبة.

الكلمات في إطار اللغة الأم:

غالباً ما يسترجع العقل الإنساني بسهولة الكلمات التي ترد عليه ضمن مجموعات، أكثر مما يسترجع تلك التي ترد عليه معزولة ومستقلة. لكن هذه المجموعات تارة تمر بسرعة وتارة تهرب من منطقة العقل لأن «الكلمة» التي تلج عقلنا تكون في نزاع مع شبكة من كلمات أخرى، ذات خيوط معجمية حاملة لنفس المعنى. «فالكلمة» تأتي إلى العقل ثم تختفي لتحل محلها كلمة أخرى أو أنها ترتبط بالملايين م..ن الكلمات الأخرى. ننمي حصيلتنا اللغوية، وبذلك تفسر الكلمات بعضها، وتسمى باسم بعضها، مما يجعلها تطبع في الذاكرة بسهولة. إن الارتباطات والتبادلات اللسانية تعطي للكلمات حرية كبيرة في الاستعمال، فهي تسمح بإمكانيات لا تحصى لإنتاجها من جديد. يمكن القول أنَّ تداخل الكلمات فيما بينها يختلف حسب المظهر، ضمن حدود شكلية تشتمل على حالتين:

1 ـ يتفكك ارتباط «كلمة» بأخرى عند كل تشكيل أو تركيب جديد. تمنح الكلمات حرية الارتباط بصورة مغايرة بكلمات أخرى جديدة.

2 ـ تخضع الكلمات للاستعمال المشترك، قصد بلورة فكرة معينة، فتفقد استقلالها وانعزالها، ولا يمكنها الانفصال عن المعنى المشترك.

يرى «بلومفيلد» أن «الكلمة» تعد من الأشكال اللغوية، التي يمكن أن ترسل منفردة (وهي مرتبطة بمعنى) لكن لا يمكن تحليلها إلى عناصر لغوية قد ترسل هي كذلك منفردة (وتكون مرتبطة بمعنى). إن هذا التعريف يملك قصب السبق على عدة تعاريف لسانية أخرى، لكنه يقود إلى نتائج تتناقض مع التعاريف القديمة.

وقبل أن نفحص محاولة جديدة، نعطي تعريفاً علمياً «للكلمة» كوحدة معجمية لأنه يجعلنا نطرح السؤال التالي: ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر لكي نعد تعريفاً ما، بأنه مرض وشامل؟ إن المفهوم المتداول «للكلمة» بأنها وحدة لسانية تظهر في استعمال مجالات أو طرق كتابية ضمن كتابات متعددة،

ليس مفهوماً متماسكاً يمكن أن يسمح بإيجاد تعريف يدرج في الحُسْبَانِ كل الطرق الكتابية الموجودة.

هناك عدة شروط تساعد على إيجاد تعريف مرض للكلمة، حتى يمكنها مسايرة المفهوم العام المتداول:

أ ـ على «الكلمة» أن تشتمل على متوالية متصلة من الأصوات، حتى يمكن لكل حديث أو قول لساني أن يشطر إلى عدد مُنته من الكلمات، وهذا بطريقة شاملة ومفصلة.

ب ـ يجب أن تمحى حدود «الكلمة» عند الاتصال بالزوائد، لأن بعض الزوائد تكون داخلية بالنسبة لحدود «الكلمة».

يرى «ادوارد سابير» أنه من الصعب تعريف «الكلمة» انطلاقاً من وظيفتها اللسانية، حيث أنها يمكن أن تعبر عن أشياء متعددة حسب تصور معزول ومجرد.

إن «الكلمة» عند هذا العالم الأمريكي هي: «شكل أو شيء مكون بطريقة يمكنها أن تضم القليل أو الكثير: المادة التصورية، الفكرة العامة». لكن ألا يمكن أن تكون هذه «الكلمة» مجرد تجريداً وعودة للجذر الأصلي؟ وألا يمكن كذلك أن تكون قد أخذت من الجملة بصورة اعتباطية؟

يرى «سابير» أن «الكلمة» هي جزء صغير تام المعنى، وإذا قسمت، فإن التقسيم لا بد وأن يحمل تغييراً للمعنى، وربما قد يبقى أحد الأقسام بدون معنى. وللخروج من «إشكالية الكلمة»، فإن مارتيني يفضل مصطلح «المركب المستقل» على مصطلح «الكلمة» لأن «المركب المستقل» يثير الاهتمام، بحيث لا يمكن فصل عناصره المرتبطة، التي تضم «الكلمة» صحبة «المونيمات»، التي لا تدخل في إطار مركبات من هذا القبيل.

مبادئ ومناهج علم المعجم البنيوي:

لقد سمحت مناهج التحليل والتطورات التي عرفتها اللسانيات البنيوية التزامنية،

بمعرفة شاملة للظواهر المعجمية. طورت الوسائل التقنية هذه الأمور، مما أعطى ثقة كبيرة في نتائج المعجم وتحديداته لعدة مبادئ وأسس هامة. وهكذا لم تبق الدراسة المعجمية، مجرد اختيار بالصدفة وبالاعتباط للكلمات، دون تمييز الفترات التزامنية والمستويات اللغوية: لقد أصبحت الدراسة المعجمية للكلمة ترتكز على فحص نظام معجمي معين أخذ برمته للدراسة، دون حذف أو إعطاء لأحكام مسبقة جاهزة.

إن النسق المعجمي يتكون من مجموعة من الوحدات الدالة، التي تدرس بأكملها، بحيث تحدد العناصر بصورة تقابلية. نجد أن الظواهر المعجمية ترتبط غالباً بالعوامل التاريخية انطلاقاً من مبدأ التقابل العام. كما أن الحقل المعجمي ينظر إليه في إطار الصيرورة التاريخية. لكن تطوره قد طرح إشكالية العلاقات الموجودة بين الوقائع اللسانية والعوامل التاريخية: (إن اللغات ليست إلا ما تصنعه تلك المجمتعات التي تستعملها). يجعلنا هذا الأمر نطرح السؤال التالي: هل يمكن المقارنة بين الحقل المعجمي والبنية التحتية الاقتصادية؟ إن الأعمال اللسانية المعاصرة لم تصل لنتائج كافية، تمكنها من الإجابة عن هذا السؤال. من المستحيل أن دراسة المفردات السياسية والاجتماعية لا يمكن أن تصطدم بالسؤال الذي يطرح حول العلاقة بين تطور المجتمع من جهة، وبين الظواهر المعجمية من جهة أخرى. هناك عدة بحوث غربية معاصرة تحاول الإجابة عن السؤال التالي أو ما يدور في فلكه: كيف يمكن لمعجم أن يمثل في فترة معينة من حياة مجتمع ما، صورة صادقة للبنية الاقتصادية والاجتماعية؟

إن المعجم اللغوي يختلف حسب الطبقات الاجتماعية، وكذلك حسب الأفراد: (يخلق كل وسط لغته الخاصة، التي تتكون من مصطلحات وجمل تقليدية)، وحتى عندما تستعمل الطبقات الاجتماعية نفس الكلمات، فإنها تمنحها مضامين مختلفة: إن المعارضات السياسية والمنافسات الاجتماعية غالباً ما تترجم في المعجم. قد تبرز الاختلافات على مستوى الأشخاص: (الكل يعلم أن الكلام متغير.. إنّ شخصين من نفس الجيل ومن نفس المقر، يتكلمان نفس اللهجة وينتميان لنفس الطبقة الاجتماعية، «لا

ينجزان» كلامهما بنفس الطريقة). إن هذا الاختلاف الاجتماعي والفردي للكلام يوجد كذلك في المعجم، الذي يتغير هو كذلك حسب الطبقات الاجتماعية والمقولات الاقتصادية، وحسب الأفراد والأجيال التي ينتمي لها هؤلاء، وبناءً على التكوين الثقافي الذي حصلوا عليه والوظيفة الاجتماعية التي يشغلونها.

إن «الكلمة» حسب هذا المنظور ستملك عدة «سيمات وقيم» قد تتوزع حسب الفئات الاجتماعية، أو أنها تقسم تعاقبياً حسب الأجيال الموجودة في نفس العصر. يقودنا هذا الأمر إلى اعتمادِ الحقل المعجمي كدراسة معجمية لذاتها، حيث يتشكل من مجموعة خاصة، أو طبقة أو فئة معينة، وربما من شخص واحد.

2 ــ الحقل المعجمي: "CHAMPLEXICAL"

يرتبط تحديد الحقل المعجمي بالطابع الاعتباطي، الذي لم يستطع الاختيار المعلل للمعايير اللسانية، أن يخفيه ويقنعه. نجد أن عزل منطقة لسانية عن مجموعة ما، يدفعنا للافتراض أن المعجم الذي يؤخذ لذاته يكون مكوناً من بنيات مختلفة، تملك كل واحدة منها مميزات خاصة أو قوانين مستقلة.

إنه رغم تحديد بعض جوانب الحقل المعجمي، فإن بعض الأسئلة تطرح نفسها مثل: هل يجب اعتمادُ الحقل المعجمي كجزء من الكل؟

إن هذا الكل لا يعد ضمنه أي عنصر خارج عن تطور العناصر الأخرى.

ثم هل هناك معجم دقيق يأخذ بعين الاعتبار البنية الاجتماعية برمتها؟

أ ـ يحدد الحقل المعجمي في إطار اللغة، التي تعد كوظيفة للتواصل، بأنه تجربة مترجمة بشكل لغوي. أما المعجم الذي يعد موضوع الحقل المعجمي، فإنه يترجم علاقات النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، هذه العلاقات الموجودة بين الطبقات المختلفة لمجتمع معين. إنه معجم البنيات الاجتماعية والاقتصادية: (طبقة، بورجوازية، شعب، كادحون، عمال، رأسماليون، فلاحون...). كما أنه معجم النضالات الاجتماعية:

(إضراب، جماعية، اشتراكية..) وهو أيضاً معجم النضالات السياسية: (ثورة، تجاوب، حزب، إمبريالية، ديماغوجية: «سياسة التملق للشعب»، ديمقراطية، جمهوري.. إلخ). إن موضع هذا الحقل المعجمي، قد يمتد لدراسة مفردات اللغة العامة التي تنتمي إلى نسقه اللغوي: (مواطن مستقيم، أو خبيث، مذهب شريف، استقامة النظام أو اختلاله...) أو أنه يمتد (للغة البرلمانية): (اليمين، اليسار، المعارضة) أو «اللغة الانتخابية»: المرشح الرسمي النائب الموكل...). نهتمُّ بعد تحديد مضمون الحقل المعجمي، بتسطير الحدود الفاصلة بينه وبين القطاعات الأخرى، وهي لا تسطر إلا بإدراج عدة استثناءات.

إنه غالباً ما تتجاوز مفردات هذه القطاعات المتخصصة (إضراب، مالية، إحصاء، اقتصاد سياسي...) حدودها لتلج ميدان «اللغة السياسية أو الاقتصادية»: (راتب، رأسمالية...).

إن الحقل المعجمي لن يكون إذن متجانساً، وذلك لوجود منطقة اتصال بين المجموعتين السالفتين، يصعب معها التحديد الدقيق. غالباً ما نجد عدة اقتباسات من الفلسفة مدرجة في الميدان السياسي، مما يجعل المصطلحات الفلسفية المقتبسة، تفقد طابعها كمصطلحات خاصة: (الوضعية، رجل وضعي..).

ب ـ يطرح تحديد الفترة التاريخية للمعجم إشكالية كبرى، فإذا اخترنا كمعيار للتحديد، التواريخ المهمة البارزة، فإننا نكون قد حللنا المشكل بصورة جد ضيقة، تربط بين التطور السياسي واللغة. لكن يجب على هذه الفترة التاريخية أن تعطينا تغييرات جذرية داخل البنية الاجتماعية والسياسية، وهي معايير خارجة عن اللغة. لكنها تجسد العلاقة بين الثنائية السوسيرية تعاقبي (تاريخي) وتزامني (وصفي).

المعجم والتجربة الإنسانية:

إن اللسانيات التي تهتم بالبحث المعجمي لا تبقى وصفية خالصة لأنها تَعُدُّ اللغة كنظام مثولي: (نظام ذو علاقات داخلية، تدرس في ذاتها ولذاتها). إن الصرف يدخل في إطار

النحو الشكلي، لكن التصريف المعجمي يخرج عنه. لقد رأينا أن الوحدة المعجمية لا تحدد لارتباطها بمعنى معين، وذلك لأن دراسة العلاقات والبنيات المعجمية، هي مجال يحظى بأهمية بالغة في اللسانيات المعاصرة.

أ ـ علم المعجم وأصل الكلمات (L'ETYMOLOGIE)

درست اللسانيات التاريخية في القرن 19 تطور الأشكال، والقوانين «التي يمكن أن تستخرج منها. برزت بعض الاستنتاجات المرتبطة بأصول وجذور الكلمات على مر القرون. فصار علم المعجم التاريخي بعد ذلك دلالياً وبنيوياً، مما عوض «دراسة أصول الكلمات وحياتها»، التي عرفت رواجاً كبيراً في العهود القديمة (الدراسة الايتمولوجية). كانت تهتم بدراسة «حياة الكلمة» منذ ظهور استعمالها الأول حتى يسقط قيدها. ومع تطور اللسانيات المعاصرة أصبحت هذه الدراسة تهتم بـ«دراسة تاريخ الكلمة».

ب ـ المقولات المعجمية:

تتكون المقولة المعجمية من مجموعة كلمات، ذات مميزات معجمية عامة ومشتركة.

إنَّ الكلمة ذات وجهين (دال ومدلول)، كما أن الكلمات التي تشكل مقولة معجمية تملك كقاسم مشترك: مميزات دلالية: (على مستوى مضمون المدلول) ومميزات صرفية: (على مستوى التعبير الصرفي). لذلك فإن الكلمات التي تنتمي إلى فصيلة: (مغني، غسال، راقص.. الخ) تملك كقاسم مشترك حروف الفعل (غنى، رقص، غسل) هذا من جهة، ومن جهى ثانية فإنها تملك معنىً آخر (القائم بفعل معين).

إن المقولات المعجمية هي بنيات لسانية، عندما تكون في علاقة وشيجة فيما بينها (أو حينما تشكل كل منها كلمات تكون في علاقات فيما بينها). تكون هذه البنيات العناصر القاعدية للنسق المعجمي، لأنها تعد من الأوليات، التي تنعت غالباً «بالمثولية». إن كل مقولة معجمية تشكل «علامات لغوية مكتلة»، وذلك لأن الأمر يتعلق بارتباط مدلول بدال.

إن هذه «العلامات المكتلة» تقابل الكلمة التي تدخل في إطار «العلامات اللغوية المجزأة»، وذلك عندما يكون الدال والمدلول المكتلين مشتركين في مجموعة واحدة من العلامات، التي تدرج ضمن المقولة المعجمية.

تنتج عن المقولات المعجمية عدة خصائص ومميزات تقيم «العلامة اللغوية المكتلة» في مقابلة «العلامة اللغوية» بصورة عامة.

ج ـ المفردات اللغوية والحضارة:

تعكس المفردات اللغوية حضارة معينة. كما أن العناصر المكونة لحضارة ما، هي قابلة للانتقال من شَعْبٍ لآخر. تقتبس المفردات من لغة لأخرى، كما نرى ذلك من خلال الإرث الإغريقي في عدة ميادين، وكذلك مخلفات الرومان: (اقتباس عدة كلمات في الفنون، في الحرب، في البناء، في التجميل...). نرى أن العديد من الشعوب، قد غيرت مرات عديدة لغاتها على مر التاريخ. يرى علماء المعجم الذين يقولون بمبدإ «البروز» أنَّ البنية اللسانية لا تحدد عن طريق الارتباط الثابت بالعناصر التي تكونها. فهذه العناصر تقيم علاقات معقدة فيما بينها. إن الكلمات التي تكون حقلاً معيناً تتأثر ببعضها. كما أنَّ دراسة كل عنصر على حدة لا تفيد شيئاً. فالدراسة في هذا المجال تكون تبعاً لمجموعات معينة، يجري عليها البحث المعجمي. يطرح هنا سؤال ما زال يشكل عقدة صعبةً في علم المعجم المعاصر:

ألا يمكن لهذا العلم أن يهجر دراسة العناصر المختلفة الموجودة ضمن الحقل المعجمي ليهتم بتحليل التفاعل والحركة التي تشكل حقائق معجمية مهمة؟

المعجم والعلوم الإنسانية:

أ ـ المعجم وعلم السلالة "L'ETHNOLOGIE"

إن المظاهر الدلالية للغة معينة، غالباً ما تحدد ويتم تمييزها عن طريق المعجم،

الذي يحصل من خلاله كل «مورفيم» على معنى معين... إن إنجاز اللساني... لمعجم من هذا القبيل قد شكل قديماً قسماً كبيراً من التحليل الوصفي للغة معينة. يجب اعتماد اختلافات المعنى كمقاييس للمراحل المتنوعة التي يمر بها تحليله، وخاصة على مستوى وظائف الأصوات: La Phonologie نجد أن الاهتمامات العامة حول بنية وظائف الأصوات والصرف، هي مقاربات ذات درجة احتمالية قد ترتفع ليصبح المعجم تاماً وكاملاً. وانطلاقاً من هذه الأمور فإن اللغة لن تهمل الدلالة، كما أن قائمة كلمات المعجم ستدخل في مجال يتعاون فيه عالم السلالة وعالم اللسانيات. تشكل لغة الشعب المدروسة بالنسبة لعالم السلالة موضوعاً مهماً جداً لأنها تسمح له بتصنيف فعلي تام للموضوعات، التي تكون المحيط الثقافي للمتكلمين.

لهذا فإن معجم لغة معينة يعد كمرآة لبقية الثقافة. تطرح دقة الصورة الثقافية مجموعة من المشاكل التي يمكن أن تحل بصورة تجريبية.

ب ـ المعجم وعلم اللهجات "LA DIALECTOLOGIE"

ترتبط دراسة تنوعات النظام اللساني والعلاقات المكانية للغات بالجغرافية اللسانية أو علم اللهجات، التي تعدُّ علوماً مستقلة.

يعطي علم اللهجات للمعجم مكانة مهمة، لكن المشكل الرئيسي لدراسة الكلمة في هذا القطاع اللساني، هو البحث عن أسباب عدم بقائها في معنى معين، وكذلك البحث عن تغير المفردات داخل اللهجة المدروسة... وبعد ذلك تدرس النتائج المحصل عليها في هذا الصدد.

لكن دراسة الكلمات تطرح عدة أسئلة في ميدان علم اللهجات مثل: لماذا تفقد بعض الكلمات تداول استعمالها؟ لماذا نبتكر كلمات جديدة؟ ما هي العوامل التي تحدد نجاح هذا التغير؟ كيف تتجاوب اللهجات مع هذا الابتكار المعجمي؟ ما هي الآثار التي يخلفها

إدراج عناصر جديدة ضمن نظام لساني محلي؟ هل تحدث صراعات لسانية في هذا المجال وما هي طبيعتها؟

إن هذه الأسئلة وما شابهها، قد حركت وما زالت تحرك العديد من البحوث في ميدان «المعجم اللهجي» بأوروبا. تحظى الدراسة المعجمية والمفردات اللغوية، بمكانة هامة في ميدان علم الاجتماع اللساني، من خلال التعرض لمختلف الطبقات الاجتماعية.

إن الأوساط المسيطرة والمنتظمة داخل طبقات اجتماعية تكون جد متميزة في البلدان التي تملك لغة مشتركة. يكون التميز الطبقي عن طريق الاستعمال الخاص لهذه اللغة. كما أنه يكون عن طريق النطق والاستعمال للأشكال والأساليب النحوية، مما يخلق معجماً طبقياً خاصاً.

ج ـ المعجم والمعجمية: LEXICOGRAPHIE

حينما نفحص الأنظمة المعجمية الصغرى: (مفردات تقنية لطبقة معينة، مستويات اللغة)، فإننا نلاحظ أن مميزاتها الخاصة وعلاقتها بالمعجم العام تكون عن طريق وظيفة السياق الخارج عن نطاق اللسانيات، وكذلك عن طريق ظروف التواصل. لذلك فإن المعجم يمثل الوظيفة الفعلية لحجم التواصل: (الإيقاع، تواتر الكلمات وتبادلها). تجدر الإشارة هنا إلى أن علم المعجم وكذلك «المعجمية»، يلعبان دوراً مهماً في دراسة اللغات المختلطة كما أنهما يدرسان الاقتباس الذي يرتبط بالمنهج التعاقبي المعجمي (حياة الكلمة وتاريخها، ثم المجموعات المعجمية) وغالباً ما تقتبس الكلمات البسيطة، ففي حالة العناصر البسيطة (غير المركبة)، فإن نوع التأثير المتواتر هو التحويل المباشر لمثولية وظائف الأصوات من لغة إلى أخرى. نجد العديد من الاقتباسات الحية في هذا المجال داخل كل اللغات الموصوفة. تنتج هذه القضية عن الازدواج اللغوي، الذي يخلق علاقات معجمية بين اللغات. لقد درس علم النفس اللساني هذا المشكل بصورة موسعة، مما أعطى لعلم المعجم والدلالة معطيات جديدة.

د ـ البنيات المعجمية واللغات التقنية:

من خلال التحليل والأوصاف التي قدمناها لمختلف جوانب المعجم، يتبادر سؤال مهم إلى الذهن وهو: هل التنظيم الذي أعطي للمعجم خلال الدراسة الوصفية، هو تنظيم للمخزون المعجمي في ذاته، أو تنظيم لأشياء الحاملة لمدلولات معينة تحيلنا عليها «اللوكسيمات؟»[1].

إن صورة البنية المعجمية لن تكون إلا إدراكاً متميزاً لهيئة خارجية محددة بواسطة بنية «نشاطية مكونة بدقة».. تلوح لنا المفردات التقنية لأول وهلة أنها مبنية بدقة لأنها تعطي نظرة مثالية للتعاريف الترابطية ضمن التصنيف العام للأشياء. فكل كلمة تحمل عناصر تميزها عن الكلمات الأخرى المنتمية لنفس المجموعة التقنية. لذلك فإن المعجم يرتبط بالتحاليل المجزأة والمتخصصة لأن اللغة التقنية تكون ذات موضوع محدد ونشاط تقني خاص، يدرج ضمن الدراسة المعجمية.

1 ـ هي الوحدات الأساسية للمعجم، التي تزيل الغموض باستعمال مفهوم الكلمة. تملك هذه الوحدات سمات دلالية بنيوية. يَدرس التوليديون البنى العميقة (المقدرة) للوصول إلى البنى السطحية (الظاهرة)، حيث يعانقون الجانب الدلالي قبل الجانب المعجمي.

آفاق لسانية:

تحليل الخطاب العربي

تشكل السيميولوجيا علماً للعلامات بمختلف دلالاتها. لهذا يجب منذ البداية أن نحدد أن النص المكتوب أو المنطوق الذي نخضعه للتحليل، يكون نتيجة لنوعين من العلامات:

1 ـ علامات لغوية أو متناصة: تتشكل من مجموع اللغة المستعملة داخل النص المدروس. كما أنها تدخل في علاقات متعددة مع فروع اللسانيات الوصفية.

2 ـ علامات غير لغوية أو غير نصية: تتكون من كل ما هو خارج عن اللغة المستعملة داخل النص المدروس، بحيث تعرفنا بالمتلقين، بالمكان أو «بالديكور الخاص بمنظر معين»، وكذلك بالفترة وبالجانب القولي وصاحبه.

إنه إذا توفرنا على كل هذه العلامات داخل التحليل، من خلال اتباعنا لمنهج دقيق، فإننا نستطيع الوصول إلى الكشف عن بعض «السمات المميزة» لشخصية الكاتب، وكذلك إلى تحديد البنيات الاجتماعية: أي الظروف التاريخية والنفسية والاجتماعية، التي كتب أو أرسل فيها النص. علاوة على هذا، فإنه لا يجب إهمال جانب القارئ أو المستمع.

لقد تحدثنا عن المتلقين الذين يختلفون عن بعضهم لأنهم يملكون «قراءات مختلفة أو سماعا» متنوعاً لنفس النص، الذي قد يستخلصون منه دلالات كثيرة وليس دلالة واحدة.

إن النص ينبع من النوعين السالفين للعلامات اللغوية التي تطرقنا إليها، وكذلك من

خلال المعطيات التي يقتضيها الخطاب: أي نوع السلطة المبدعة (شخصية الكاتب)، التي تعرب عن نفسها ضمن ظروف معينة (بنيات اجتماعية)، عن طريق تنظيم عملية الانتقال من اللغة (كمعدات نظرية ومجردة بكل افتراضاتها)، إلى إنجاز معين لهذه الافتراضات أو تلك (تنوع الدلالات الممكنة في علاقاتها بالمتكلم أو المستمع).

إن كل فئة من المتلقين (قارئ أو مستمع)، تخضع لعدد من العوامل: النفسية، الاجتماعية، الفلسفية أو غيرها، مما يجعلها تمنح لنص واحد دلالة، ليست بالضرورة هي الدلالة التي يرمي إليها الكاتب، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نتحدث عن «سيميائيات» (بمعنى الجمع)، تتعلق بنص واحد. إنه مصطلح علمي ملائم لأنه يدرج في الحسبان عدة عوامل متداخلة، أكثر من المصطلحات القديمة التي كانت مستعملة مثل: التفسير، التأويل، التعليق، شرح النص، القراءة... أو باختصار: النقد كما يقول «تودروف» في كتابه: ما البنيوية؟ القسم الثاني ص 16.

والحقيقة أن منهج التحليل الذي سنستعرض بعض صيغه فيما بعد، يسعى لتلافي - في حدود الممكن - السيميائيات المتعلقة بفئات المتلقين لكي يرصد سيميائيات الكاتب، وما يترتب عنها من «سيميائيات مميزة» عن شخصيته.

يظهر أن هذا المنهج معقد جداً من خلال الخيط العقلاني الذي يحكمه، لكنه مع ذلك يحتوي صيغاً وتأويلات ليست مجردة من الذاتية. لقد طبق هذا المنهج من طرف «أ. ج. كريماص» سنة 1976 على إنتاج «موباسان» بالاعتماد على نظرية الخطاب، المستوحاة من بعض الأسس والمبادئ، التي يصعب دحضها... إن كريماص قد وصف هذا المنهج في كتابه: «السيميائيات والعلوم الاجتماعية»، الذي ظهر في نفس السنة. قبل ذلك اقترح «ي. برايث» في كتابه: «السوسيولسانيات 1971» منهج تحليل منسق للخطاب بصفة عامة، لكنه يعدُّ دور المبادرات الفردية والخواطر التي نسجلها عن النص هامشياً.

إن اعتمادنا على نظرية الخطاب لِـ «أ. ج. كريماص» واقتباسنا للخطوط العريضة لمنهج التحليل كما هو عند «ي. برايت»، قد جعلنا نكيف منهج التحليل السيميولوجي مع

الخطاب العربي المعاصر. لقد اختبرنا هذا المنهج لمدة خمس سنوات، رفقة طلبة الإجازة ضمن شعبة اللغة العربية بـ«جامعة ليون الثانية». لكن قبل عرضه، فإننا نتساءل عن أنواع الخطابات التي يمكن أن يطبق عليها، وخاصة على الأقل في مرحلتنا الراهنة من البحث.

1 ـ أنواع الخطاب العربي:

لكي يمكن ضبط مجموع العلامات اللغوية المتناصة فيا بينها، وكذلك العلامات غير اللغوية لخطاب معين، فإنه من الأفضل أن يتوفر الباحث في آن واحد على: النص في صيغته المكتوبة والمنطوقة من طرف الكاتب نفسه. لكن ما دام هذا العمل متعذراً في أغلب الأحيان، فإنه يجب على التحليل أن يرتبط بأنواع معينة من الخطاب (في معناه الواسع)، والتي يمكنها تحديد ظروف إنتاجه: (الزمان، المكان، نوع المتلقين، المعطيات التاريخية. . .). علاوة على هذا، فإنه من المحبذ اختيار أنواع محددة من الخطاب، يعرب فيها الكاتب عن إحساساته، عن آرائه وأفكاره، عن معتقداته ولو بصورة مغلقة أو غير مباشرة.

إننا نعلم أن اختبار هذا المنهج يجب أن يقتصر ـ بالنسبة إلينا كمهتمين بالنصوص العربية ـ على أنواع الخطاب العربي المعاصر المكتوب أو المنطوق من طرف كتاب معينين، حتى نستطيع أن نحدد بعض المعطيات الخاصة بسيرهم الذاتية، المرتبطة بإنتاج هذه النصوص، أو التي يمكنها أن تعرب لنا عن «شيء معين».

إنه بمعزل عن الخطاب السياسي الذي يفرض نفسه هنا، فإن الباحث ينجرف مع تجارب كبار الكتاب أمثال زعماء الإصلاح في الإسلام، أو مفكرين آخرين أو السير الذاتية والتراجم، ثم الأشعار التي تشكل مرجعاً للكتاب الملتزمين أو كتاب الافتتاحيات للجرائد الكبرى. في النهاية فإنه قد يساير أطروحات الرواية والقصة والمسرح، التي تكشف عن «إرسالية أيديولوجية»، يَبُثُّها الكاتب. وهذا ما نجده في معظم حالات الأدب العربي المعاصر.

2 ـ أهداف المنهج السيميولوجي:

لقد سبق الذكر أن الهدف الأول لهذا المنهج هو: محاولة الوصول إلى سيميائيات الكاتب، من خلال النص المحلل، أي الدلالة التي يمنحها الكاتب لكلامه في «حقيقته» الشاملة والعميقة (سياسية، اجتماعية، اقتصادية، فلسفية... الخ).

إنها حقيقة تبرز من خلال تمظهرات اللغة التي يختارها الكاتب لتركيب النص (يشكل هذا العمل سلوكاً لغوياً معيناً).

ترتبط هذه السيميائيات في معظمها بشخصية الكاتب: أي نفسيته وأيديولوجيته، وربما بما تحت شعوره (أي سلوكه غير اللغوي).

أما الهدف الثاني لهذا المنهج، فإنه ينبثق من الأول، حيث يسعى لسبر أغوار شخصية الكاتب ـ قدر الإمكان ـ من خلال السلوك اللغوي المبثوث داخل النص المحلل.

تعد السيميولوجيا دراسةً لهذه «الحقيقة» الشاملة / العميقة / ، التي سميناها: سيميائيات الكاتب. إنها سيميائيات ترمي إلى تجاوز البحث عن التطابق بين السلوك اللغوي والسلوك غير اللغوي لكي تحدد بصورة دقيقة «السيمات المميزة» للكاتب، أو رد الفعل الذي يقوم به ضد محيطه. ندرك هنا مدى الإسهامات التي يقدمها علم النفس والتحليل النفسي لهذا المنهج المقترح لتحليل النصوص العربية المعاصرة. فعوض الحديث عن منهج التحليل السيمولوجي، يمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فنستعمل «منهج التحليل النفسي السيميولوجي للخطاب». لكن هدفنا هو جد متواضع في هذا البحث، إنه مجرد محاولة لمعرفة نفسية وأيديولوجية الكاتب.

3 ـ النص المختار للتحليل:

إن الهدف الأسمى هو: المعرفة العميقة بنفسية وأيديولوجية الكاتب. يظهر أنه كلما كان النص المحلل أكثر طولاً، إلا وكان الباحث أكثر تمكناً في الوصول إلى هدفه المنشود. لكن المنهج المقارن يفرض نفسه هنا، أكثر مما يفرض نفسه في مكان آخر.

يمكن للمنهج أن «يتناص» على المستوى المقارن، أي أنه يمكننا اختيار بعض النصوص ذات طول متكافئ، مستخلصٍ من كتاب أو عمل معين. إنه لمن الطبيعي، في مثل هذا الموطن الأخير، أن التاريخ والتسلسل التعاقبي وما يضمانه من ظروف سوسيو تاريخية، لا يجب أن يغيبا عن الأنظار أثناء التحليل.

قد يكون المنهج غير مقارن، أي أنه يمكننا أن نختار نصوصاً متكافئة في الطول عند كاتبين معاصرين أو أكثر، مع مراعاة معالجتهما لنفس الموضوع، الذي يشكل غالباً الاهتمامات الأساسية للفترة المدروسة: (السلطة السياسية، فقر سكان المدن أو القرى، إساءة الاستعمار الصهيوني وضغوطه، قيود العادات والأعراف، الصراعات الطائفية والمذهبية...).

أما بالنسبة لطول النص، فإنه من الصعب تحديده، لكن يجب أن يمثل النص وحدة تامة ومتماسكة، وذلك حتى يمكنها أن تعكس أولاً ـ على مستوى المظهر الخارجي، من خلال القراءة البسيطة ـ فكر الكاتب... عملياً، فإن صفحتين أو ثلاث صفحات، يمكنها أن تكفي لتمثيل مجال مهم للبحث، وخاصة على مستوى المنهج المقارن. إن اختيار نص معين للتحليل حسب الأهداف المحددة آنفاً، يجب أن يتلافى الفقرات التي تقود الكاتب إلى بعض الإسراف، الذي يخلق خطاباً يخيم عليه نوع من «الابتهاج والنرجسية» المملة. لقد نعت «بارث» هذه (الثرثرة، بأنها حثالة الكلام الذي يتكون تحت وطأة حاجة بسيطة). إن هذا الإسراف يمكن أن يوجد كذلك داخل بعض الأنواع الخطابية الأخرى، ولهذا فهو لا يستطيع بلورة منهجنا.

4 ـ منهج التحليل:

يضم هذا المنهج ثلاثة فروع وخاتمة:

1 ـ الفروع الثلاثة: يتعلق الأمر بتطبيق دراسة حول العلامات المتناصة، مع الأخذ بعين الاعتبار العلامات الخارجة عن النص التي يمكن أن يتوفر عليها الباحث: (معرفة بكل

الظروف التي كتب أو قيل فيها النص). تشتمل هذه الفروع الثلاثة على: علم المعجم التطبيقي، التركيب الشكلي، «الجملة» التعبيرية.

2 ـ التركيب الشكلي: يتعلق الأمر من جهة، بفهرسة أنواع الجمل والأشكال اللغوية الأكثر تواتراً عند الكاتب، ضمن النص المحلل. (هذا إذا وجدنا سيطرة كبيرة لبعضها)، ثم فهرسة للأقوال والروابط الخاصة من جهة أخرى. وباختصار، فإننا نقوم بفهرسة كل «وقائع تركيب الجمل»: (طول إيقاع، بنية..) التي تنتمي للتركيب الداخلي (نظام الكلمات وترتيبها اللغوي)، أو التركيب الخارجي «الروابط»، التي تملك طابعاً متميزاً. كل هذه الوقائع يجب أن تستخرج من خلال دلالة معينة لأنها تعطينا معلومات مهمة عن شخصية الكاتب. إن هذا الجمع يستعمل من منطلق المقارنة بين الأشكال اللغوية للعربية الكلاسيكية، أو بين تلك التي يستعملها الكتاب المعاصرون بكل طلاقة. من هنا تنبع مشروعية مفهوم: التركيب الشكلي وليس التركيب البنيوي.

3 ـ «الجملية التعبيرية»: يتعلق الأمر في هذا الفرع الثالث، باستخراج كل ما هو خيالي أو مجازي ضمن لغة النص. بالنسبة للخيالي، فإننا نتعرض للتشبيه، الاستعارة، التضاد... محاولين بذلك استخلاص بعض الصور الأصلية إذا وجدت. أما بالنسبة للغة المجازية، فإننا نقسمها إلى: كلام معاد، أساطير، رموز معروفة... لكننا نصنفها كذلك إلى: المحاكاة، الترجمة الحرفية، نقل بعض الصور الأجنبية...

إن هذا المجال هو الذي يلقي الضوء بصورة واضحة، على التقيد بالأعراف والامتثال لها، أو التقيد بالضوابط الاجتماعية والثقافية، التي يخضع لها الكاتب، لكنه يبرز كذلك رد فعله والسيمات الخاصة بثقافته وسلوكه إذا وجدا داخل النص.

ب ـ الخاتمة:

تظهر النتائج الكمية والكيفية للتحليل المعجمي بكل سهولة لأن الاهتمامات الأساسية والمسيطرة عند الكاتب كإنسان، تظهر واضحة من خلال اتجاه معين: (ديني، سياسي،

سوسيو ـ اقتصادي). علاوة على هذا، فإن التكرار، الترادف، الحذف لبعض الكلمات، يجعل المكنونات الدفينة للكاتب تظهر بصورة لاشعورية. إن هذا الفرع الأخير هو الأهم في تحديد سيميائيات الكاتب.

يمكن للمعلومات والتوضيحات التي يقدمها التركيب الشكلي، أن تبلور شخصية الكاتب: القوية، الحيوية، المسالمة أو الخاضعة. كما أنها يمكن أن تحدد ثقافته (وهي ثقافة مزدوجة غالباً عند الكتاب العرب).

1 ـ علم المعجم التطبيقي: يتطلب الأمر في البداية، القيام بجرد وتصنيف للوحدات المعجمية في ضوء المنهج التوزيعي: أي أنه يجب فصل كل كلمة أو مجموعة من الكلمات الحاملة لمعنى معين، بغية تصنيفها في البداية حسب «مرجعيات دلالية»، تحدد من خلال كل نص.

بالنسبة للنصوص العربية التي يقع عليها اختيارنا، فإن هذه «المرجعيات الدلالية» تظهر دائماً متغيرة. لذلك فإننا نقدم أكثرها تواتراً وتكراراً: (مرجعية دينية، سياسية سوسيو ـ اقتصادية، وثائقية، تاريخية ـ جغرافية وسيكولوجية ـ جدلية...). إن هذه المرجعية الأخيرة، تضم الوحدات المعجمية التي تعكس بصورة مباشرة: إحساسات، أو آراء وأفكار الكاتب ثم معتقداته. يسمح هذا الجرد المعجمي ـ ضمن قائمة من المرجعيات الدلالية، من خلال انتظام «حدوث» خطاب معين ـ بتقييم المرجعيات، المترادفات، الأنواع الصرفية المسيطرة، وربما المتواجدة بكثرة، أو التعارضات التي قد يضمها النص المحلل.

لا تظهر مكانة بعض الوحدات المعجمية واضحة في الخطاب، إلا من خلال هذا

(*) النص مأخوذ بتصرف من مشاركة «تابيرو» ضمن الندوة التي نظمها مركز الأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التونسي، تحت عنوان: «اللسانيات في خدمة العربية».

الجرد. إننا نصر على أن الدلالة التي تسمح لكل وحدة معجية بأن تصنف ضمن هذه المرجعية أو تلك: (في بعض الأحيان تصنف ضمن مرجعين في آن واحد) يجب أن ترتبط بالمحيط المتناص برمته لكي تكون صالحة في هذا المجال.

والخلاصة، أن النتائج الكمية والكيفية لهذا الجرد، هي التي تدرج في الحُسبان.

قد تبرز العديد من المؤشرات، التي تتصارع داخل نفسيته، وفي بعض الأحيان تكون هذه التوضيحات غير خاضعة للمنهج اللساني أو العقلي.

وأخيراً، فإن ما تحمله «الجملة التعبيرية» من توضيحات هو في آن واحد: توضيحات ثقافية ونفسية، تأتي لتكملة التوضيحات المقدمة من طرف التركيب الشكلي. وعموماً، فإن الفرع الأول يأتي ليعرفنا بسيميائيات الكاتب، وذلك بإلقاء الضوء على اهتماماته وطبيعة اتجاهه، بينما يبرز الفرعان الآخران ليطلعانا على نفسية الكاتب وشخصيته.

إن هذا المنهج يستحق الاختبار والتجربة، من خلال النصوص العربية المتنوعة. يشذب الاختبار أو يغير بعض جوانب هذا المنهج.

لكي يتكيف بصورة دقيقة مع النصوص. والآن وقد رسمنا مخططاً لهذا المنهج، فإن أعسر مشكلة تواجهنا هي: استخلاص النتائج من الفروع المختلفة للتحليل.

يقدم هذا المنهج فائدتين مهمتين حول التحليل للنصوص: فهو يسعى لغربلة كل شيء خلال التحليل، ثم إنه لا يدرج رأي الباحث بتاتاً أثناء هذا التحليل. هناك مجال للتأويل الفردي، لكنه ضئيل جداً نظراً لسيادة الطابع التجريبي.

التحليل الدلالي للغات الأفريقية

عتبات الموضوع:

هل يستطيع التحليل الدلالي تحديد السمات الثقافية والطبائع العرقية المتعايشة حالياً بالقارة؟ ما الجوانب العلمية التي يوظفها هذا التحليل لمعانقة لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية بأفريقيا؟ ما علاقة هذا التحليل بالوحدات الصغرى التي تشكل اللغات الثلاث المذكورة؟ كيف نستفيد من هذا المنهج في دراسة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى بعض اللغات والمتنوعات اللهجية المتواجدة حالياً بأفريقيا؟ ما علاقة المخططات العلمية التي يقدمها التحليل الدلالي بالمعايير الأخلاقية واللسانية والعقلية والاجتماعية عند شعوب القارة؟ كيف نجعل المخبرين الأفارقة يقدمون لنا معلومات كافية ودقيقة عن الواقع اللساني المتنوع الذي تعيشه القارة؟

الإطار النظري الموظف:

يمثل التحليل الدلالي الذي نروم تطبيقه على لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية بأفريقيا، مقاربة لسانية تتجه نحو تسطير الوحدات الصغرى الدالة في هذه اللغات الثلاث (مكونات دلالية، مميزات دلالية وسمات دلالية)، عن طريق تقصي وفحص الوحدات المعجمية (الكلمات والمفردات).

بماذا يفيدنا التحليل الدلالي الذي نطبقه على لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة

العربية؟ إنه يساعدنا على معرفة علاقات الإناسة والآنام (= علم الإنسان) في أفريقيا بالجوانب اللسانية الدلالية، والتعمق في دراستها، مثل:

أ ـ وصف وتحليل الثقافات الأفريقية.

ب ـ تحديد الحقول (معجمية، دلالية، مفهومية).

ج ـ ضبط الجوانب الاجتماعية الثقافية الأفريقية (الروابط العائلية والقرابة داخل الثقافات الموجودة بالقارة).

د ـ الاطلاع على الاهتمامات المحلية في مجال الترجمة بالقارة (ترجمة معاني القرآن الكريم إلى بعض اللغات الأفريقية أو تنوعاتها اللهجية)، أي تحديد السمات اللسانية القادرة على إبراز وحدات اللغة ـ المنبع (المنطلق) واللغة ـ الهدف (النهاية)[1]، وهذا يسمح لنا بإنشاء شبكة من المقابلات بين اللغات الثلاث.

كيف سنعرض التحليل الدلالي الذي نزمع تطبيقه على هذه اللغات الأفريقية الكبرى؟ سنقدمه على شكل تمايزات دلالية ندرجها داخل مخططات معينة. إن تحديد المكونات المتخالفة (السمات) داخل لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية يؤدي إلى تحديد الثقافات المحركة لهذه اللغات بالارتكاز على السياقات والمقامات اللسانية والثقافية. يساعدنا استخراج الوحدات المعجمية المنظمة لأنساق اللغات الأفريقية المذكورة على مواجهة درجة الصحة / درجة الخطأ.

*** التحليل الدلالي للغات الأفريقية:**

نقسم تحليلينا لهذه اللغات إلى ثلاثة جوانب:

1 ـ رصد الحقل الدلالي: نقوم بجرد لكلمات (ساحر، قبيلة، زعيم، استعمار، زواج، مسجد / كنيسة، الإله، الأب، السيد..) في لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية، حيث نسجل داخل قائمة عمودية مرادفات كل كلمة مذكورة. كما نستعمل قائمة أفقية

1 ـ يقصد بالمنطَلَق اللغة المترجم منها، أما النهاية فيقصد بها اللغة المترجم إليها.

لرصد وظائف الكلمات عينها. يشترط في المخبر الأفريقي الأصيل تحديد المقابل لكل كلمة موجودة بالقائمة العمودية، من خلال الوظائف المتنوعة بالقائمة الأفقية (مثلاً: «س» يداوي بهائمنا، «ي» يغير مصيرنا.. الخ). يسمح هذا الإجراء اللساني بإقامة جداول متماسكة ومتجانسة بالنسبة للمعطيات المستقاة من اللغات الأفريقية الثلاث.

ـ تحديد مخطط الحقل الدلالي: يمكن لكل الكلمات ـ العينة الموحدة بين اللغات الأفريقية أن ترتدي عدة معان، مما يجعل العلاقات الواضحة بينها تعكس بشكل عام الأحداث والوقائع الثقافية الأفريقية.

يساعدنا الاتصال المعجمي والدلالي الحاصل بين لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية على الاستفادة من بعض الكلمات بصيغها النحوية وجذورها الصرفية، مثل كلمة «وزن» التي تنتقل معجمياً ودلالياً بين اللغات المذكورة، حيث تعني «حمولة، رزانة، كثرة، ثقل، كمية، وضع اجتماعي، ضغط، ممل، انعدام الخفة، قلة الحركة، الهدوء، الاحترام، الوجاهة، الشرف، السيادة، الزعامة..).

يخلق هذا العمل خمسة أنواع من القوائم[2]:

1 ـ قائمة الكم (لا نستعمل هنا أي حكم قيمة محدد)، مثل: ثقل، كثرة..

2 ـ قائمة عدم التفاعل (لا نصدر أي حكم قيمة)، مثل: طويل.

3 ـ قائمة عدم التفاعل (نستخدم حكم قيمة للتحقير): انعدام الخفة، قلة الحركة.

4 ـ قائمة القيم المعترف بها ثقافياً: الوضع الاجتماعي، الوجاهة، الشرف،السيادة، الزعامة..

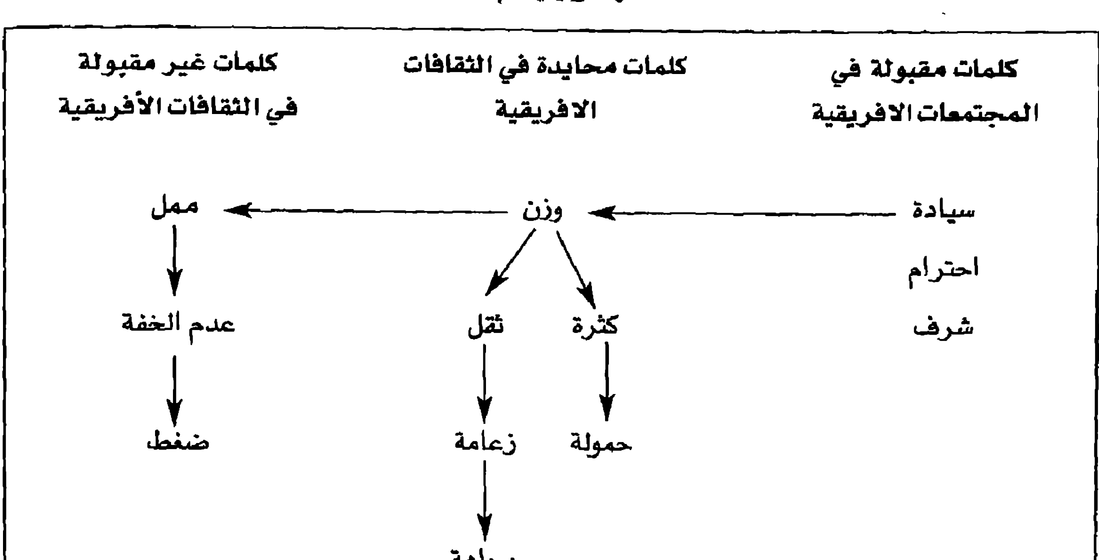
5 ـ قائمة الكثرة: (قيم سلبية)، ممل، ناقص، ممقوت، ضغط..

تساعدنا الأشكال المعجمية المستخلصة من لغة الهوسا واللغة السواحية واللغة العربية على إنشاء المخطط كما هو مبين في الجدول رقم (1):

يبرز هذا المخطط خصائص المعايير الاجتماعية والأخلاقية واللسانية والعقلية.. التي توظفها الشعوب الأفريقية لتحديد الكلمات السابقة، مما يمنحها سمات ثقافية وعرقية

2 ـ ينظر قاموس: DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE لمؤلفه JEAN DUBOIS ص 106 وما بعدها.

جدول رقم ١



متفردة، تميزها عن الموجود بالحضارة الغربية في هذا الصدد، ويبعدها عن أفكارها الباطنية وما يتعلق بحركتها التنويرية الإسقاطية (PROJECTION).

ـ المستوى الحقيقي للتحليل: يظهر تطبيق التحليل الدلالي على اللغات الأفريقية من خلال استعمال المفردات المذكورة سابقاً: نجد كلمة (الله ـ الرب ـ الإله ـ القدر ـ القوى الخارقة ـ القوى السحرية ـ القوى العلوية ـ قوى السماء ـ عوامل الطبيعة ـ قوى الخير والشر ـ قوى إنسانية ـ قوى غير إنسانية ـ السبب والمسبب..).

تحدد السياقات المتنوعة التي تضعها لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية الاستعمالات المتعددة لكلمة (الإله)[3]. كما أن استعمالات المخبرين السودانيين المنتمين إلى الأنواك تحدد تنوع السياقات التي توظف فيها هذه الكلمة، يمكن بناء جدول معين لكلمة (الإله = جووك) كما في الجدول رقم 2.

3 ـ يعبر الأفارقة عن اسم «الإله» بعدة ألفاظ ودوال تنبع من التنوع اللهجي واختلاف السياقات اللغوية المتعلقة بهذه الكلمة داخل القارة. يسمى عند جماعة الأنواك بالسودان «جووك» كما يبرز ذلك الجدول الذي نعرّبه عن جون ديبوا ومعاونيه من خلال قاموس اللسانيات.

جدول رقم ٢

المكونات:	السياق عند أبناء الأنواك									
الإله خلق العالم...	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10
تقدم إليه الهدايا والقرابيين...	+	+			+	+	+	+	+	+
ما يصيبنا مرده إلى الإله...					+	+			+	+
الإله يتجسد في الطبيعة...	+	+					+	+		
الساحر إله...،	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
الإنسان الأبيض إله...	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
المذياع وكل الأجهزة الالكترونية							+	+	+	+
تسخير من الإله...							+	+		
الخوارق والعجائب يصنعها الإله							+	+	+	
المرضى يموتون بقوة وإرادة الإله							+	+		
نحن مسيّرون بأمر الإله...	+	+	+							

لقد أثارت المناهج اللسانية القديمة التي تعرضت إلى تحديد مفهوم «الإله» عدة نقاشات حول القدرة والصفات المرتبطة بالإله. أما التحليل الدلالي فيسمح بتسطير آفاق النظام اللساني الملائم للبعد الاجتماعي والثقافي لكلمة (الإله)، الموظفة في لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية بأفريقيا.

لقد حددنا الكلمات والمفاهيم المستقاة من اللغات الأفريقية الثلاث حسب المجال المعجمي والثقافات والطبائع العرقية السائدة حالياً بالقارة، الأمر الذي يساعدنا على توسيع مجال التحليل الدلالي، حيث أدرجنا مفردات عامة ومنحنا المخطط بعداً قارياً.

لذلك أصبح بإمكاننا استخراج عدة مكونات دلالية عن طريق المقابلات الثنائية بين اللغات الأفريقية المدروسة، مثل الأفعال الآتية: اقتنى، وجد، أعطى، أعار، اقترض، أخذ،

أزاح، فقد، حاصر.. يتعلق الأمر في هذا التوسيع، الذي أجريناه على تحليل اللغات الأفريقية المذكورة، بالبحث عن حضور أو غياب مركب معين («أ» يضم «ب») من خلال الأفعال المختارة. يعد هذا المنهج الذي نطبقه على لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية بأفريقيا بعيد الهدف، حيث يقوم بوصف دلالي لكل وحدة معجمية عن طريق المكونات الدلالية (من نوع: «أ» يضم «ب»). تتطلب العملية هنا إدراج الأفعال المستخرجة من اللغات الأفريقية المدروسة داخل تجمعات وتنظيمات متميزة، حيث تحدد مقابلات ومكونات دلالية جديدة، حينما نتعرف على حضور السمة الرابطة («أ» يضم «ب») داخل «أ» يعير «ب» عند تقاطع (أغار)، وذلك على شكل «أ» يعير «ب» إلى «ج» داخل مجموعة من الأفعال الرائجة في لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية، مثل «يبرز، يحكي، يرسم، يعمل..». يمكن أن يقودنا هذا العمل إلى الاهتمام بسمة رابطة أخرى («أ» يقيم علاقة مع «ج» عن طريق «ب»).

إن أهمية هذا الإجراء الدلالي يتمثل في:

أ ـ عدم الاقتصار على تقطيع المفاهيم لأن المداخل المعجمية في اللغات الأفريقية المعنية قد تكون عشوائية.

ب ـ اجتناب السمة المخصصة لغرض التحليل لأن اختبارنا يسعى إلى رصد حضور أو غياب سمة معينة، والإحاطة الشاملة بالتكوين الدلالي لوحدة معينة تضمها اللغات الأفريقية الثلاث.

ج ـ استعمال الاقتصاد لأن السمات ستكون عامة قدر المستطاع.

إن المنهج المطبق على اللغات الأفريقية المدروسة يقوم أساساً على «بطارية شحن» بالنسبة للاختبارات، حيث يتجاوز المخبر الأفريقي إصدار حكم يتعلق بـ«أصولية» الجمل ومقبوليتها، ليهتم بانتقاء جمل معينة وتصنيفها تبعاً للبعد التأويلي.

نقدم فيما يلي اختباراً خاصاً بالتصنيف الموجه إلى تقييم حضور أو غياب المكون المتعلق ب («ب» تنتمي إلى «أ») داخل استعمالات الفعل (أعار) نصنف ذلك كما يأتي:

أ ـ ما دام قد أعارني هذا الشيء فقط، فإنه ليس ملكاً لي.

ب ـ ما دام قد أعارني إياه فقط، فإنه يعد ملكاً لي دون منازع.

يقدم التحليل الدلالي بالنسبة للصيغتين المستخلصين من اللغات الأفريقية مجموعة من الإجراءات تثير اعتراضات كثيرة من بينها:

1 ـ ارتباط التحليل بمجالات اللسانيات السلالية الأفريقية: خلق نسق يسيج القول المضمر أو المقدر، الخوف من إعادة صناعات يدوية بالية للإنسان الأفريقي.

2 ـ العمل الفعلي للخطاب الأفريقي: إذا كان فهم معنى كلمة معينة موجودة باللغات المدروسة مهما، فكيف يسمح بتحديده انطلاقاً من معاني كلمات أخرى تنتمي إلى قائمة المفردات؟.

يبقى الأمر متعلقاً هنا بدراسة العلاقات بين الكلمات المنعزلة والمشكلة للخطابات الأفريقية[4]. (كيف يمكن تكوين معنى جملة معينة تضمها لغة الهوسا واللغة السواحلية واللغة العربية بأفريقيا بالاعتماد على معاني كلمات مفردة؟). نترك باب المناظرة مفتوحاً في هذه القضية لقراء صحيفة الدعوة الإسلامية.

4 ـ تراجع الأعداد القديمة من صحيفة الدعوة، ابتداءً من العدد 694.

السمات الثقافية والطبائع العرقية بأفريقيا

النبوغ الأفريقي في الفكر الإنساني:

ألا يمكن إخضاع ثنائية: السمات الثقافية / الطبائع العرقية المتعايشة بأفريقيا للمناهج الغربية المستوردة؟ هل نستطيع الارتكاز، عند ممارسة المقاربة التحليلية للثنائية المذكورة، على الخطابات والنصوص الأفريقية، المتمايزة المكونات والعناصر، المتعددة النبوغ؟ ما حدود وقصور المناهج الغربية المطبقة في هذا الصدد؟ ما علاقة البحوث الغربية بالمظاهر الأخلاقية والدينية والموضوعية العلمية؟ كيف تعاملت الكنيسة المسيحية مع السمات الثقافية والطبائع العرقية المبثوثة داخل النصوص والخطابات الأفريقية؟

تحديد المفاهيم:

تخلق سمات الثقافة الأفريقية مجموعة من الوحدات الصغرى الفرعية التي تكون النظام الفكري الرائج داخل البيئة القارية. إنها قيم تؤسس تمايزات واختلافات دلالية بين ثقافة جماعة لسانية أفريقيية وأخرى أوروبية.. تتلاحم هذه الوحدات وتترابط لتنسج (شبكة ثقافية) تقوم على نسق لساني بنائي.

تمنح السمات الثقافية الفكر الأفريقي وحدة دلالية تتميز بالتحقق والإنجاز الواضح. إن هذه القيم الثقافية الفرعية تطبع الوحدات المعجمية المكونة للفكر الأفريقي بخصوصية متميزة. لذلك فإن الكلمات المكونة للمعجم الثقافي الأفريقي تصبح مجموعة من السمات

الفكرية القارية، مما يخلق مدارس ثقافية ومعطيات إقيمية. تمثل السمات الثقافية الأفريقية مجموعة من المكونات الدلالية للفكر الرائج بالقارة.

يبرز التحليل الدلالي كل السمات والقيم الخاصة بالثقافة الأفريقية، إذ أن تحديدنا لسمات ثقافة قارتنا يمنحها الصلابة والقوة المعقولة، التي تساعدنا على بلورة الآليات الدلالية للفكر الأفريقي، تبعاً لبيئته التي يتحرك فيها.

يمكن تقسيم سمات الثقافة الأفريقية إلى نمطين اثنين:

1 ـ سمات ثقافية فردية: تحدد خصائص الفكر الأفريقي بشكل مستقل.

2 ـ سمات ثقافية سياقية: تبرز التلاقح والتعايش والامتزاج بين الأنماط الثقافية المتعايشة بالقارة.

تسعى السمات الثقافية الأفريقية إلى إبراز التطور والنبوغ الحاصل داخل الملكات العقلية الخاصة بالإنسان الأفريقي، من خلال ممارساته لبعض الإنجازات والإبداعات الثقافية الموضوعية..

تتميز الثقافة الأفريقية عن الثقافة الغربية بخصوصية المعارف التي يكتسبها إنسان القارة خاصة تلك التي لا يفرضها الواقع الاجتماعي الغربي، نظراً لعدم الحاجة إليها.

تبني السمات الثقافية معارف قارية خاصة[1]، تفضي إلى بناء الحس النقدي. كما أنها تقوم على نبوغ من خلال:

1 ـ الذوق الرفيع.

2 ـ الحكم الموضوعي.

3 ـ التكوين المتين.

4 ـ التربية السليمة.

5 ـ الفهم والاستيعاب الجيدان.

يساعدنا رصد السمات الثقافية الأفريقية على تمييز النبوغ القاري عن طريق:

1 ـ وهو ما يمثل نظرية معرفية أفريقية تكشف منهجياً عن واقع القارة من خلال آليات محددة.

1 ـ نظرية المعرفة المرتبطة بواقع القارة.

2 ـ الحضارة الأفريقية من خلال بعدها الفكري.

أما الطبائع العرقية ETHNOGRAPHY الأفريقية فنقصد بها تحديد العقلية المنظمة للخطابات والنصوص المتعايشة بالقارة.. فهذه الطبائع ترتب وتنسق فكر شعوب القارة من خلال اللِسانيات التي تمارسها وتتفاهم بها. تبرز الطبائع العرقية الأفريقية ما يأتي:

1 ـ خصوصية العرق والتركيب للإنسان الأفريقي.

2 ـ علاقة اللِسانيات الأفريقية بعقليات شعوبها.

يقودنا تحديد الطبائع العرقية الأفريقية إلى الحصول على عدة معطيات أقليمية ومدلولات واستعمالات للخطابات والنصوص القارية التي تمثل نسقاً إقليمياً تداولياً يكون محدداً بدقة، بحيث يسد الفراغ القائم بين اشتغال علم الطبائع العرقية الأفريقية وما تذكره الأنحاء والقواميس المحلية في هذا الصدد..

يدفع تحديد الطبائع العرقية الأفريقية المتكلم الأصلي إلى إنجاز أفعال لغوية حقيقية تنتمي إلى جماعته القارية، مما يساعده على تخطي النحو والمعجم ليتواصل ويتفاهم مع أنداده بواسطة الحركات والإيماءات وأنواع التنغيم الأفريقي المتميز صوتياً وبعض أنواع الصمت. تخلق الطبائع العرقية التي يتم التعامل معها داخل القارة نسقاً سيميائياً رمزياً يوظف حركات أفريقية متميزة، تشكل أنظمة تستعمل الاتصال بين سكان القارة بلسان وفكر محليين[2].

عقدة (تمركز الأنا) في البحث الغربي.

حاولت عدة نظريات ومناهج غربية تعميم تطبيق أدواتها الإجرائية المحلية على عينات

2 ـ أي الدراسة التي تهتم بها (اللسانيات العرقية الأفريقية) التي تتعرض للغات القارة لأنها تعبير عن ثقافات بلدانها التي تمارس اتصالات لسانية مقامية متنوعة فيما بينها تساعدنا (اللسانيات العرقية الأفريقية) على معرفة:

1 ـ رؤية الإنسان الأفريقي للعالم.

2 ـ مكانة اللغات الأفريقية بالنسبة للموروث الشعبي.

3 ـ تعدد وتنوع اللغات الأفريقية في الاتصال بين السكان الأصليين.

ونصوص تنتمي إلى بعض مناطق أفريقيا، دون مراعات عدة خصوصيات: قارية، مثل:

1 ـ تميز العينات والمعطيات وتنوعها بأفريقيا.

2 ـ اختلاف العقليات بالقارة.

3 ـ ارتباط الطبائع العرقية باللسانيات المعبرة عنها داخل أفريقيا.

لم تتعرض العديد من النظريات والمناهج الغربية إلى البعد أو الخاصية التي ننعتها بـ(الأفريقانية)؛ إذ قامت بإسقاط دراسات خارجية جاهزة على القارة، مقصية البعد الداخلي المتميز العلاقات والوظائف. كما أنها وسمت عدة خصائص محلية رائدة بالتخلف، وذلك عن طريق توظيف عقدة (تمركز الأنا) الغربية في البحث العلمي، والمسقطة على تحليل الظواهر الأفريقية ميدانياً..

إن ما يعدُّه الغربيون تخلفاً حسب مقاييسهم ليس مفهوماً دقيق الصفة. فالتطور الدلالي ومضمون المفاهيم يحكمان عندنا بعداً إسلامياً عربياً لا علاقة له بالنصرانية واللغات الهندو أوربية.

فالديمقراطية عندنا لا تخضع لتحديداتهم المادية المحلية.

كثيراً ما نجد المفاهيم المستعملة في تحليل بعض الظواهر الأفريقية (اقتصادية، اجتماعية، سياسية، فكرية، دينية)، ذات مضمون غربي دخيل. لذا يجب القيام بمعركة فكرية قارية لمنح المفاهيم خصوصيتها الدلالية الإسلامية الأفريقية.

يكاد ينعدم الجانب الأخلاقي والعلمي الحديث الرصين في بعض البحوث التي تتضخم فيها عقدة (تمركز الأنا)، مما يجعلها تصطبغ بطابع (البحوث الغربية الآثمة) ذات النزعة الاستعمارية التي ترى أن:

1 ـ البحث الأفريقي يحكمه التخلف والعصبية القبلية[3].

2 ـ اللغات الهندو أوروبية[4] أحسن من اللغات الأفريقية السامية والحامية والبانتو والزنجية..

3 ـ يصعب على الباحث الغربي هضم دور القبيلة الأفريقية (سياسياً، اجتماعياً، اقتصادياً، دينياً وفكرياً) فلا يستسيغه لأنه لا يجد له مماثلاً إسقاطياً في ثقافته الإقليمية.

4 ـ يبرز المنهج اللساني المقارن أن أصل اللغات الهندو أوروبية هو اللغة (لغة الكتب الهندية المقدسة القديمة) وكله ظنّ وتخمين.

3 ـ بعض اللغات الأفريقية قويّ وبعضها ضعيف[5].

والحقيقة اللسانية الثابتة علمياً هي أن كل لغات المعمورة سواسية (وجود مستوى صوتي، مستوى صرفي، مستوى تركيبي، مستوى معجمي ومستوى دلالي)، لكنها تختلف في طريقة التعبير والإبداع بشأن ما يوجد بواقعها وما لا يوجد به.

يشوب بعض النظريات والمناهج الغربية ذات المعدات الإجرائية المطبقة على القارة نصيب كبير من التخلف العلمي، يتجسد في:

1 ـ اضطهاد وإرهاب فكري لكل إبداع غير غربي، يختلف من حيث الطرح والعقلية الموجهة.

2 ـ وجود خليط وتداخل نظري ومنهجي (إغريقي، روماني لاتيني قديم، وفرنسي إنجليزي حديث..).

3 ـ بروز اضطراب نفسي وتفكك عقائدي (سلمان رشدي، اندري شراكي، مكسيم رودنسون، كارل بروكلمان، صمويل هنتنغتون..).

يساعد النسق الثقافي والاجتماعي الذي ينشره الدين الإسلامي واللغة العربية بأفريقيا على ربط أهالي القارة بالشريعة الإسلامية وممارساتها اليومية، وجعلهم يشاركون في التنمية والتطور. لكننا نصادف في بعض دول القارة تغلغل الكنيسة المسيحية لإقامة معابد متعددة.. كما قام التعليم المسيحي بمنافسة التعليم الإسلامي واللغة العربية.. علاوة على أن الامبريالية الغربية استخدمت (جامعات جديدة في أفريقيا لتعزيز (موقعها) على أعلى مستوى أكاديمي)[6]. نجد في بعض الأحيان أن اللغة تقوم (بتعزيز آليات الدمج والتبعية.. وأن اللغتين الإنجليزية والفرنسية (...) تستخدمان على نطاق واسع في أفريقيا كأدوات للتخاطب بين الأفريقيين ومستغليهم أكثر منها أدوات بين الأفريقي والأفريقي)[7].

---

5 ـ عرضت قضية السود بحي هارليم بنيويورك أمام المحكمة بدعوى أنهم يتكلمون (إنجليزية سوداء) تلوث إنجليزية البيض القحة.. فصل (وليام لابيوف) في القضية معتبراً السود يعبرون بطريقتهم الخاصة عن كل مظاهر الحياة الأمريكية..

6 ـ والتر رودني أوروبا والتخلف في أفريقيا. عالم المعرفة 132. ص 45.

7 ـ المرجع نفسه، ص 53.

قد تشكل اللغة دعاية إيجابية، كما تشكل الموسيقا الشعبية المعروفة بموسيقا الجاز دعاية أمريكية تبثها إذاعة (صوت أمريكا) التي توجه إلى أفريقيا، لرسم (عالم الشعب «الأسود» المضطهد)[8].

إن المسؤول عن إبراز النبوغ الأفريقي في الفكر الإنساني من خلال تحليل ثنائية: السمات الثقافية / الطبائع العرقية في علاقاتها بالاقتصاد والسياسة والاجتماع والفكر، هم المثقفون الأصليون.

فكل واحد منهم يتحمل مسؤولية أطروحات الأنظمة الغربية ومناهجها وعقلياتها للعمل على تحويرها أو إلغائها.

يتجلى النبوغ الأفريقي في الفكر الإنساني من خلال تميز القارة بطبائعها العرقية، ذات السمات المميزة.. فلا تسعفنا قدراتنا وإبداعاتنا الفنية في الحكم على أن موسيقا الفالس النمساوية أرقى من موسيقا ماكوندي نجوما.. فالموسيقا والرقص يلعبان أدواراً رئيسية في المجتمع الأفريقي (غير الملوث)، فهما يتواجدان أثناء الولادة والحضانة والزواج والوفاة والاستجمام.. تمثل أفريقيا قارة الطبول والنقر الذي ينقل مختلف الأنباء، بحيث بلغت قمة الإنجاز في هذا المجال الاتصالي والرمزي.

8 ـ المرجع نفسه، ص 64 وما بعدها.

المحتويات